رواية

# جان أشينوز

# شقراوات

Twitter: @alqareah
20.1.2016

ترجمة بسام حجّار

دار الآداب

www.kutub-pdf.net

جان أشينوز

# شقراوات

رواية

ترجمة: بسّام حجّار

دار الآداب - بيروت

Twitter: @alqareah

www.kutub-pdf.net

شقراوات

Twitter: @alqareah

www.kutub-pdf.net

شقراوات
جان أشينوز/روائيّ فرنسيّ
ترجمة: بسام حجّار
الطبعة الأولى عام 2005
حقوق الطبع محفوظة

Les Grandes Blondes
Jean Echenoz
© 1995 by les Editions de Minuit S.A.

All rights reserved in Arabic. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة في اللغة العربية. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

**دار الآداب للنشر والتوزيع**
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

# ١

أنتَ تُدعى پول سالڤادور، وتبحث عن شخصٍ ما. يكاد الشتاء أن ينقضي. غير أنّك لا تهوى البحثَ بمفردكَ، ولا وقتَ لديك، لذا تتصل بجوف.

كنت تستطيع أن تضرب له موعدًا، على جاري عادتك، عندَ دَكّةٍ في مكان عام، أو في حانة أو في مكتب، مكتبك أنتَ أو مكتبه هو. ولكن رغبةً منك في التغيير تقترح عليه أن تلتقيا عند حوض السباحة في «بورت ــ دي ــ ليلا». فيرحّب جوف بالفكرة.

كنتَ لتكون هناكَ، في اليوم المحدّد، في الساعة المحدّدة في المكان المحدّد. غير أنّك لستَ پول سالڤادور الذي يصل مبكرًا في كلّ مواعيده.

هو، الذي وصلَ مبكرًا جدًّا في ذلك اليوم، دار دورةً كاملة حول المبنى الأسود والأبيض الحاوي خمسة آلاف هكتو ليتر من الماء. ثمّ، متتبّعًا الانحرافَ الطفيف لجادّة مورتييه، مرّ بالمنشآت الكابية التي تحاذي حوض السباحة لجهة الجنوب والتي تؤوي من جهتها خمسمئة موظّف تابعين لأجهزة الاستخبارات الفرنسيّة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

قرّر سالڤادور أن يدور دورةً كاملةً حولها، إلى أن تُسمَع، على مقربةٍ، دقّات الساعة في قبّة «سيّدة الرهائن».

هو وجوف التقيا في كافيتيريا المبنى الأولمبي للسباحة، فوق المنصّات المطلّة على الحوض، تحت سقف الزجاج الهائل المتحرّك. كانا الوحيدين، في ذلك المكان، اللذين احتفظا ببذلتيهما، بذلة رمادية فاتحة ارتداها سالڤادور، وكحليّة اللون ارتداها جوف؛ كانا يراقبان لغَطَ السابحين في الأسفل، ويخصّان السابحات بنظراتٍ نهمةٍ، وكلاهما يسعى، في قرارة نفسه، إلى تصنيفِ المايوهات التي تُستَعرض أمام ناظريه: مايو القطعة الواحدة أو القطعتين، البيكيني والبرازيلي، وتلك الرقيقة المستدقّة، والضيّقة الملتصقة، والأخرى ذات الثنيات أو حتّى المريّشة. كانا جالسين لم يشرعا بعدُ في الكلام، ينتظران كوبيهما من المياه الغازيّة الممزوجة باللّيمون الحامض.

كان سالڤادور في تلك الحقبة يعمل لحساب شركة إنتاج تلفزيوني، في قسم الترفيه والبرامج، الترفيه والبرامج التي كان جوف يشاهدها كلّ مساء بصحبة زوجته. أمّا سالڤادور، الأربعيني، الطويل القامة، النحيل، فلم يكن له زوجة. أصابعه الرشيقة الشاحبة تخاطبُ بعضها بعضًا بالإيماءِ لكلّ سانحةٍ، فيما تلبث يدا جوف، اللحيمتان أو الغليظتان، متخاصمتين، متباعدتين، لائذتين، في الأغلب، بكنفِ جيوبه. راح جوف، وهو ضخمُ الجثّة يكبر سالڤادور عشرةَ أعوام ويقصر عن طولِه عشرة سنتيمتراتٍ، يتذوّق شرابه على مهل: كانت المياه الغازيّة ونكهة اللّيمون الحامض تتضافران وأجواء المسبح الأولمبي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

المشبعة بالكلور لتطهير الأنوفِ بدَعة. وقال أخيرًا: من المعنيّ هذه المرّة؟ ثمّ هزّ رأسه مستنكرًا حين لفظ سالڤادور اسم امرأة. لا، أحسب أنّ الاسم لا يعني لي شيئًا. ومع ذلك هيّا ألقِ نظرة خاطفة، أجابه سالڤادور ممسكًا برزمةٍ من قصاصات الجرائد وصورٍ لامرأة بعينها، تبدو فيها على الدوامِ وهي تغادر مكانًا ما، ويقتصر شرحها على ذكرِ الاسم: غلوريا ستيلا.

صنفان من الصور. إذ تبدو، في بعضها الملوّن على ورقٍ مصقولٍ مصدره المجلّات الأسبوعيّة، إمّا خارجةً من مسرحٍ أو سيّارة جاغوار أو حمّام جاكوزي. وفي بعضها الآخر، أحدَث عهدًا، بالأسود والأبيض، رديء الطباعة، ومأخوذ من صفحات المجتمع في الصحف اليوميّة، إمّا عابرةً باب مخفر للشرطة، أو مغادرةً مكتب محامٍ أو هابطةً أدراج قصر العدل. وبقدر ما كانت الصور الأولى حسنَة الإضاءة، رافلةً بالبسمات السخيّة والنظراتِ الواثقة، لم تكن الأخرى سوى أعينٍ مغضيةٍ تحت نظّاراتٍ سودٍ، وشفاه مطبقة، سوّتها فلاشات المصوّرين ولقطاتهم المتسرّعة المرتجلة. ولكن، قال جوف، مهلاً، مهلاً.

إذ يُستَمهَلُ، يتغيّب سالڤادور دقيقتين وعلى باب المرحاضِ دوّنت، من بين شتّى العروض للقاءاتٍ ومواعيد، وبحبرٍ سائلٍ أشبه بالفضيحة، عبارة «لا ربَّ ولا ناظر سباحة!» حسنًا، قال جوف عندما عاد سالڤادور إلى محلّه في الكافيتيريا، لقد تذكّرت الآن. إني أذكر الحكاية. ولكن ماذا حلّ بالفتاة؟

- لا أدري، قال سالڤادور. إنّها مفقودة منذ أربع سنوات. فهلّا تدبّرتَ الأمر. لا أحسب أنّ الأمرَ بالغ التعقيد، أليس



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كذلك؟

- المفترض ألّا يكون معقّدًا، قال جوف. ولكن سوف نرى.

على الأثر غادرا باتّجاه جادّات الضواحي. حسنًا، قال جوف، سأحاول أن أجمع ملفًّا صغيرًا عنها. وأكون ممتنًّا لك إذا دوّنتَ لي ما تعرفه عنها. طبعًا، قال سالفادور، مستلاًّ من جيبه وثيقة جديدة. لقد أعددت لك هذه. دوّنت على هذه الورقة كلّ ما استطعتُ التوصّل إليه. فتاة جميلة، علّق جوف قائلاً وهو يقلّب الصور. هل يمكنني أن أتفحصّها؟ طبعًا، قال سالفادور.

معًا، مرّا من أمام مقرّ مكافحة التجسّس الذي لا يُرى منه سوى الطبقات العليا خلف سورٍ أصمّ مجهّزٍ بكاميرات ثابتة مصوّبة نحو الأرصفة، وتعلوه أسلاكٌ شائكة. لوحاتٌ من الخزف مثبّتة في الأنحاء، غير متقاربة، تحظر التصوير الفيلمي أو الفوتوغرافي للمنطقة المصنّفة منطقة عسكريّة والشاهدة على التصوّرات المتعاقبة، بين عامي ١٨٦٠ و١٩٦٠، لهندسة المباني الحكوميّة. فوق المقرّ ينتصب برجٌ معدنيّ رفيع ثبّت عليه عددٌ من الهوائيات الموجّهة نحو جهات الأرض الأربع، لا يمكن بلوغه إلاّ عبر بوّابة جرّارة تدخل وتخرج عبرها عرباتٌ فرنسيّة محمّلةٌ بشخوص مبهمة الملامح. حارسان صارمان لردعِ المتطفّلين يقفان عند هذا الباب بلباسهما العسكري وقد اكتست سحنتاهما بعضًا من دكنته، وحُجِبَت أنظارهما تحت نظّاراتٍ سود.

- لا أُخفيكَ، قال سالفادور، أنّ الأمر قد لا يكون يسيرًا. من جهتنا نحن، حاولنا التوصّل إلى نتائج ملموسة، لكنّنا فشلنا. كأنّها لم تترك أثرًا منذ أربع سنوات كما أخبرتك.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

– سوف نرى، قال جوف. سأعمد فورًا إلى تكليف أحدٍ ما بهذه المهمّة. ولكن مَن يا تُرى؟ لبثَ متسائلاً. هناك بوكارا الذي قد يبلي بلاءً حسنًا، وسوف أرى إذا كانَ غير مرتبطٍ بأيّ التزام في هذه الآونة. وإلّا ربّما لجأتُ إلى كاستنه. بل الأحرى أن ألجأ إلى خدمات كاستنه. فهو رجل محبّب من شأنه أن ينجز المهمّة على أحسن وجه. ولكن هل هذه هي هويّتها؟

– عفوًا، قال سالڤادور، أيّة هويّة؟

– هذه، هذا الاسم، قال جوف وهو يشير بسبّابته إلى رسم غلوريا ستيلّا. يبدو لي أنّه اسم يليق بمركب صيد، أليس كذلك؟

– آه، بلى، قال سالڤادور، أقصد لا، طبعًا لا. سوف ترى، لقد دوّنت لك على الورقة كلّ ما بلغني بهذا الشأن.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢

وصلَ جان كلود كاستنه عصرًا إلى المنطقة الصناعيّة الصغيرة التي توحي بما ينبغي أن تكون عليه سان ــ بريو. ركن سيّارته في موقف مصنعٍ لأغذية الحيوانات ثمّ أخرجَ من علبة لوحة القيادة جيبًا صغيرًا من البلاستيك المقوّى، مقفلاً بسحّابِ فيلكرو، وضعه على ركبتيه من دون أن يفتحه. وراح أوّلاً يضغط بأطراف أصابعه، ولكن بقوّة، على عينيه كأنّه يريد بذلك أن يغسلهما من مسافة أربعمئة كيلومتر كان قطعها على الطريق السريعة.

كان الجَيْب البلاستيك يحتوي على وثائق كان سلفادور قد سلّمها إلى جوف، عشيّة الأمس، مرفقةً بخارطة ميشلان ٥٨ التي تمثّل تصميمًا مفصّلاً لمنطقة البروتاني بين لامبال وبريست. في إحدى ثنايا خارطة شبه الجزيرة دُسّت لائحةٌ، مدوّنة بخط اليد، بأسماء المدن الساحليّة المنتشرة على الخطّ الساحليّ، وأسماء مدنٍ داخليّة أخرى، تمتدّ من هناك حتّى سان ــ پول ــ دو ــ ليون. وبحسب التقاطعات التي رسمها جوف على سبيل الافتراض، من المحتمل جدًّا أن تكون المرأة ــ وهي شقراء فاتنة فارعة القامة، مرهوبة الجانب، بحسبِ ما



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أظهرتها الصور الملتقطة من أكثر من زاوية وفي أكثر من مكان ـ مقيمةً في تلك الناحية. معتلمًا حدود المسار الذي سيسلكه في غضون الأيّام المقبلة، عمد جان كلود كاستنه، مستعينًا بقلم حبر أحمر، أجراه على الخارطة نفسها، إلى الوصل ما بين التجمّعات السكنيّة التي سيمرّ بها. وما إن وصلَ فيما بينها بخطّ متعرّج، كما في شبكات التسلية في المجلّات، لم يبدُ المسار واضحًا، الأمر الذي أحبط كاستنه قليلاً.

بعد أن دسّ وسائل الإيضاح تلك في الجيب المخصّص لها، عاد أدراجه إلى الطريق الفرعيّة وسلك باتجاه سان ـ بريو. لدى وصوله ركن كاستنه سيّارته في وسط المدينة قربَ السوق المسقوفة، وتعشّى طبقًا من الكُسكُسي الفاخر لدى أحد المغاربة الذين يخوضون منافسةً ضارية فيما بينهم ناحيةَ المحطّة القديمة، ثمّ تدبّر له غرفةً شاغرةً في فندق رخيص قبالة المحطّة الجديدة. كانت الغرفة المضاءة بنورٍ خافتٍ ينبعث من مصباح وحيد في السقف، أشبه بمكعّبٍ أصمّ غير مجهّزة لا بجهاز تلفزيون ولا بثلّاجة ولا بأيّ نوعٍ من أنوع الصابون في الحمّام لأنّها غير مجهّزة بصالة استحمام: في رُكْنٍ منها ثُبّتَ دوشٌ بدائي تحتَ جهازيّةٍ من البلاستيك الخام اللّيّن، الهشّ، الذي يتسرّب منه الماء. لكنّ كاستنه سرعان ما غرق في سباتٍ عميق.

وسرعان ما استيقظ أيضًا، بمضيّ ساعتين، متقلّبًا على فراشِه وقد جافاه النوم، فأضاء المصباح وحاول أن يستأنف قراءة رواية من روايات الخيال العلمي التي لم يفقه منها لا بداياتٍ ولا خواتم. كان جوّ الغرفة يتراوح بين الحرّ الشديد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

والبرد الشديد، فيتصبّب كاستنه عرقًا أو يرتعد بردًا على التتالي، ولا يفقه شيئًا ممّا يقرأ. عاد إلى خارطته معيدًا النظر في المسار الذي كان قد رسمه في الموقف: لم يغيّر فيه كثيرًا، لكنّ الرسم هذه المرّة بدا أشبه بحصان بحرٍ راقد. وإذ استبدّ به القنوط، قرّر، آخر الأمر، أن يبتلع قرصًا منوّمًا، وغفا، أخيرًا، في غضون عشرين دقيقة.

راودته سلسلةٌ من الأحلام كان ختامها كابوسه المعتاد. حلم الدوار العتيد: كاستنه يتشبّث بكلّ ما أوتي من قوّة بقمّة جبلٍ عموديّ مؤلّفٍ من روافدَ مخلّعةٍ ومصلّباتٍ صدئةٍ، ومشرفٍ على وادٍ سحيق. بناءٌ مركّبٌ هشّ يتقشّر طلاؤه وتعصف به رياحٌ عاتية. لا يجرؤ كاستنه على التحديق في الفراغ المعلّق فوقه، يشعر بأنّ قواه تخور وتكاد أن تخلّ به، ويرى بوضوح أنّه لن يقوى على الثباتِ مطوّلاً. رؤى شاقّة، وفي العادة لا يجاوز الحلم هذا الحدّ، ففي تلك الهنيهة يوقظه الخوف. ولكن هذه المرّة لم يوقظه خوفه، وإذا به يسقطُ نحو قعرٍ لامتناهٍ. ويصحو، هاويًا، قبل أن يمسّ جسمُه الأرض.

جاء طعام الفطور الموصى عليه لتمام السابعة صباحًا، مؤلّفًا من القهوة الحائلة وعصير اللّيمون وبعض المربّيات المعلّبة. ما كان باستطاعة كاستنه أن يأكل كلّ شيء. فالقرص المنوّم جفّف حلقه، وأوهن قواه، تمامًا كما في حلمه، وأذهب أيضًا بعضًا من شهيّته. كان متيبّس الأطراف، محمومًا، مرتعش الأصابع قليلاً. بادر بمشقّة إلى بعض التمارين البدنيّة التي شعر على أثرها أنّ عرقه المتصبّب يشيع رائحة كيميائيّة لازمته حتّى بعد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

استحمامه، ولم يبدّدها ماء الكولونيا. ثمّ ارتدى الملابس التي كان يرتديها أمس: بذلة من الأكريليك البنيّ وتحتها قميص البولو من الأكريليك النبيذيّ. وبدا كاستنه، على هذا النحو، مرتديًا حلّة الوكلاء أو الباعة الجوّالين ــ وهما مهنتان زاولهما، على نحو ما، فيما مضى، بالإضافة إلى مهن أخرى مشابهة في حدود التقسيم الاجتماعي للعمل.

أمضى كاستنه النهار بطوله خلف مقود سيّارته وخارطة ميشلان مفرودة على المقعد الأماميّ للجهة اليمنى، متتبّعًا مساره. يتوقّف في كلّ بلدة، عارضًا صورها على أصحاب الحانات، وعاملي محطّات الوقود، وعلى تجّار الكروش وخبازي الحلوى الذين لم تقفل المخازن الكبرى محالهم. أقنع نفسه بأنّه شديد الحذر. فقد كان كاستنه يقول لسائله إنّ المرأة البادية في الصور هي أخته أو زوجة أخيه، بحسب السؤال. وذات مرّة غلبته الحماسة في زعمه أنّها زوجته، غير أنّ زعمه هذا أربكه وأيقظ مشاعره، فكفّ عنه على الفور. كان أصحاب الدكاكين يهزّون رؤوسهم بأيّة حال، ويمطّون شفاههم نفيًا، غير أنّ كاستنه جال على المخازن الكبرى أيضًا. ولم يثمر سعيه في ذلك النهار؛ ولا في النهار الذي بعده.

في الثالثة أمطرت، وضلّ كاستنه طريقه. الحقيقة أنّها أمطرت من دون مطر حقيقيّ؛ كان رذاذ خفيف يتجمّع على زجاج السيّارة الأمامي: غير أنّه لم يكن بالمقدار الذي يستدعي تشغيل المسّاحات، ولا بالمقدار الذي يمكن تجاهله: إذ كانت المسّاحات تغبّش الزجاج بدل أن تمسحه. ولا شكّ في أنّ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

معضلة الرذاذ هذه هي التي جعلت كاستنه، الساعي إلى بلوغ دسكرة تدعى لوناي ـ مال ـ نوميه، يخطئ تقاطعًا على الطريق د ٧٨٩، في مكان ما بين كيربالود وكيرفودين، ليجد نفسه وسط تجمّع من المنازل الرماديّة المغْفَلة. ركنَ عند سَهلةٍ أمام كنيسة ساكنة، إلى يسارها نصب الموتى وإلى يمينها مقبرة بحريّة ليست أقلّ سكونًا: لا شيء يوحي بالبهجةِ لرجلٍ خلف مقود سيّارته يسعى لفكّ رموز خارطة الطرقات ـ وقد استحالت الآن مزقًا ـ ثمّ يفتّش ساهيًا عن اسمه على قاعدة نصب الموتى، ولكن، كالعادة، من دون جدوى: إذ لا ذكرَ في القائمة لغير الأسماء المحلّيَّة، وكاستنه ليس واحدًا منهم.

ارتحل بصرُه باتّجاه الكنيسة التي خلفها تلاشى ظلّ رجل بعد أن تراءى، ثمّ، بمضي دقيقتين، تراءت امرأة قادمة نحوه من بوّابة المبنى. لم يكن كاستنه، وبرغم كلّ الاتجاهات الممنوعة التي سلكها في حياته، من طينة الناس الذين يستعينون بالناس للاستدلال على طريقهم، غير أنّ الرطوبة السائدة، والوحشة والصمت، دفعته جميعها هذه المرّة لأن يخفض زجاج النافذة، منتهزًا مرور تلك المرأة بسيّارته لكي يعتذر منها سائلاً:

ـ أرجو المعذرة، قال، ولكن يبدو أنّني تائه. أبحث عن مفترق طرقٍ لم أهتدِ إليه. أمَا من مفترق في هذه الناحية؟

كانت امرأة محنيّة القامة قليلاً: نعلان فطحاوان، وشعرٌ داكن متوسّط الطول لنَقْل، رفعًا للحيرة، إنّه كستنائيّ اللّون، ونظّارتان ضخمتان فوق أنفٍ قصيرٍ ومعقوف ـ والمظهرُ بالإجمالِ مُفرِط في مكياجه ومصرور في لباسٍ رياضيّ غير



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

متجانس. كانت سماتُ وجهها تنمّ عن حَذَرٍ، وربّما خشية، لا جاذبَ فيها، ولكن من دون عداوة. توقّفت من دون أن تقترب على الفور، وقد مالَت قامتها على أحد الجنبين لِثقلِ جراب المؤن الذي كانت تحمله. مفترق طرق، قال كاستنه مردّدًا، تقاطع طرق.

بدت للوهلة الأولى جاهلةً تمامًا لما يسأل عنه، ثمّ بدت جاهلة بالإجمال. لا يبدو أنّها امرأة حاذقة، قال كاستنه في سرّه مردّدًا سؤاله برويّة، وبنبرة واضحة النطق، ضاغطًا بإصبعه على موضعٍ في الخارطة التي بسطها مقلوبةً أمام ناظريها عبر النافذة التي كان أنزل زجاجها. لوناي ــ مال ــ نوميه، أوضحَ قائلاً، هو المكان الذي أقصده.

ــ لوناي، قالت المرأة أخيرًا دون أن تلتفتَ إلى الخارطة، الآن فهمت. إنّها في طريقي. دعني أدلّك. بعد صمتٍ وجيز، راحت المرأة تنطقُ بصوتٍ رتيب سلسلةً من عبارات الأوّل إلى اليمين ثمّ الأوّل إلى اليمين، ومن ثمّ إلى اليسار قبل إشارة المرور، والثالث عند المستديرة، ولا مجال للخطأ، غير أنّ كاستنه قاطعها قبل أن تنهي كلامها. مهلاً، بادرها قائلاً، إذا كان هذا هو المكان الذي تقصدينه فقد أقلّك لبعض الطريق، إذا شئت. وهكذا تدلّينني. هيّا اصعدي إذا شئت. صمت وجيز آخر، ثمّ أشارت برأسها مغمغمةً بعباراتٍ لم يفهمها كاستنه بشأن حافلة ما، فيما دارت حول السيّارة من الجهة الخلفيّة. ركبت السيّارة واضعةً جراب المؤن حيث ينبغي أن تضع رجليها. لَبِثَت طوال الرحلة لا تدري أين تضع قدميها، ولكن



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كاستنه لم يمتلك الشجاعة الكافية ليقترح عليها أن تضع جواربها على المقعد الخلفيّ.

تخلّل هذه الرحلة مشهدٌ رتيبٌ لمنازل رماديّة متفرّقة، بدا القليل منها مسكونًا، والكثير معروضًا للبيع ولكن من ذا الذي قد يرغب، قال كاستنه في سرّه، في شراء تلك المنازل ذات النوافذ الضيّقة غير المطلّة على البحر: ليس أنا بالطبع. ليست هذه البلاد التي قد تستهويني. فأنا أفضّل الشمس في كلّ الأحوال، كما أنّي لا أملك مالاً بأيّة حال. على الشرفات المفترقة للحياة قد نلمح أحيانًا أصيصَ زهورٍ أو غسيلاً منشورًا، أمارةً على المياه، وهي سمة الحياة، التي تتبخّر من قطع الغسيل لتسقي الزهرة. بعض المنازل الأخرى بدت واجهاتها صمّاء، كأنّها مجرّد أغلفة عتيقة لإعلاناتٍ رُسِمت قبل خمسين عامًا، لأحزمة الفتق وسماد الفوسفاتِ الطيفيّ.

جامدةً فوق مقعدها، كانت مرافقته تملي على كاستنه بدقّة بالغة، وبشفتين شبه مطبقتين، الاتجاهات التي ينبغي أن يسلكها. فيما لبثَ هذا الأخير منصرفًا إلى تتبّع الطريق، كان يلقي نظرةً مواربةً متفحّصة، من طرفِ عينه، على المكياجِ النافر: رموش مطليّة بالأخضر الفاقع، وخطّان بنفسجيّان على الجفون، بقعتان مستديرتان من البلاش البنّيّ الغامق على الوجنتين وأحمر شفاهٍ رمّانيّ كأنّه مستورد من كوكبٍ آخر. وجميع هذه الألوان على بشرةٍ أميل إلى الشحوب. حتّى أنّ النظرة المواربة تمكّنت من قراءة العقاربَ على ميناء ساعة يدها مثيلة ما قد يفوز به المرء في كرنفالات الأعياد الشعبيّة ـ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

السابعة مساء إلّا قليلاً ــ ولفته أثر احمرار جرّاء تقشّر الجلدِ عند أطراف أصابعها أسفلَ الأظافر المقضومة. وعند منبت إحدى أصابعها لمحَ كاستنه ما بدا له محبسًا، في البداية، قبل أن يتبيّن أنّه خاتم مزيّن بفصّ رخيص مائلٍ إلى الاخضرار وعليه ثلاث قشور برّاقة.

كنّا نتابع طريقنا باتّجاه لوناي ــ مال ــ نوميه، فيما كفّت المرأة عن الكلام ولزمت صمتًا مطبقًا. ولكي يبدّد أجواء الصمت الثقيلة، ارتأى كاستنه أنّه من المستحسن أن يشرح لها الأسباب التي جاءت به إلى ذلك المكان. إنّه موظّف في شركة خاصّة صغيرة، وقد تمّ إيفاده إلى تلك الناحية مكلّفًا بمهمّة العثور على شخص معيّن. أمّا دواعي هذه المهمّة، قال موضحًا فلا يعلم عنها شيئًا ــ ولا شكّ في أنّها مسألة سداد ديون، على جري العادة في مثل هذه الأمور. ثمّ مدّ ذراعه، بحرصٍ لئلّا تلامس رفيقته عفوًا، نحو علبة لوحة القيادة ليخرج منها صورتين أو ثلاثًا للشخصِ المعنيّ. ألا تذكّرك هذه الصور بأحدٍ ما؟ بدا أنّها لا تصغي إليه جيّدًا أو أنّها لا تفهم كلامه كلّه، فقالت لا، كما قد تقول بلى، إذ لم يبدُ عليها لا غمرة السعادة ولا تمام الاتّزان. فشعر كاستنه بعطفٍ تجاهها لا يختلف كثيرًا عن شعورٍ غامض بالتعاطف.

عند أحد المنعطفات، أشارت المرأة بسبّابتها (هنا، سأترجّل هنا) إلى منزلٍ صغيرٍ منعزل بقرب الطريق: داس كاستنه على الفرامل وخفّض سرعة سيّارته. كان مسكنًا متواضعًا كئيبًا كسواه من المساكن الكثيرة في هذه الناحية،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لِصِقَهُ جنينة. أزهارٌ مُلتَبسة، توّاقةٌ لفوضى البراري، تحوطُ نخلةً مائلة إلى الاصفرار، أماتها البرد أو كادَ برغم المناخ المعتدل، فبدت أشبه بمكنسة عملاقة غُرِسَت في التراب واستنبتت هناك. أصبحت قريبًا الآن، قالت المرأة، اسلك اتّجاهًا مستقيمًا من هنا، أمامك أقلّ من كيلومتر واحد. شكرًا لكِ، قال كاستنه، شكرًا جزيلاً. لا داعي للشكر، قالت المرأة، دعني أقدّم لكَ شرابًا؟ ذلك أنّي لا أرغب في استغلال كرمك، قال كاستنه. دعكَ من هذا، قالت وقد افترّت شفتاها عمّا يشبه الابتسامة. ثمّ فيما كانت تنحني لتلتقط جرابها، لامست يدُها اليسرى، عفوًا، وركَ كاستنه اليمنى. فسرت في جسمه رعشةٌ خفيفة. ثمّ قال لها، حسنًا قبل أن يركن السيّارة على الطرف المنخفض من الطريق. لا تترك سيّارتك هنا، قالت المرأة، سأفتح لك البوّابة. حسنًا، حسنًا، ردّد كاستنه قائلاً فيما كان يجتاز البوّابة بسيّارته ويدور بها حول البيت نحو فناءٍ موازٍ للجنينة. أوقف كاستنه المحرّك وترجّل من السيّارة صافقًا بابها دون أن يسحب علّاقة مفاتيحه من لوحة القيادة. لم يكن البحر بعيدًا. فعبر نافذة جانبيّة، قد يتراءى للناظرِ، إذ يرتسمُ خطّ الأفق غائمًا، أنّه يرى البحر ممتزجًا بالسماء في غسقِ النهار الآفل. كان كاستنه قد جلس على كنبة خيزران غير مريحة، حاملاً بيده كأسًا، وعند قدميه رزمة من كتيّبات الدعاية. كان أثاث ردهة الجلوس بدائيًّا، وغير متجانس على غرار المنازل التي تستأجر لتمضية عطلة الصيف. وسط السقف، يتدلّى من طرفِ سلكٍ كهربائيّ، منشب اللّمبة من دون لمبة. بعد الكأس الأولى قبل كاستنه بكأس ثانية وثالثة قبل أن تدعوه المرأة، نظرًا لتأخّر الوقت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وحسن المصادفة، إلى البقاء لتناول طعام العشاء. وهذا أفضل بكثير من بقائه وحيدًا لالتهام طبق اللّحم والبطاطا المعتاد بسرعة قياسيّة. لم يرفض دعوتها. وبعد ذلك لم يتبادلا إلّا كلامًا قليلاً. كان كاستنه يسمع قرقعة الأواني المعدنيّة والزجاجيّة التي تستعملها المرأة المنهمكة في مطبخها. ولهنيهاتٍ، راوده شعورٌ غير لائقٍ سرعان ما بدّده، بأنّ الحياة كلّها قد تنقضي على هذا النحو.

في الانتظار عمد إلى تصنيف الكتيّبات الدعائيّة: كثير من المجلّات الأسبوعيّة الصادرة خلال الشهر الفائت، مجلّة برامج تلفزيونيّة، تقويم حركة المدّ والجزر للسنة الجارية. وخلال تصفّحه التقويم بحثًا عن اليوم المرافق ليومه ذاك، وعلى الرّغم من جهله بتلك الظواهر، بدا لَه مع ذلك أنّه فهمَ ممّا قرأه أنّ هذا التاريخ، وعند الساعة الحادية عشرة وأربعٍ وعشرين دقيقة، يوافق المعدّل القياسيّ الأعلى لحركة المدّ. كانت المرأة في الأثناء، تعرّج بين الفينة والفينة على ردهة الجلوس لتملأ الكؤوس مجدّدًا ريثما تنتهي من إعداد العشاء.

لم تَعِدّ سوى أطعمة بيضاء، القريدس المقشّر، والمعجّنات واللّبن الخالص، وقد تُبّلت بصلصاتٍ ذات ألوان فاقعة على غرار مساحيق زينتها. نبيذ أبيض. لمّا طرح عليها كاستنه أسئلةً عن حياتها، زعمت المرأة أنّها عملت خلال السنة المنصرمة في معمل معلّبات، واضطرّت إلى تركه، وأنّها حاليًّا بلا عمل كالكثيرين من أهل المنطقة (وتلك هي الحال، للأسف الشديد، في المناطق كافّة، علّق كاستنه قائلاً بنبرةٍ مأسويّة) غير أنّها



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لمرّتين في الأسبوع تساعد أحد سمّاكي بلوبزلانك (أنا أيضًا عملت في مجال الأسماك، قال كاستنه من دون إفاضة).

عندما فرغا من تناول طعام العشاء راح كاستنه، الذي بدا ثملاً في الحقيقة، يُكثِرُ من التلميحات التي يستفاد منها أنّه يجد المرأة الشابّة مثيرةً وأنّه، إذا شاءت الصِدقَ، منجذبٌ إليها. ولأنّها تبسّمت وهي تملأ كأسه مجدّدًا، ارتأى أنّ الأمور معها تجري كما يشتهي. ولأنّها لم تسحب يدها من يده، ارتأى أنّ المسألة في حكم المنتهية. لكنّه أدرك لمّا راح يقبّلها بنهم، واقفًا عند الباب، أنّه يترنّح قليلاً. ولمّا راحت أصابعه تبحثُ متلمّسةً عن فتحةٍ في الثوبِ المعاند وسرى في جسمه هياج الشبق، شَعَرَ بأنّ العَرَق البارد يتصبّب من مسامّه. كانت المرأة تهزّ رأسها ضاحكةً، وبرفقٍ داعبت براحتها خدَّ كاستنه قبل أن تنساب يدها ملامسةً عنقه ثمّ نحرَه، ولمّا جاوزت حزامه سرت رعشة في أوصاله وبَهُت. ولبِثَ كاستنه مُرتعشًا برغم التصاقها به بقوّة. ما الذي أصابك؟ قالت بصوت خفيض. ولم يدرِ كاستنه بماذا يجيب. تعال، قالت، دعنا نخرج إلى الهواء الطلق لكي نتنفّس قليلاً. أجل، قال كاستنه، إذا كنتِ إذا شئتِ.

لم يتنبّه إلى الوقت الذي استغرقه العشاء. وفوجئ بأنّ اللّيل هبطَ منذ بعض الوقت حالكًا، دامسًا، رطبًا، محسوسًا كمادّةٍ لزجةٍ، خاليًا من النجوم كأنّ كثافته تحجب السقف. وبعيدًا جدًّا، في ركنه المنعزل، يلوح قمرٌ متدلّيًا من السماء، لم يتبقّ منه سوى أثر. لم يكد كاستنه يجتاز الباب حتّى ضمّ إليه المرأة مجدّدًا كأنّ الهواء المنعش والظلام الدامس قد حثّاه على



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

التمادي في مغازلتها. لم تبدر عن المرأةِ أيّ ممانعة ما زادَ في اغتباطِ كاستنه. رويدكَ، قالت، تعال. الأفضل أن نذهب إلى هناك. كان عليهما أن يبتعدا عن الطريق، وأن يسلكا دربًا ترابيًّا بين مشاتل الخرشوف. كانت المرأة تتقدّمه فيما هو يتبعها متلمّسًا الطريق، متعثّرًا بسبب الأرض غير المستوية، مشوّش الذهن بسبب اللّيل والشبق والنبيذ الأبيض. في اللّحظة الأخيرة أدرك الرّجل الذي لم يكن قادرًا على تبيان موضع قدميه أنّ البحر أمامه، على بعد ثلاثين مترًا في الأسفل. ومن أعلى الجرف حيث بات يقف الآن لم يكن ممكنًا تبيّنه، غير أنّ كاستنه علمَ أنّه قريب منه إذ تناهى إلى سمعه هديرُه المعتاد، المكتوم، المشوبِ باختلاجاته. هنا وهناك أمواج تتكسّر على الصخور، تعقبها موجة عاتية فتدوّي ثمّ تتلاشى مبعثرةً، مختلجةً مثل صنج مسمّر. بدت المرأة مبتعدةً نحو ما يشبه الموقع المحصّن، أشبه بمرقبٍ يتّسع لشخصين ـ هو ذا المكان المُرتجى، قال كاستنه في سرّه.

لم تمض هنيهات حتّى توارت خلفَ هذا المبنى الصغير. دنا كاستنه منه، دار حوله؛ لم يجدها. وإذ همّ بأن يناديها بأعلى صوته، تنبّه إلى أنّه يجهل اسمها، فأطلقَ صيحاتٍ خجولةٍ من قبيل هاي، هووو، ياهوو ـ متبوعةً بأفّ متصلة خاطبَ بها نفسه، وقد انحنى صوبَ البحر متكئًا بيده على حائط الموقع الحصين.

وإذ به، من ثمّ، يهوي يسقُط من أعلى الجرف بفعل دفعةٍ عنيفة، وقد استحالت السقطة صيحةً مكتومة، وأنّة هَلَعٌ متمادية فيما كانت تتزاحم في رأسه، على نحوِ خاطفٍ، تلك



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الأحاسيس التي انتابته خلال حلمه الأخير. لم يتسنّ له خلال سقطته أن يتمنّى، من أعماق قلبه، أن يستيقظ، هذه المرّة أيضًا، قبل أن يلامس جسده الأرض. فهذه المرّة، سوف يتمزّق جسده فعلاً، على الصخور. ولن يبقَى سليمًا من الرّجل المدعو كاستنه سوى ملابسه التي ستغدو جرابًا لعظامٍ محطّمة. بمضي ساعتين من الآن، سيتكفّل المدّ بها، ثمّ سيحملها معه في لحظة ذروته بعيدًا عن السواحل، وبعد ستّة أسابيع سيلفظها البحر مجدّدًا مشوّهةً مجهولة الهويّة.

أن يكون جان كلود كاستنه قد ضلّ طريقه في منطقةٍ متحضّرةٍ، لا تعوزها إشارات المرور واللافتات التي تعيّن اتّجاهات الطرق بدقّة، لهو أمرٌ يدلّ، بدايةً، على أنّه ليس التحرّي الكفء الذي ينبغي أن يكونه. ومجرّد استعانته بعابرة سبيل للاستدلال على طريقه إنّما ينمّ عن سذاجة أكيدة. غير أنّ عجزه عن التنبّه إلى أنّها هي الشخص الذي يبحث عنه، فأمرٌ لا يترك مجالاً للشكّ في مؤهّلاته. حتّى لو كان هذا الشخص قد تغيّر كثيرًا.

الحقيقة أنّها كانت قد تغيّرت كلّيًا. فقد تخيّل كاستنه وفقًا للوثائق التي تسلّمها أنّها شقراء أنيقة فارعة الطول ذات ساقين لا متناهيتين بكعبيها العاليين، ومشية متمايلة برفقٍ كمشية البهلوان، ونظرة صافية ترمقه بخفر. هكذا رآها. غير أنّها لم تعد كما كانت. ما عادت تشبه شيئًا ممّا كانته. ولا عجبَ في ذلك، فمنذ اختفائها، كان الوقت كفيلاً بأن يغيّر ما يشاء، كما يشاء.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٣

وفي اليوم التالي، أنتَ شخص يبحث عن پول سالڤادور. تقلّك سيّارتك باتّجاه شرق باريس، ناحيةَ «بورت دوريه»، على مقربةٍ من غابة فنسان. تركن السيّارة أمام عمارة حديثة البناء تضمّ مكاتب شركة «ستوكاستيك فيلم»: عشر طبقاتٍ من المكاتب والاستديوات، ورأسمال قدره ستّون مليونًا، عند تقاطع جادّة الجنرال دودس وجادة بونياتوفسكي. تدخل من دون أن يراك أحد. الردهة، بجدرانها المحكمة العازلة مثل حصينةٍ، مؤثّثة بأصص النباتات والإضاءات الموارِبة، وفي وسطها تنتصب منحوتة تجريديّة عالية، متعدّدة الألوان، أشبه بطوطم منصوبٍ على نحو موارب فوق حصيرٍ من الحصى. لجهةِ اليمين، صفّ من عاملات الاستقبال المتميّزات بأظافرهنّ المتقنة ورموشهنّ وصدورهنّ؛ لجهة اليسار لا شيء يستحقّ الذكر؛ عند موخّر الردهة حجرات المصاعد. تغضّ الطرف عن عاملات الاستقبال، وتسير مباشرةً باتّجاه المصعد.

تجتاز الردهة فلا يستوقفك أحد. شبّان واثقون من مظهرهم برغم لحاهم النابتة وجزماتهم وقمصانهم الرياضيّة المعتمدة،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

يصطدمون بك في سيرهم ولا يلتفتون. أمّا عيناك فتودّان بلا ريبٍ أن تلقيا نظراتٍ متمعّنة على كلّ الفتيات الحاجلاتِ جيئةً وذهابًا، ولكن اصرف النظر عنهنّ أيضًا، وسر في طريقك. ادخل حجرة المصعد واضغط على الرقم ٣.

ينفتح باب المصعد على ممرّ تسلكه حتّى المكتب الأوّل الذي تجده مفتوحًا: وصلت. ادخل. انتحِ ركنًا منه وقف مطمئنًا. انتظر. لن يلاحظ أحدٌ وجودك مهما جرى. وبأيّة حال لا يوجد أحد الآن في مكتب سالڤادور. إنّها حجرة فسيحة مطلّة عبر واجهات الزجاج المضاعف على حركة الشارع. كراسٍ وطاولة اجتماعات، ولكن أيضًا مرآة بيضوية الشكل وكنبة؛ على أحد الجدران لوحتان لا ندري من رسمهما؛ ولصق جدار آخر وُضِعَت ستّة أجهزة تلفزيون فوق بعضها بعضًا، وخُفض صوتها فيما هي مسترسلةً ببثّ برامج اليوم. الجدران طليت بالأخضر الفاتح، وجُعِلَت الموكيت بلون الرمل الحارّ. ما من محفوظات، ما من ورقة مهملة هنا أو هناك، كلّ المعطيات محفوظة رقميًا. فقط بعض الملفّات على الطاولة، هي عبارة عن مشاريع قيد التنفيذ، ستعمد ستوكاستيك، مالكة الحقّ الحصريّ، إلى توزيعها على محطات التلفزة الحكوميّة والخاصّة.

إذا بسالڤادور يظهر فجأة؛ لا يبدو منهمكًا. يجول في أرجاء مكتبه، يتطلّع إلى الأطياف المتحرّكة على شاشات التلفزيون دون أن يراها حقًا؛ يلقي نظرةً على الشارع عبر النافذة، ثمّ يرمق صورته في المرآة البيضويّة. وبحركة عفويّة يكدّس الملفّات فوق بعضها بعضًا ريثما تدخل مساعدته. ها هي، أتت. فلنبدأ.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

٩٥ ـ ٦٠ ـ ٩٣، لا تفرّق دوناتيان بين الفصول، فملابسها قصيرة بما يفوق التصوّر، ومقوّرة بما يفوق العقل، وقد تكون أحيانًا قصيرة ومقوّرةً معًا بحيث لا يبقى بين الصفتين متّسعٌ لقطعة قماش. دوناتيان التي خُبيَت بطاقة مولّد ذرّيّ، تقذف بمغلّفٍ مبطّن الجنبات على الطاولة قبل أن تجلس على كرسيّ وتبادر إلى الكلام بنبرةٍ سريعة، قاطعةٍ ولكنّها هشّة، مثل حدّ الطبشور. إذ يحدث أن يكون تمرين الكلام لدى دوناتيان هو عبارة عن صوغ جملة واحدة متّصلة لا يتخلّلها نَفَسٌ أو نقطة أو فاصلة أو بياضٌ ـ وهذا أداء محترف لم يبلغه، إن صدقت ذاكرة سالڤادور، سوى رولاند كيرك على الساكسوفون، وربّما أيضًا جوني غريفين ولكن بقدرٍ أقلّ من البراعة ـ من دون أن تكفّ لحظة واحدة عن ضربِ مسند الكرسي براحة يدها اليمنى، بوتيرة إيقاع ثلاثي. كما قد يحدث أن يكون كلامها أكثر اقتضابًا.

يفتح سالڤادور المغلّف. إنّه يحتوي على أسطوانتين، ذات الـ ٤٥ دورة، مسجّلتين منذ خمس أو ست سنوات، عندما كان الفينيل لا يزال رائجًا. وعلى الأسطوانتين دُوّنَ بحروفٍ عريضة اسم غلوريا ستيلّا، متبوعًا بعنوان الوجه الأوّل («متجاوز الحدّ»، للأسطوانة الأولى، و«لا نرحل» للأسطوانة الثانية)، على خلفيّة صورة ملوّنة للمغنّية. في الأثناء تسترسل دوناتيان في وصف المشقّة التي تكبّدتها للحصول على هاتين الأسطوانتين المفقودتين الآن. ويبدو أنّها تلحّ - وسالڤادور لا يصغي إليها جيدًا ـ على التباين الكبير بين حجم المشقّة التي لاقتها وبين القيمة الفعليّة لما بُذلت لأجله هذه المشقّة. ولكي تؤكّد فحوى كلامها ترفقه بإيماءة ازدراء من يدها اليسرى،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

رافعةً كتفها، فتنحسر عن الكتفِ الأخرى حمّالة ثوبها الوجيز. وبما أنّها غالبًا ما ترفع كتفيها فتنزلق عن كتفها إحدى حمّالتي ثوبها مرّةً من كلّ اثنتين، وتنزلق الأخرى في المرّة الثانية، فمن عادة سالڤادور أن يغضّ الطرف مرّة من كلّ اثنتين. وإذا بالهاتف يرنّ على حين غرّة، متيحًا له أن يتشاغل بأمر آخر. نعم، قال على الفور.

على الطرف الآخر من الخطّ، كان جوف مهمومًا، مشغول البال. فمساء أمس، لم يتصل به مستخدمُه كاستنه ليقدّم له تقريره اليومي المعتاد مهما كانت نتائج الاستقصاء الذي يقوم به. هذا الأمر يزعجني بعض الشيء، قال. إنّها المرّة الأولى. ليس من عادته أن يفعل ذلك. ولكنّني سأنتظر اتّصاله اللّيلة بأيّة حال. حسنًا، قال سالڤادور، أطلعني على كلّ المستجدّات. ثمّ بعد أن أقفل الخطّ: هيّا لنستأنف عملنا، قال. فتعاود دوناتيان فتح ملفّ غلوريا ستيلّا.

لقد اعتاد سالڤادور أن تخاطب مشاريعُه التلڤزيونيّة ذاكرةَ الناس الجَمْعية. فأين أصبحت هذه المشاريع؟ كان المُتَّبَع على ذلك النحو، النظام القديم الناجح الذي أثبت صحّته. إذ يَسعى إلى البحث عن اسم خَبَت شهرته، وتبدّد صدى أعماله. مقدّم برامج متقاعد، ممثّل دورٍ واحدٍ وحيد، نصّاب موهوب، منشّط بارع لبرامج الألعاب الإذاعيّة، أو يَسعى إلى نبشِ أحد المشاهير الذين حقّقوا الشهرة فجأةً ثمّ غيّبهم النسيان. أو نجم بارز سرعان ما أفل نجمه، وطَوَتْه الذاكرة بغفرانها. أحد ما لم يبقَ منه في الذاكرة ما يُذكِّر حتّى بأنه منسيّ، لكنّه موجود: مركونٌ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كسواه في قعرِ خزانة، في أعتقِ صناديق الذاكرة. ما زالت هنا، الصناديق، في القعرِ، وإن كان بعضها قد تضرّر بفعل تسرّبٍ من سقفِ الذاكرة. البطاقات الملصقة عليها بهُتَ حبرها وما عادَت تُقرأ بسهولة. وغاية برامج سالفادور أن تعيد طلاء السقف، وأن تنعش الذاكرة وأن تفتح الصناديق مجدَّدًا.

غير أنّ هذا الأمر قد يتّخذ صيغةً شخصيّة، أكثر حميميّة. على غرار «من أعماق القلب» مثلاً، وهو البرنامج الذي حقّق نجاحًا مشهودًا لدى متقاعدي الأرياف، أو «أجمل فتيات الشاطئ» («لقد عرفتم أجمل فتيات الشاطئ وأنتم تذكرونها من دون شكّ. لا بل تذكرونها جيّدًا، لكنّ أيًّا منكم لم يجرؤ على التحدّث إليها. هل تذكرون اسمها؟ راسلونا. وسوف نعثر لكم على أجمل فتيات شاطئكم»). لكنّ الأمر مختلف مع غلوريا ستيلّا، فهي حالةٌ تندرج في نطاقٍ أوسع. الواقع أنّها كانت مغنّية شعبيّة ثمّ أصبحت بطلة زاوية الحوادث في الصحف، وبسببٍ من لقبيها المتعاقبين أثارت، قبل خمس أو ستّ سنوات، ولبضعة شهور، قدرًا كبيرًا من التعليقات والاهتمام.

سطع نجمها ثمّ أفل سريعًا: غلوريا ستيلّا، المولودة غلوار آبغرال، عملت في سنّ مبكرة كعارضة أزياء لجيل المراهقين، وانتقلت إلى عالم المنوّعات حاملةً هذا الاسم المستعار الذي اختاره لها جيلبير فلون، عشيقها ثمّ وكيل أعمالها.

الإنجازات: هاتان الأسطوانتان، ومشروع حفل في الأولمبيا، وبعض الجولات الفنّيّة على طريقة النجومية الأميركيّة، والمرتبة الثالثة في لائحة أفضل المبيعات



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لأسطوانتها «متجاوز الحدّ»؛ كثير من المصوّرين والصور الفوتوغرافيّة، كثير من الأوتوغرافات، وتأسيس نادٍ لمعجبيها، ومشاريع مستقبليّة في مجال السينما؛ وكلّ هذا كان واعدًا قبل السقوط المريب لجيلبير فلون في بئر المصعد من الطبقة الرابعة.

العواقب: شبهات، تحقيق، شهود اتّهام، توجيه اتّهام، محاكمة، حكم (خمس سنوات؛ أسباب تخفيفيّة)، سجن، إطلاق سراح لحسن السلوك، توارٍ عن الأنظار.

هكذا، بعد أن احتلّت صفحات مجلّات المراهقين الشهريّة، ثمّ المجلّات العاطفيّة الأسبوعيّة، وبعد أن أوجدت لها مكانًا صغيرًا في صفحات الفنون والعروض المشهديّة في الصحف اليوميّة، انتقلت أخبارها إلى زاوية الحوادث المتفرّقة ومن ثمّ إلى زاوية الأخبار العدليّة قبل أن تحجبها زاوية النسيان السحيقة.

تُرى ماذا حلّ بها؟ اختفى ذكرُها منذ أربع سنوات. لا بدّ أنّها أصبحت اليوم في الثلاثين من عمرها. إذ تنتهي سيرة غلوار آبغرال المهنيّة يوم خروجها من السجن، فمنذ ذلك الحين انقطعت أخبارها تمامًا عن أهلها وعمّا تبقى لها من أصدقاء ومحبّين. اختفى كلّ أثر لها كما يختفي نحو ألفٍ من البشر كلّ عام، وتنقطع أخبارهم إلى الأبد. مع ذلك، فإنّ سالڤادور ودوناتيان لم يقطعا الأمل. وريثما يهتدي رجال جوف إلى مكان وجودها، يضعان اللّمسات الأخيرة على مشروعهما. ويصنّفان التسلسل الزمني لوثائق مكتبة الڤيديو، والمحفوظات، وأحداث الحقبة، والمقابلات مع الأقارب والمقرّبين، ووجهات نظر الاختصاصيين ـ في مجال القضاء والصحّة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

النفسيّة والاستعراضات الفنيّة.

طبعًا ليس سالفادور هو أوّل من يسعى للعثور على غلوار آبغرال. فهناك عدد من باباراتزي الصحافة الصفراء سعى أيضًا للعثور عليها، من دون جدوى؛ ما عدا أحدهم الذي عاد بصورة لنقش جسمها البارز على سقف سيّارة ٦٠٥ متوقّفة أمام كاتدرائيّة روين (سين ــ ماريتيم)، على أثر سقطةٍ من علوّ ستّين مترًا.

بعد فراغهما من العمل، وانصراف دوناتيان، عاود سالفادور تجواله في أرجاء مكتبه. وإذ يلمحَ، بقربِ غلافها، أعمال غلوريا ستيلّا المسجّلة، يسحب إحدى الأسطوانتين، ويضع «متجاوز الحدّ» على صفيحة الآلة. واقفًا بقرب النافذة يلمح على الجادة امرأةً بملابس من الجلد وهي تترجّل من عربة ديزل. تتواصل الأغنية، يصغي إلى كلماتها، يضغط بطرفِ اصبعين على الفقّاعات البلاستيكيّة الصغيرة على جنبي المغلّف المبطّن، ويفرزها واحدة تلو الأخرى، كما اعتاد أن يفعل، قبل ثلاثين عامًا، خلال عطلة الصيف مع أسرته، عندما كان يفرز فقّاعات الفوقس التي تغطّي الصخور المغمورة بالمياه في شبه جزيرة جيان (فار).



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٤

في صبيحة اليوم نفسه، استيقظت المرأة التي قضت على جان كلود كاستنه، قبيل الساعة التاسعة. فتحت عينًا على السقف المُرمَدّ ثمّ نهضت، إذ تعرّفته، لترتدي مئزرًا قطنيًّا أخضرَ بلا كَسْم. ولكن سرعان ما اتّضح لها، عندما نظرت إلى صورتها المنعكسة في مرآةِ الحمّام، أنّها تجد مشقّة في التعرّفِ إلى نفسها.

ولأنّ دفعَ إنسان للسقوط من علوّ شاهق من الأمور التي تُنسي المرء أن يزيل عن وجهه مساحيق المكياج، لم ترَ في المرآة سوى قناع ضامرٍ أحاله العَرَقُ حَجَرًا فاختنقَ تحتَ طينِ المساحيق. راحت تفرك وجهها بلا هوادة، بالماء البارد وصابون مرسيليا، وبدقّةٍ من يعالج واجهة مبنى برشقٍ من خرطوم مياه مضغوطة. لم يكن شعرها ليسهّل عليها الأمر، فسارعت إلى تسريحه إلى الخلفِ بقسوة، مبرزةً أسنانها أمام المرآة بما يشبه التكشيرة، قبل أن تنصرف إلى فركها بقدرٍ من العنف. إلى حدّ نزفت معه لثّتها، وانكسرت مَسكة الفرشاة بين شفتيها، ما حدا بالمرأة الشابة شتم السّاعة وصبِّ اللّعنات وهي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تبصقُ رغوةً زهريّة اللّون على خزفِ المغسلة الأصفر. ثمّ تغرغرت مرارًا بالماء قبل أن تضع مكياجها مجدّدًا، على غرارِ مكياج الأمسِ تقريبًا، وقد ربطت شعرها بشريط مطّاطٍ بنّي. فور عودتها إلى حجرتها اختارت على عجلٍ بلوزةً زرقاء نُقشَت عليها أرياش، وتنّورةً حمراء فاقعة، فارتدتهما وارتدت فوقهما مئزرًا كحليًّا فضفاضًا.

بعد ذلك توجّهت غلوار آبغرال إلى المطبخ حيث شربت فنجان قهوة. على جنبات الفنجان أشكالُ ثمارٍ وخضار على مرسام تسعى وراء بعضها بعضًا تحتَ مواضع الشقوق. نظرة خاطفةً إلى النافذة للتثبّت من حال الطقس: طقس مائلٌ إلى انقشاعٍ رماديٍّ بالغ السكون. منذ مدّة لم يُمسح زجاج النافذة فما عاد ممكنًا أن تتبيّن حال الخارج بوضوح، لكنّ الرؤية ليست أفضل من المطبخ حيث يبدو أنّ الهواء نفسه لم يشهد لحظة تكوّن. وإذ وضعت فنجانها على الطاولة، جمّعت بعضَ نفايات الطعام ــ حروف أرغفة، وكلأً وقشورًا ــ ولفّتها في جريدة، ثمّ غادرت المنزل.

خلف المنزل، كان مؤخّر الفناء الضيّق مسدودًا بمرآب حيث ركنت سيّارة R5 بمصباح أمامي وحيد، كانت فيما مضى بيضاء اللّون، وحيث تتهرّأ بعض العجلات التي نزعت من حتارها، وكرسيّان زالَ قشّهما، ولَمْبادير نُزِعَ مصباحه. غسّالة يدويّة من الجيل الأوّل وغسّالةٌ نصف أوتوماتيكيّة بَطُلَ استخدامها تحيطان بقفصٍ حيث يربض أرنبٌ مختلجٌ بدين وعينه الصفيقة تحملقُ في أجلٍ قريبٍ. اجتازت المرأة الفِناءَ حاملةً فضلات



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الطعام، فيما الهبوب البارد الخفيف يلفحُ صدغيها. ثمّ لمّا همّت بالانحناء فوق قفص الأرنب:

ـ أنا لا أخالفك فيما فعلت، قال بيليار.

التفتت غلوار آبغرال وإذا ببيليار هناك، جاثمًا على كتفها. ها هو قد عاد إذًا. جاثمًا على الكتفِ مسترخيًا، مدلّيًا ساقيه، ساهيًا، كان بيليار يتكئ بيدٍ إلى ترقوة، وباليد الأخرى يداعبُ ذقنه. أواه، قالت متأوّهةً، أنت هنا. فهزّ بيليار رأسه بارتياحٍ بادٍ.

ـ إذًا ماذا تقصد؟ سألت. تخالف ماذا؟

شبكَ بيليار ساقيه الضئيلتين فيما افترّت شفتاه عن ابتسامةٍ خاطفة:

ـ زائر ليلة أمس، قال، قد يخالفك البعض بشأنه. أمّا أنا فلا. كنتِ محقّة، يا غلوار، فقد تحمّلت ما فيه الكفاية. لقد عانيتِ منهم ما عانيتِ. صدّقيني.

ـ دعني وشأني أنتَ وصدقك، قالت غلوار بصوتٍ عالٍ.

ـ واجبي يحتّم عليّ أن أقول ذلك، أجابها بيليار بشيءٍ من العَتَب، فهذا جزءٌ من مهامي. أمّا الآن، فلكِ مطلق الحرّيّة في أن تصغي أو لا تصغي.

ثمّ سكت، شابكًا ذراعيه، مستاءً، محملقًا في الفراغِ أمامه. حسنًا، قالت المرأة، لا تحرد. لست حردًا على الإطلاق، قال بيليار بجفاء، فأنتِ تعلمين جيّدًا أن الأمرَ سيّان عندي. هيّا، قالت.. هيّا يا بيليار، لا تحرد.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بيليار هو كائن نحيل أسمر، لا يتجاوز طوله الثلاثين سنتمترًا، يعاني من بداية صلع، وله فرقٌ جانبي، وشفة عليا وجفنان متهدّلان، وسحنة مشوّشة. يرتدي بذلةً من القطن بنيّة، وربطة عنق بنفسجيّة داكنة، وحذاءً بنّيًا منمنمًا وملمّعًا بالبصاق. وجهٌ خَرِعٌ على شيءٍ من الدمامة وإن كان بارز القسمات. وإذ شبكَ ذراعيه فوق نحره، راح ينقر بأصابعه، البادية أطرافها من كمّيه الطويلين، على مرفقيه.

في أفضل الأحوال، ليس بيليار سوى وهم. لا بل هلوسة اختلقها ذهن المرأة المضطرب. وفي أسوأ الأحوال، هو أشبه بالملاك الحارس، أو أنّه في الأقلّ قد ينتمي إلى هذه الفئة من الكائنات. دعونا نفترض الأسوأ.

إذا كانَ حقًّا ملاكًا، ولِدَ على قدرٍ من الدمامة والصغر بحيث لم يُعترف به رسميًّا من قبل جماعةٍ حريصة على المظهر السينمائي، فوضعَ في مركز «رعاية». اللهم إلاّ إذا كان قد تُرِكَ على قارعةِ طريقٍ سريعة أثناء انتقالٍ ما، أو موكبِ سيّار، أو مجمعِ ملائكة في الخارج، مقيّدًا بهالته النظاميّة إلى عمودِ إشارةٍ. على أيّة حال، كان عليه، منذ صغره، أن يتدبّر أموره بمفرده، مستغلاًّ، برغم كلّ شيء، المَلَكات والصفات التي حُبِي بها منذ ولادته. ولكن نظرًا لما لقيه من تجاهل أهله، ونكران جماعته، ومن حرمٍ مهني ربّما، اضطرّ إلى مزاولة المهنة على مسؤوليّته، من خارجِ المَلاك، وفي الخفاء بقدرِ المستطاع.

وهو بأيّة حال لا يكون موجودًا على الدوام، على الأقلّ بالمعنى الماديّ للوجود: إذ تتراوح وتيرة ومدّة إقامته لدى



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

المرأة. أحيانًا يتغيّب شهرين؛ أحيانًا يزورها كلّ مساء كما يعرّج المرء على المقهى ليتناول قدحًا من الشراب الفاتح للشهيّة، كلّ يوم؛ وأحيانًا أخرى عند الثانية بعد منتصف اللّيل كما يتسلّل المرء إلى منزل الحبيبة. لكنّه أميَل، في كلّ الأوقات، لأن يكون مهجوسًا بذاتِ نفسه، غير ملتفتٍ كثيرًا إلى المبادئ، وغالبًا ما يكون سيّئ المزاج. قد يلتزمَ أيضًا دوامًا يوميًّا، بين التاسعة والخامسة مثلاً، كما أنّه قد يبقى ثلاثة أسابيع رابضًا في ركنه على كتفها، ساكنًا، عصبيّ المزاج، قليل الكلام، كأنّه مطاردٌ، متوارٍ ربّما من مذكّرة جلبٍ بحقّه. أي أنّه غير منتظم المواعيد. والقاعدة الوحيدة التي يلتزم بها هي أنّه لا يظهر إلّا إذا كانت غلوار بمفردها، وتلك هي حالها، عمليًّا، منذ أربع سنوات. لم يكن مواظبًا في الآونة الأخيرة. فهو لا يزورها إلّا مرّتين أو ثلاث مرّات على الأكثر في الأسبوع. هذا لا يعني، بأيّة حال، أنّه يجترح المعجزات أثناء وجوده، غير أنّه يكون موجودًا وكفى.

في تلك الأثناء كان يتنحنح ليجلوَ حنجرته، ويمسح شفتيه بمنديلٍ كوّره بيده. كان يبدو مستغرقًا في ظنونه. أكان أثر ذلك مماثلاً؟ قالَ ساهيًا، من دون أن يلتفت نحو المرأة. ماذا تقول، قالت بنبرةٍ مماثلة، أيّ أثر؟

ـ زائر مساء أمس، أوضح قائلاً. عندما دفعته عن حافّة الجرف. ما كان أثر ذلك عليك؟ أقصد قياسًا بالمرّات الأخرى.

ـ أيّها الوغد الصغير، قالت غلوار هامسةً، أيّها الوغد الحقير الصغير البائس. لقد اتّفقنا على عدم ذكر هذا الأمر مجدّدًا.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ إنّي أزاول مهنتي، لا أكثر ولا أقل، قال بيليار منبّهًا.

لمّا كانت غلوار تهمّ بالانحناء على قفصِ الأرنب، تراجع بيليار قليلاً ليحفظ توازنه حتّى صار على عظمِ كتفها. وعندما أنهضت جذعها فجأة دون سابق إنذار، كاد أنَ يسقط رأسًا على عقب، غير أنّه تدارك الأمر في اللّحظة الأخيرة: آهِ، قال حانقًا، يا لذكائك.

ثمّ قال، بعدَ أن ثبّتَ جلسته: إذًا، ماذا ستفعلين اليوم؟ سوف ترى، قالت غلوار. كم أودّ أن أشارك قليلاً في اتّخاذ القرارات، قال بيليار بنبرةٍ حازمة، أودّ أن يكون لي رأي في ما سيحدث. ففي آخر الأمر، أنا هنا لهذا الغرض، أليس كذلك؟ أمّا هي فقد استدارت في الأثناء، وإذا بها تسير بخطواتٍ ثابتة باتّجاه البيت. ولكن ماذا تفعلين؟ سألها قلقًا: إلى أين تذهبين من هناك؟ أريد أن أبوّل، أجابت غلوار بفظاظة، وقد أتغوّط أيضًا، لا أدري بالضبط. حسنًا، قال بيليار مشيحًا بوجهه، مقطّبًا، لا بأس، سأتغيّب لبعض الوقت. هذه فكرة عبقريّة حقًّا، قالت غلوار. وما إن توارى حتّى نفضت بأطراف أصابعها موضعَه على كتفها بحركةٍ تلقائيّة، كأنّها تمسح أثره برغم علمها أنّه لا يخلّف أثرًا، ولا يبقى من حضوره ـ قلّامة ظِفر، عَرَق، نتف أنسجة ـ أكثر ممّا يزنُ، هو الأثيري، على كتفها.

عاد وحطّ على كتفها قرابةَ الظُّهر، فيما كانت غلوار تفرغ من إخفاء كلّ أثرٍ لجان كلود كاستنه بمنزلها. راقبها منهمكةً فيما تفعل مُغمغمًا في البداية ثمّ مستغرقًا في صمته لا ينطق برأي أو نُصحٍ: كأنّه قلّص خدماته إلى حدودها الدنيا. كان النهار ينقضي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

شحيحًا. عند العصر جلست غلوار على كرسيّ يُطوى، تحت شجرة النخيلِ عازمة على تصفّح بعض المجلّات. كانت ثمار البلح اليابسة التي غطّت محيط جذع الشجرة تُحدثُ طقطقةً مثل نواقيس الخشب أو كما تنقرُ، بأطراف مناقيرها، أسرابٌ من الطيورِ المهتاجة. ليس أمرًا يسيرًا أن تنصرفَ إلى القراءة بينما يجثم ذاك الأبله على كتفها، ويقرأ معها. بالإضافةِ إلى أنّه يتخلّف عنها فيستمهل غلوار هنيهاتٍ، وقد همّت بأن تقلب الصفحة، ريثما ينهيها. ثمّ عند حلول المساء:

ـ حسنًا إذًا، قال وقد سرت رعشة مباغتة في أوصاله، ينبغي أن استعدّ للمغادرة.

- صَدَقْتَ، قالت غلوار وهي تلقي بنظرة خاطفة إلى ساعة يدها، يجب أن تستعدّ لذلك.

راح بيليار يتنفّض ويتمطّى ثمّ تثاءبَ ملء شدقيه. وإذ زفر بقوّة بعد تثاؤبه لشدّة ما كان الهواء راكدًا، حملق في الشمس الغاربة غامزًا بعينيه كأنّه يستيقظ للتوّ من نومه، متفكّرًا في محصلة نهاره، مستذكرًا بقيّة جدول أعماله. كان، في الآونة الأخيرة، قد اعتاد أن يغادر في الموعد نفسه تقريبًا ـ أمّا الوجهة التي يقصدها بعد ذلك، فلم يتطرّق إليها الحديثُ مطلقًا. ولو لم يكن أثيريًّا، لطلبَ، بالتأكيد، فنجان قهوة، أو قدحَ شرابٍ يعينه على مشقّة الطريق. ولكن نظرًا لحالِهِ، كماهية غير متجسّدة، لم يَبدُ، يومًا، جائعًا أو ظمئًا. هيّا، همسَ قائلاً، سأغادر الآن.

إثرَ تبخّره، تُمضي غلوار أمسيةً عادية. تسكب لنفسها كأسًا من النبيذ، وتعدّ طعام عشائها: خبز وزبدة ـ الخبز جافّ لأنّه



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بائت، والزبدة جامدة لأنّها أخرجت للتوّ من الثلّاجة. وجبة «تشيلي» معلّبة سُخّنت بالماء الغالي، ثمّ لبن بنكهة الفواكه الاستوائيّة، التهمتها واقفةً، واحدةً تلو الأخرى، بحركةٍ آليّة، من دون توقّف على غرار شريط الإعلانات وموسيقى الربط والملاحق الإخباريّة المتّصلة التي يبثّها الراديو. أحيانًا تستعيد بصوتٍ خفيض مثمّن أحد الألحان التي يبثّها الراديو. ثمّ تغسل الأطباق بسرعة قبل أن تُسكِتَ الراديو، وتشغل التلفزيون الذي لا يسعها، مهما حاولت، أن تشاهده.

تشقّ عليها مشاهدته كأنّ غلوار نسيَت كيف يُشاهَدُ التلفزيون. يبدأ عرض فيلم، ترغمُ نفسَها على متابعته حتى النهاية ــ غير أنّ ما شاهدته ليس سوى التيترات ولم يبدأ الفيلم حقًّا إلّا الآن، الأمر الذي يحبطها. تحاول أن تركّز انتباهها على الحبكة ولكن عبثًا تفعل: لا شيءَ في إدراكها يستبقي من الصور أثرًا، كأنّها تخترقها من دون توقّف كالأشعة السينيّة، كتيّارٍ إلكتروني غير متميّز، منتظم اللّون ورخو وفاتر وأصمّ. تتمكّن غلوار من إطفاء الجهاز قبل أن يخدّرها.

صمت. نظرةٌ إلى المنبّه الذي تدبّ عقاربه نحو تمام العاشرة ليلاً. في الخارج يخيّم السكون، كأن لم تبقَ حياةٌ، وأقفرت الطريق من السيّارات. صمتٌ مطبق تنمو فيه وتعظُمُ كلّ صنوفِ الأفكار المشوّشة والتي هي كلمة، اسم، لازمة متكرّرة غير متجانسة من الكلمات والأسماء، نغمٌ جنونيّ يتردّد صداه مبتعدًا دانيًا، يتلوّى وينعقد دوائرَ، كما في طبلٍ مقفَلٍ، في ذهنِ غلوار الجالسة قُبالةَ لا شيء. لكي تبدّد هذا الجوّ تشغل الراديو مجدّدًا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ثمّ لا تلبث أن تسكته قانطةً. تنهض، تمشي بضعة أمتار قبل أن تعاود الجلوس في مكان آخر؛ كلّ الأمسيات على هذه الحال. العاشرة والنصف ولا رغبة لها في النومِ برغم المروحة الزّافّة بقربِ سريرها، وأقراص المنوّم الزاهية الألوانِ التي لن تضنّ بالعَوْن. تنهض غلوار فجأةً وتمسك بياقة معطفها.

تُهرَع إلى المانشستر الذي يبعد عشر دقائق بسيّارتها الـ R5 ، وهو أشبه بنادٍ ليليّ ريفي كتلك النوادي التي نصادفها أحيانًا عند أطراف البلدات الصغيرة، لا بل أحيانًا، في عراء السهول الريفيّة، ودائمًا نسأل، حين نلمحها، ما الذي أتى بها إلى نواحٍ مماثلة. عبارة عن كوخٍ من الحجر، حانة تقفل أبوابها في ساعةٍ متأخّرة نسبيًّا، تحاذيَ حلبةً غير فسيحة حيث لا أحد يرقص على الإطلاق، سوى امرأة عاملة مع مكنستها، صبيحة يومين في الأسبوع. هذه الليلة كان المانشستر خاليًا من روّاده فيما عدا ثلاثة شبّان منصرفين إلى صخبهم الملحوظ بجنبِ البار. الشبّان الثلاثة متشابهون كأنّهم أشقّاء، ذوو شعورٍ مصفرّة، يرتدون القباقيب البومبر والجينزات الفرنسيّة الفضفاضة، والقمصان ذات المربّعات. ثمرة تزاوجٍ بين مزارعين وعمّال وصيّادي أسماك، ثلثاهم بلا عمل، وغلوار لا تعرفهم. تطلب شرابًا على مقربةٍ من هؤلاء الشبّان الذين احتسوا، هم أيضًا، كمّيّةً لا بأس بها من الشراب. وعندما خاطبها أحدهم، وهو، في الحقيقة، أكبرهم، لبِثَ الآخران مترنّحين خلفه. كنّا نحسب أنّ هذه الأمور لا تستهويكِ.

شعرت بالضّيق، وبات الموقف يُنذرُ بعواقب غير محمودة،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

على الأقلّ بالنّسبة للشابّ الضخم الجثّة الذي كان قد دنا منها، وها هو يحاول أن يضمّها إليه. لحسن طالعه أنّ بيليار الذي يقف على مقربةٍ من المكان ويراقب ما يجري بشيء من اللّامبالاة، لن يدع غلوار تطلقُ العنانَ لما تختزنه من العنف لأسبابٍ تافهة. ولن يثنيه عن ذلك لا العمل لساعات إضافيّة ولا تَعَرِفَة اللّيل المختلفة: يقرّر الكائن الضئيل أن يتدخّل.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٥

بانَت دوناتيان مجدّدًا بعَد ظهر اليوم التالي، ظمآنةً حَرّى. كان الطقس قد تبدّلَ (مطر خفيف) وبدّلت دوناتيان ملابسَها. لم يكن التبدّل باديًا على الفور ولكن ما أن نزعت عنها رداءها المشمّع، حتّى بدا ما كانت ترتديه أضيق ممّا كان أمسِ، وزادَ في القصر والتقوّر، حتّى أنّ هاتين الصفتين لفرط ما مالتا إلى التطابق تعاهدتا على الإقامة والعيش سويًّا في مدخلٍ لغويّ واحد من أيّ قاموسٍ مُقبل.

في ناحيةٍ من حجرة مكتبه، يمتلك سالڤادور ثلّاجةً تحتوي على كلّ ما يَلزم، غير أنّه لا يملك من الكؤوسِ سوى تلك الأكواب البلاستيكيّة التي تستعمل لمرّة واحدة كما في النزهات. صدى مكعّبات الثلج في أكواب البلاستيك مكتوم، رخيص، بلا صدى، محرومٌ من حبورِ كؤوس الزجاج حيث يرنّ مكعّب الثلج ويبرق متألّقًا على وقعِ شرابِ الجين تونيك. لا بأس، قالت دوناتيان راضخة. هل اتّصل جوف؟ أومأ سالڤادور بأنّ جوف لم يفعل. اتّصل به، اقترحت دوناتيان. فاتصل سالڤادور بجوف، لكنّه وجد الخطّ مشغولاً. سوف



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أعاود الاتصال، قال.

أمامه انتشرت أوراق مشروعه الرئيسيّ، ملفّاتٍ ومذكّرات. الشقراوات الفارعات في السينما، في الفنون العامّة، ومن زاويةٍ أشمل، في الحياة. تاريخهنّ، طبيعتهنّ، أدوارهنّ. مجالات اختصاصاتهنّ وتنويعاتها. كلّ ما يمتزنَ به في خمسِ حلقاتٍ من اثنتين وخمسين دقيقة للحلقة الواحدة. وإذا اقتصر الأمر على جهدٍ توليفي انطلاقًا من أعمال مشهورة، فسوف تُخصّص الحلقة الخامسة لحالة خاصّة. وجرى البحث عن مثالٍ حيّ لشقراءٍ فارعة الطول، غريبة الأطوار، فتمّ الاتفاق، آخر الأمر، على حالة غلوار آبغرال.

بعد أن جرى التداول مليًّا بكلّ المقاربات التقليديّة لمثل هذا الموضوع، تبيّن أنّ غلوار تجسّد بالفعل، سواء بسيرتها أو بأعمالها، حالةً نموذجيّة في هذا المجال. فبإمكانها أن تكون مثال الشذوذ عن القاعدة، والغرابة، ونموذجًا للانحراف. وسيلة كغيرها للتدليل على صحّة افتراض سالڤادور القائل إنّ الشقراوات الفارعات يشكّلنَ فئةً على حدة، تحكمها قواعد خاصّة، وتتبع برنامجًا على حدّة: فئة من البشر غير قابلة للاختزال. أي أنّ الشقراوات الفارعات يقفنَ، وحدهنّ، مقابل بقيّة العالم. إنّه اعتقادٌ واضح، ومسلّمة بديهيّة في ذهن سالڤادور، ولكن دون البرهان عليها قدرٌ من الصعوبة. كلّ يوم، تراوده براهين جديدة، ويجهد كلّ يوم في صوغها، في ابتكار نسقٍ شاملٍ يحتويها.

مرّةً أخرى، بذلَ أمام دوناتيان ما وسعه لشرحِ فكرته.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

حسنًا، تقول دوناتيان، أرى جيّدًا أنّنا لم نحرز تقدمًا. ألا تريد أن تعاود الاتّصال بجوف؟ فعاود الاتّصال به: ما زال خطّه مشغولاً. إذًا هيّا بنا، اقترحت دوناتيان قائلةً، لا يتطلّب الأمر منّا سوى أن نذهب إلى هناك. سأتولّى بنفسي قيادة السيّارة.

باتّجاه بورت ديفري لبلوغ ضفّة السين اليسرى، ثمّ سلوك هذه الضفّة باتّجاه الغرب. بصحبة دوناتيان في السيّارة، الحياة نفسها تغدو عراءً بلا سقف. إذ إنّها، كما في الأمسِ، لم تكفّ عن الكلام، كأنّ حديثها يقوم مقامَ المذياع. بعد اجتياز «البون نوف» وعبور بعض الأنفاق، أي تلك المسالك القصيرة الباردة تحت الأرض، المحاذية لمجرى النهر، كان صوتها ينخفض تدريجًا، وينقطع سيل كلامها، حتّى مغادرة النفق ـ وهو أمرٌ معتادٌ في بثّ مذياع السيّارة. ثمّ يُستأنف تدفّق حديثها فور الخروجِ إلى وضح النهار، غير أنّه لا يستأنف من حيث انقطع، نظرًا لتواصله، مكتومًا، تحت الأرض في صيغة حوار داخلي منفرد. ويكون على سالڤادور بعد ذلك أن يعيد وصل نتفه، واستدراك ما فاته منه.

بعد اجتياز عشرة جسور، ناحية «بير حكيم»، انعطفت السيّارة يسارًا باتّجاه الدائرة الخامسة عشرة: بولڤار ثمّ جادة، ثمّ شبكة أزقّة ساكنة وصولاً إلى منزل جوف، خلف الكينوبانوراما. أحد تلك الأزقّة الساكنة المتميّزة التي تعرف جيّدًا كيف يكون حُسْنُ الجوار، إذ لا تجرؤ عمارة من عماراتها الأنيقة، المطليّة واجهاتها حديثًا، على الإفراطِ في بثّ صخبها. موقف سيّارات، رمز دخول رقمي، أنترفون، مصعد،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

جرس باب، عين سحرية (تعتم لثانيتين) ثمّ صوت القفل.

ثمّ جوف، وقد بدا عليه التعب. آه، هذا أنتم. صوت بليد وردّ فعلٍ متثاقل، ربّما كان السُكر سببًا. كانت عيناه تعاندان الصحوَ بمشقّة خلل أجفانه المنتفخة، توّاقتين لاستئناف غفوتهما. لكنّه ما لبث أن نطقَ قائلاً ما زلتُ لا أعرف شيئًا عن الرّجل الذي كلّفته بالبحث عنها. ولكن ادخلوا، ادخلوا. انتقل الجميع إلى الصالون: ورق جدران ذو أشكال هندسيّة وآنية زهريّة اللّون تحوي زهرةً في أصيص، بعض اللّوحات على الجدران (مشهد عرس في شارانت، ورسمة لبطريق مفلطح المنقار)، وكلّ هذا على خلفيّة جدار من شجيرات الأوكاليبتوس. لدى دخول سالڤادور ودوناتيان نهضت السيّدة جوف دامعةَ العينين عن الكنبة التي كانت تحتل ركنها وأسكتت آلة التسجيل قبل أن تحيي الوافدين وتنسحب إلى غرفتها. كان سالڤادور التقاها مِن قَبل، أمّا دوناتيان التي دخلت من بعده فلم تلمح سوى طيفٍ نحيلٍ شفّاني مرهفٍ شديد التوتّر.

ــ قَضَت نهارها وهي تشاهد التلفزيون، قال جوف معتذرًا. إنّها شديدة التأثّر بالمسلسلات. سآتيكما بشراب.

بعد أن أشار عليهما بالجلوس على كرسيين، تهالك على الطرف الآخر من الكنبة قبالةَ التلفزيون الذي أشار إليه بحركةٍ من رأسه. لا نتفق دائمًا على البرامج، تنهّد قائلاً. وبالفعل، كان هناك آلة تحكّم من بُعد عند كلّ طرفٍ من طرفي الكنبة: وخلال انهماك جوف في سكب أقداح الريكار، راحت دوناتيان تتخيّل الزوجين وهما يتباريان كلّ مساء في تقليب المحطّات.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ مع أنّ الأمر محيّر جدًّا، أردف جوف قائلاً. ليس من عادة كاستنه أن يتصرّف على هذا النحو. سننتظر يومًا أو يومين آخرين.

ـ المشكلة أنّ الأمر لا يحتمل أيّ تأخير، قال سالفادور بشيءٍ من التوجّس. ألا تعرف من هو أكثر كفاءة منه؟

راح جوف يحملق في كأسه مستغرقًا في التفكير. كانت أنظاره دائمًا تنسلّ بتؤدةٍ نحو الأشياء ثمّ تلتصق بها، تتشبّث بها، حتّى تكاد أن تجد مشقّةً في الانصراف عنها فيما بعد.

ـ ماذا عن برسونيتاز؟ اقترح سالفادور قائلاً. أليسَ ممكنًا أن نتّفق معه؟ لطالما كان شديد الإتقان في عمله.

لَبِثَ جوف محدّقًا بكأسه قبل أن يسلخَ عينيه عنه بمشقّة بالغة كما يسلخ الشريط اللاصق عن جرح، لكي يلتفت إلى سالفادور.

ـ يحرجني قليلاً أن أثقلَ عليه بهذه القضيّة، قال بعد تردّد. قبل أن أفعل سأكلّف شخصًا آخر. بوكارا، على الأرجح، سأتّصل به بعد قليل. أمّا برسونيتاز فقد نسعى معه لاحقًا.

لدى مغادرتهما منزل جوف كان الوقت ليلاً. وبعد تناولهما وجبة عشاء سريعة في مطعم محطّة الأنفاليد، عادت دوناتيان إلى منزلها ولكنّ سالفادور لم يفعل. أقلّته سيّارة أجرة إلى البورت دوريه. كانت مكاتب ستوكاستيك خاليةً في تلك الساعة: محلّ موظّفي الاستقبال، تحت مصباح شحيح، كان أحد الحرّاس الليليين يفرك أجفانه منكبًّا على أوراق محاضرةٍ في القانون الدولي. عليك بالمزيد من الإضاءة يا ليتيبودوا، قال سالفادور بنبرة أبويّة، استعمل لمبة إضافيّة. إن ثابرت على هذا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

النحو ستفقد بَصَرَك.

كان في نيّةِ سالڤادور، وقد عاد إلى المكتب، أن يعمل قليلاً، لكنّه سرعان ما تخلّى عن عزمه هذا. فما أن سكبَ لنفسه كأسًا راح ينزع عنه ملابسه وهو يحتسي الشراب، جرعة، قطعة ملابس، جرعة، قطعة ملابس، بحيث يفرغ من كأسه عندما يصبح عاريًا تمامًا. بعد ذلك أحضر غطاءً من إحدى الخزائن وبسطه على الكنبة قبل أن يندسّ تحته برفقة كتاب عنوانه «كيف تختفي تمامًا ولا يُعثَر عليك أبدًا» (دوغ ريتشموند، سيتاديل برس، نيويورك، ١٩٩٤). ولكنّه ما إن فتح الكتاب حتّى أعاد غلقه، وضغطَ على زرّ الكهرباء، وبمضيّ ستّ ثوانٍ كان غارقًا في سبات عميق.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

# ٦

يمكن للمرء أن يتخيّل النومَ بأشكالٍ متعدّدة. وشاحٌ رمادي، شاشة دخان، سوناتة. تحليق طيرٍ شاحبٍ ضخم، بوّابة خضراء مفتوحة على المصراعين. سهول. ولكن أيضًا أنشوطة متحرّكة، غاز خانق، كلارينيت ذات نغم عميق وخفيض. حشرةٌ تعدل عن حياتها الوجيزة، آخر إشعار قبل الحجز. ملاذ. كلّ المسألة مسألة أسلوب، طريقة في التعبير، وفقَ أسلوب كلّ واحدٍ منّا في النوم أو عدم النوم، وفقَ الأحلام التي تغشى عينه أو تُخطئها.

الجميع نيامٌ في الوقتِ الحاضر. سالڤادور، بمشقّة، فوق كنبته. دوناتيان تتقلّبُ على سريرها المربّع الفسيح. جوف، قرير العين، بجانب السيّدة جوف. وجان كلود كاستنه في سباته الأبدي. وإذا كان لنا أن نصدّق أنابيب البنزوديازيبين وكلوريدرات البوسبيرون على المنضدة بقرب سريرها، فإنّ المرأة التي قذفت بكاستنه إلى السباتِ الأعظم، تنام، هي، نومًا كيميائيًا. تصدر نخيرًا بين الفينة والفينة. وبجانبها تركت نوّاصة مضاءة، إلاّ إذا كانت نسيت أن تطفئها قبل أن تنام.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أسفل السرير بضعة كتبٍ ملقاةٍ على الأرضيّة، مفتوحةً ومكدّسةً فوق بعضها البعض، روايات بوليسيّة، نصوص لفرويد في طبعات شعبيّة وسلسلة من المجلّدات الصغيرة بالإنكليزيّة تعرّف بالطيور الشائعة والأشجار الأوروبيّة وأزهار البرّيّة. على مقربةٍ منها، في ركنٍ لا يصله الضوء، قارورة مفلطحة من شراب «الروم» الرخيص، وقنّينة سعة لتر من شراب قصب السكّر نصف فارغة، ومنفضة سجائر مملوءةً بالأعقاب المطفأة. تلك هي الحال نفسها كلّ ليلة، لا شيء يتغيّر، ولا ينبغي أن يتغيّر شيء. منذ زيارة كاستنه، فقط أمران تافهان طاولهما التغيير، أحدهما على جسد غلوار، والآخر على الطاولة.

على أحد عرقوبي المرأة الشابّة، ضمّادة تريكوستيريل عريضة تغطّي جرحًا أصيبت به ليلة أمس الأوّل خلال انهماكها في تدبّر أمر سيّارة كاستنه بعد أن أفرغتها من محتوياتها: خرقٌ، ساندو، عدّة وقطع غيار صغيرة، نفاياتٌ من كلّ صنف، حاجيات تخصّ جان كلود كاستنه وأوراق تسجيل السيّارة، التي جمعتها كلّها في صندوق من الكرتون. لم تستثنِ من العدّة سوى البنسة والمطرقة. والجيب البلاستيك الذي كان كاستنه يحتفظ فيه بمخطّط مهمّته وصوره وخرائط الطرقات في المنطقة. جيبٌ لا بأس به. وبعد أن أفرغ من محتوياته التي أحْرقت في جرن المجلى، وبعد أن نُظّفَ وعُقّمَ، ألقي به على الطاولة حيث هو الآن.

خلف مقود السيّارة التي نظّفت من جميع محتوياتها، سلكت غلوار الطريقَ باتّجاه تريغييه، فأودعت الصندوق الكرتون في



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

مرمدةٍ تابعة للبلديّة، ثمّ تابعت طريقها شمالاً وقد وضعت البنسة والمطرقة على المقعد بجانبها. بعد اجتيازها لارمور طالعها جانبٌ آخر من جرفٍ يطلّ على هاوية سحيقة مغمورة بالمياه على الدوام مهما كان حال المدّ والجزر. نتوء صخري منحدِر قليلاً، نادرًا ما يقصده الناس؛ مكان مثالي. كانت غلوار قد ركنت السيّارة قبالة الهاوية، مستعينة بالبنسة لنزع لوحة التسجيل وبالمطرقة لمسحِ أرقام المحرّك والهيكل. ثمّ أنزلت زجاج النوافذ، وأرخت فرامل اليد وراحت تدفع بكلّ ما أوتيت من قوة. أوّل الأمر بدا أنّ جهودها لن تثمر. إذ بقيت السيّارة في مكانها لم تتحرّك قيد أنملة. ولكن بعد ذلك راحت السيّارة تتحرّك رويدًا، فُرضةً تلوَ فُرضة، حتّى أسرعت فجأة من تلقائها، فجرى التخلّص منها، إذ سارت الأمور على أحسن ما يرام ــ لولا طارئ اللّحظة الأخيرة، عندما علقت ساق المرأة بالرفراف فشقّ طرفُه المسنّن عقبَ قَدَمِها. صرخت غلوار بأعلى صوتها وشتمت مولولةً فيما كانت السيّارة تسقط من أعلى الجرف إلى قاع الهاوية. انحنت من أعلى الجرف ممسكةً عرقوبها بإحدى يديها، ودنت من الحافّة متألمة مشدودة القسمات، ثمّ ما لبثت أن استرخت قسمات وجهها وهدأ روعُها إذ شاهدت السيّارة وهي تغوص تدريجًا في المياه. كأنّها تحت تأثير البنج، كأنّ سقطة الأجسام تجلبَ لها بعض الراحة على غرار أنطوني بركنز محدّقًا في المنظر نفسه عام ١٩٦٠ ــ سوى أنّ سيّارة كاستنه هي سيّارة رينو صغيرة، سكّريّة اللون ومسجّلة في المنطقة ٩٤ وتغوص مستسلمةً من دون مشقّة، بينما سيّارة جانيت لاي كانت سيّارة فورد ضخمة بيضاء اللّون



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

شموسًا ذات لوحة مسجّلة NFB 418.

عادت أدراجها سيرًا على القدمين وهي تعرج عرجًا خفيفًا سالكةً الدروب الساحليّة المُغْلَّمة بخطوطٍ حمرٍ وبيضٍ خُطّت على الصخور والأعمدة. تخلّصت من لوحتي التسجيل بين كتلتين صخريّتين تحت طبقةٍ من الحصباء. ولدى وصولها إلى دارتها، ضمّدت عرقوبها، وبالمَرّة، جعلت من الجيب البلاستيك محفظةً جديدة لأدويتها.

ما زالت نائمة، تلبث ساكنةً في نومها بينما في حلمها تجوب الأنحاءَ منذ ساعاتٍ طويلة على متن درّاجة ناريّة ضخمة وسريعة. يطلع الصبحُ. يطلعُ النهار وئيدًا، رفيقًا، كما تقلع برفقٍ طائرة البوينغ المضاءة عن مدرج المطار، أو كما تهمّ أوركسترا وتريّة بعزفِ حَركَةٍ أخيرة.

لكن سرعان ما تنتهي هذه الحركة الموسيقيّة، فتسطعُ عين الشمس جامدةً. تترجّل غلوار عن درّاجتها. تسير نحو كابينة هاتفٍ عموميّ، وعندئذٍ تستيقظ. تبقى ساكنةً لهنيهاتٍ محملقةً في ما حولها، ثمّ تذعن لبداية يومٍ آخر: تنهض وترتدي، مرّة أخرى، ذلك البرنس الأخضر المقيّت. المطبخ، وماكينة القهوة الكهربائيّة. وفيما تتجمّع قطرات القهوة في الوعاء، تقع أبصار المرأة الشابّة على ورقة صفراء، قفا نشرة إعلانيّة مهملة عند إحدى زوايا الطاولة وعليها رسمٌ لعلّها خربشته عليها سهوًا مساء أمسِ، لكنّها لا تذكر ذلك جيدًا. مسوّدةُ رسم وجه. غير أنّها تسارع إلى تمزيقه، غير مبالية بما يكون، مغمضةً عينيها، معاودة تمزيق المِزَقَ إلى مربّعات غايةً في الصغر، قبل أن تهرع



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

إلى دورة المياه وترميها في جرف المرحاض ثمّ تشدّ السيفون من دون أن تنظر إليها.

في الحمّام هناك بلاطتان ناقصتان أسفل قاعدةِ الدوش، وبلاطة ثالثة مكسورة، أمّا ما تبقّى منها فبات مكسوًّا بحُبَبٍ بيج وأخرى داكنة. تعلّق غلوار برنسها على المشجب المثبت خلفَ الباب. تقف عاريةً أمام المرآة المربّعة فوق المغسلة، والتي لصغرها لا تعكس صورة جسمها كاملاً الذي لا ترغب في رؤيته بأيّة حال، إذ لا رغبة لها في رؤية ساقيها الطويلتين الرشيقتين، أو نهديها النافرين المكوّرين النضرين، أو ردفيها البارزين المستديرين المشدودين، وكلّ ما كان جان كلود كاستنه غافلاً عنه لأنّه حُجبَ عن ناظريه بملابس الرياضة. لو علمَ كاستنه بأنّها تمتلك مثل هذا الجسد، لما تجرّأ مطلقًا على اشتهائه.

تغتسل بسرعة، بالماء الفاتر، قبل أن تتأنّى في وضع مكياجها. طبقة أولى من كْريْم النهار وفوقها طبقة فونديتان شبه بيضاء، وُضِعَت بعنايةٍ على بشرة الوجه، كما تطلى قماشة اللّوحة بطبقةٍ أولى متساوية السَمْك. وإذ كحّلت عينيها بالقلم على شكل لوزة، صبغت جفونها بلونٍ فيروزي. ثمّ مستعينة بآلةَ من الكروم أشبه بملقطِ البزّاق، تعمد غلوار إلى إبراز رموشها المقوّسة قبل أن تجعلها بالمَسْكَرة شديدة السواد وشديدة الكثافة والثخانة. هكذا، عمّا قريب لن يبقى حيًّا في وجهها سوى عينيها؛ وحدهما ستبثّان الحياة في هذا القناع الجامد: رماديّ مخضرّ، يتبدّل من الأخضر إلى الرماديّ بتبدّل الزمان والمكان والضوء والمزاج. ثمّ تضع أحمر الشفاه، تمرّر الإصبعَ القاني



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

على الحاشيتين أوّلاً، ثمّ تصبغ الشفتين بريشةٍ دقيقة. دارتان ضاربتان إلى البرتقاليّ على الوجنتين، ثمّ ضربتان خفيفتان بالقلمِ الأسود على قوسي الحاجبين وينتهي الأمر. على هذا النحو، تستطيع غلوار آبغرال، تحت قناع المكياج هذا، أن تزعم أنّها نجمة سيرك حُجِرَ عليها في المصحّة لأنّها أصيبت بانهيار عصبيّ ـ غير أنّ كآبتها التي ألمّت بها لا تحول دون أدائها العرضَ الذي تجيده في إطار الكرمس المُقام، على شرف الأهالي، لمناسبة يوم الزيارة.

لأنّها امرأة هاربة، ليس مستهجنًا أن تسعى غلوار إلى التواري عن الأنظار، وأن يكون هذا القناع هو الذي يحجب هويّتها الفعلية. لكنَّ المحيّر هو أنّها ربّما كانت تجد لذّةً ما في جعل مظهرها على هذا القدر من الدمامة. ملطّخةً بالألوان تقف أمام المرآة متمعّنة بتفاصيل قناعها حتّى الغثيان، لكنّها تبدو مغتبطة، مبتهجةً، ضاحكةً، مقطّبةً، وتتضاعف بهجتها عندما تسمع نفسَها شاتمةً مُطلقةً بعض البذاءات بصوتٍ حادّ ليس هو صوتها.

إلى ذلك، مع هذا القدر من المساحيق، دائمًا يَمْثُل خطر أن يُزالَ بعض المكياج إذا همّ أحدٌ بتقبيلها، سوى أنّها غير معرّضة عمليًّا لمثل هذا الاحتمال، لأنّها تبذل ما بوسعها لكي تتجنبه. طبعًا، يحدث أن تجد نفسها مرغمة على ذلك: فلكي تتخلّص من كاستنه مثلاً، لم تجد وسيلة أخرى. وإذ ذاك يسيل اللّعاب ممزوجًا بالألوان. كاستنه لم يرَ نفسَه بعد القبلة، وهو يهوي في الفراغِ المظلمِ ملطّخًا بزهو الرمّاني والأخضر الفاتح والرمادي الداكن.

الآن هدأت غلوار قليلاً؛ لقد لاحظت للتوّ أنّ بوادر شقرة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

فاتحة بدأت تلوح على أصول شعرها الغامق. أمور ينبغي أن تنجزها: صبغ الشعر في نهاية الأسبوع؛ تغيير ضمادة التريكوستيريل. اختيار الملابس التي سترتديها؛ شبك سوار الساعة حول معصمها: العاشرة إلّا ربعًا. ولكن، مهلاً، ماذا عن بيليار؟ عارية كما خلقها الربّ، تشعل غلوار سيجارة وفي الوقت نفسه تدير جهاز التلفزيون، والحال أن التلفزيون عند الصباح هو إدمانٌ مثيلَ كأس من الجين على الريق. غير أنّها جاءت ترتدي ملابسها أمام جهاز التلفزيون كما لو كان شخصًا: تلبسُ زيًّا من أزيائها العجيبة الغريبة، سترة جاكار ذات نقوش من البَرَقِ الفضيّ، وصغار دببة بالأخضر والأصفر والبنفسجي على قماشةٍ موشّاة، وتحتها بنطال بذلة رياضيّة كحلي مزموم عند الكاحلين.

على شاشة التلفزيون، مذيعة أخبار تبشّر المشاهدين بأنّ العجائز الذين يحتسون النبيذ يمتلكون قدرات على التعليل المنطقيّ تفوق قدرات العجائز الذين لا يشربون النبيذ بنسبة ٢٧ في المئة. فسحة أملٍ بالنسبة لمزارعي العنب، تعلّق المذيعة قائلةً، فيما غلوار تتساءل عمّا إذا كان كلام المذيعة ينتمي إلى أنواع الدعابة المقصودة أو غير المقصودة. تردّ شعرها إلى الخلفِ، وتضع نظارتها مجدّدًا؛ بريق قسوة في نظرتها يخترق زجاج النظّارة؛ تبدو مخيفة. ومضة شمس شاحبة أخرى تخترق زجاج النافذة المغبرّ نحو السرير المهمَل، تجعل الشراشف المدعوكة أكثر اتّساخًا ممّا هي عليه. باتت أجواء الغرفة شبه باردة. كيفما اتّفق، تربّت غلوار براحتيها على السرير لكي تشيع الدفء في الأجواء. ثمّ تخرج لتلقي نظرةً على محتوى صندوق



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

البريد: أشياء قليلة؛ نشرات إعلانيّة وأوراق مختلفة ترميها من دون أن تلقي عليها ولو نظرة واحدة، ولا تستبقي منها سوى مغلّف عليه ختم مكتب باردو، شارع تيلسيت، باريس، يحتوي على حوالة مصرفيّة مذيّلة بتوقيع لاغرانج. العاشرة والنصف، الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة، واضحٌ جدًّا أنّ بيليار تأخّر كثيرًا. شخصٌ آخر يطرق واجهةَ بابِ المطبخ: إنّه ألان.

بين الفينة والفينة يعرّج ألان ليصبِّحَ غلوار، ويلبّي دعوتها بطيبة خاطر لاحتساءِ قدحين من الروم للمناسبة، ويحدّثها بأمور عادية تافهة كحال الطقس، وحركة المدّ والجزر، وأهل الناحية، والتجّار أصحاب الحوانيت، وأحيانًا يحمل لها سمكةً. كبيرة أو صغيرة، بحسب الظروف. عندما يتبسّم تتغضّن بشرته حول العينين. وبرغم كونه مهذارًا فإنّه يتكلّم بشيءٍ من التحرّج مستخدمًا عباراتٍ شبه استفهامية، بالإضافة إلى أنّ حركة شفتيه ليست متزامنة تمامًا مع الكلمات التي يتلفّظ بها، وذلك بسبب حادثٍ آخر كان قد تعرّض له. فهو مثلاً يقول:

ـ هل الأمور على خير ما يرام، يا كريستين؟

ـ لا بأس، تقول غلوار، لا بأس. هل ترغب في بعض القهوة؟

هذه المرّة يضع ألان على الطاولة سمكة بوريّ، متوسّطة الحجم؛ صحيحٌ أنّ البوريّ ليس أفخر السمك، ولكنّ هذا ما قدِرَ عليه. ثمّ يتحدّث عن الطقس الذي يرى أنّه اعتيادي في مثل هذا الوقت من السنة، ثمّ عن حركة المدّ والجزر التي كانت، كما يعلم الجميع، استثنائيّةً أوّل من أمس، ما يزيد على ١١٥، أقلّ من ١٢٠ بما لا يُذكَر. تتأتّى هذه الظاهرة تحديدًا من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

اصطفاف الأرض سوية القمر والشمس أي ما نسميّه في العادة اتّصالاً. ماذا؟ تسأل غلوار. اتصال، يردّد ألان قائلاً وقد أرجع رأسَه قليلاً إلى الوراء ليتمكّن من إفراغ فنجان قهوته بجرعةٍ واحدة. يتبع ذلك بعض الذكريات المألوفة عن أسفاره، وخصوصًا عن رحلته إلى أستراليا. أستراليا التي كان الناس فيها، وحتّى عهدٍ قريبٍ جدًا، يأكلون لحمَ الأضلاع متبّلاً بالمربّى. ومن هناك يتحوّل إلى الحديث عن أساليب أخرى لطهوِ الأطعمة باللحم، معمّمًا وصفاته لتشمل اللّحم الذي يباع لدى القصّابين، متطرّقًا إلى الأقاويل التي تتردّد بشأن قصّاب البلدة. وهل هو قصّابٌ جيّد؟ تسأل غلوار متظاهرةً بالاهتمام، هي التي يقتصر نظامها الغذائي على مشتقّات الألبان والمعلّبات والخضار، وبيضة في عجينة الكريب أو لا شيء على الإطلاق.

ـ إنّه يجيد صنعته، يقول ألان. قصّاب جيّد.

ويفكّر قليلاً قبل أن يسترسل، فتنتهز غلوار صمته هذا لكي تسكب له مزيدًا من القهوة.

ـ لحمه لذيذ، يقول مسترسلاً، ولكن كيف أفسّر لك. غالبًا ما تكون البهائم أكبر قليلاً، ممّا نريد، غالبًا ما تكون أكبر سنًّا مما هو مطلوب. تطلبين منه مثلاً لحم ضأن، فيعطيك ما هو أشبه بلحم الخروف.

تتبسّم غلوار، ثمّ تضحك هازئةً.

ـ تطلبين لحم عجل، يردف ألان قائلاً، فتحصلين على لحم بقر. إنّه يُعنى كثيرًا بتربية البهائم وإعدادها، لا غبار على صنعته



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

من هذه الناحية، لكنّه يفضّل أن تكون مسنّة بعض الشيء.

راحت غلوار تضحك خفيةً، في قهقهاتٍ خافتة في البداية غير أنّها سرعان ما تتعاظم وتتصاعد وتختلج وتنطلق متّصلةً أمام ناظري البحّار الغافلِ عمّا يجري. والآن لا تتمكّن غلوار من استدراك ضحكها المصهصل. يحاول ألان أن يتدخّل لكنّها تصدّه بيدها المرفوعة مشيرةً عليه بأن يصمت. توقّف، تقول بين موجتين من الضحك، توقّف، أرجوك. أصمت. اذهب. إذ أربكه رفع الكلفة بينهما، توقّف البحّار عن الكلام، ونظر إليها بكثيرٍ من الفضول ثمّ قرّر أن يغادر. يخرجُ من منزلها مستغرقًا في التفكير. كان أدركَ من قبل أنّها ليست سوّيةً كباقي البشر. ولكنّه لم يحسب أنّ حالها بمثل هذا السوء.

سار على الطريق باتّجاه دارته المتواضعة القريبة. لدى مغادرته منزل غلوار لم يلاحظ ألان، لشدّة ارتباكه، سيّارة الڤولڤو ٣٦٠ الرماديّة الضاربة إلى الزرقة المركونة هناك. هيكل مكسوّ بقطرات الندى، وزجاج مغبّش، يبدو في الظاهر أنّها خالية، لا أحد فيها. والحال أنّها محمّلة بصندوق مياه فيتيل، وخرطوشة سجائر «بال مال»، وهاتف لاسلكي، وثمّة شخص في داخلها.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٧

هذا الهاتف اللّاسلكي يشوّشُ أحيانًا لكنّه صالحٌ للاستعمال: هنا بوكارا، يقول صوت، هل تسمعني؟

ـ أجل، يقول جوف. لم يستغرقك الأمر كثيرًا، قل لي إذًا، هل أنتَ واثقٌ من أنّها الشخص نفسه؟ حسنًا، سأبلّغ الخبر للزبون. لا تبرح مكانك، وانتظر تعليماتي. عفوًا؟ بلى، أعلم أنّ الطقس بارد. تلحّف جيّدًا.

بدأ النهار نحو التاسعة صباحًا. مناخ قاريّ. بعد أن حدّد موعدًا لبرسونيتاز ـ ظهرًا في المكتب ـ ارتدى جوف معطفه لكي يجتاز المدينة في خطّ موارب جنوبي غربي شمالي شرقي، مستقلّاً المترو. نزل في محطّة بوتزاريس ليسلك شارعًا عريضًا هادئًا ذا طابع ريفي مزدانًا بشجر الدلب، محاطًا بڤيلّاتٍ معزولة، لا يسلكه المارّة عادةً ولا تكثر فيه المحال التجاريّة: أثناء سيره باتّجاه مخفر الشرطة، لم يصادف جوف في طريقه سوى صالون حلاقة، وصيدليّة، ومدرسة ابتدائيّة، ومقارّ لجمعيّات خيريّة ومؤسّسات لمختلف قطاعات الدولة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كم هو متواضع مخفر الشرطة في حيّ «أميركا». مبنى خفيضٌ خالٍ من مظاهرِ الأناقة غير مورّق الجدران، نوافذه ذات شبكٍ صدئ، قذر الواجهة حيث تلو ح، في وسطها، الألوان الثلاثة المتداخلة لرايةٍ متّسخة ملتفّة حول ساريتها كستارٍ قديم. مركز متواضع للشرطة بعيد عن شؤون هذا العالم، ولا بدّ أنّ عديد أنفاره مؤلّف من ضباطٍ مبتدئين، أو ضبّاط موشكين على التقاعد، أو ضبّاط معاقبين خفّضت رتبهم. كان للبوّابة الرئيسيّة مدخلٌ خاصّ بالأفراد. فدفعه جوف داخلاً.

بدا التحسّن واضحًا منذ زيارته الأخيرة، فقد وُضعَ بعض الأثاث الجديد وطليت ردهة الاستقبال بالأخضر، لكنّ الحقيقة أنّ جوف نادرًا ما يتردّد على هذا المكان. وراء ما يشبه الكونتوار، كانت موظّفة شابّة تسجّل الشكاوى على آلة كاتبة ضخمة لم تشهد اختراع الكهرباء. اتّخذ جوف دوره جالسًا فوق مقعدٍ مقلّبًا بصره على النشرات المثبّتة على لوحة فلّين، متتبّعًا خارطة الدائرة، ممعنًا النظر في مذكّرتي بحثٍ وتحرٍّ مكتوبتين بيد مفتقدة للخبرة في هذا المجال، ومصغيًا إلى أحاديث المشتكين.

من بين هؤلاء رجل صيني ذو لحيةٍ خفيفة، يشكو سائق سيّارة أجرة بخصوص شيك قيمته ١٠٠ فرنك كان أعطاه إيّاه، غير أنّ الأخير أضاف رقم ٥ كبيرًا أمام المئة. ألم تدوّن القيمة بالأحرف؟ قال الموظّف. لا، قال الآخر بارتباك، دوّنت القيمة بالأرقام فقط. لا يجب أن تفعل ذلك، قال الشرطي، إيّاك أن تفعل ذلك. هذا ما يحظّره قانون الضرائب بأيّة حال. ثمّ راحت حسناءٌ شابّة ذات شعرٍ متموّجٍ بهمّة المزيّن، ونظّارة واقية من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الشمس، وكتفين برونزيّتين، صنف النّساء اللواتي يقدنَ سيّارات الأوستن الصغيرة، تبلغ الشرطي المرتبك أمامها، عن اختفاء سيّارتها الأوستن. أمّا جوف المنتظر فراح يتفحّصها بنظراته، ثمّ لمّا حان دوره: جئت لمقابلة المفتّش كلوز، قال. الطابق الأوّل، الحجرة ١٢، قال الشرطي. أعلم، قال جوف. أثناء تسلّقه الدرج لاحظ أنّ بيت السلّم لم يجدّد طلاؤه. ولا المكاتب. على الأقلّ حجرة المكتب ١٢ حيث طالعه المفتّش كلوز، المعاقب، المخفّضة رتبته، بسحنة كلبِ جرّاذ فرنسي من المرتبة الثانية. صوتٌ متعرّج وخيط شاربين، وعين متغضّنة على ابتسامة مواربة تبرز للعالم، على أوضح صورة، شخصيّةَ الابن الحرام. مظهرُ مخادعٍ غالبًا ما نشاهده في الأدوار السينمائيّة: الشخصيّات الساخرة، المتملّقة، الخطرة أحيانًا، التي تعتقد أنّها ماكرة، وهي ماكرة بالفعل، أكثر ممّا قد نتخيّل، غير أنّ مكرها لا ينجّيها، في النهاية، من الإخفاقِ في مخطّطاتها. نمط الأشخاص الذين خُلقوا لأداء دور مصرفي غير مستقيم، أو زميل سابق يجيد الابتزاز أو دور الصّهر في سلك الشرطة. الحقيقة أنّه كان الصهر في سلك الشرطة. وكيف حال جنڤياڤ؟

ـ بخير، قال جوف، لا بأس. أنتَ تعلم كم هي شديدة الانفعال والتأثّر!

ـ بلى أعلم، قال كلوز بشيء من الرضا. لمن أدين بشرف زيارتك هذه.

حدّثه جوف عن غلوار آبغرال المفقودة، وأتى على ذكر هويّتها المزدوجة، لكنّ كلوز وجد في البداية بعض المشقّة في



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تذكّرها، ثمّ قال:

ـ المغنّية، أجل، أذكر وقائع محاكمتها. ما الذي حلّ بها، بعد ذلك؟

ـ إنّي هنا، قال جوف، لأطرح عليك السؤال.

كعادته راح كلوز يلوّح بذراعيه رافعًا عينيه نحو السماء. دائمًا الحكاية نفسها، أوجز قائلاً، أنت تعلم جيّدًا أنّني لا أستطيع شيئًا لأجلك. لقد سدّدت دينها للمجتمع، سدّدته. ولا يجري البحث عن الأشخاص المفقودين إلّا إذا كانوا قاصرين، أمّا البالغون فلا شأن لنا بهم. للبالغ مطلق الحقّ في التواري عن الأنظار.

ـ يا روبير، همّ جوف بالقول.

ـ حتّى البحث بطلبٍ من العائلة المعنيّة أمر لا جدوى منه. فالمختفي لا يريد أن يُعثر عليه، ولا حول لنا ولا قوة. لذلك لا أستطيع أن أخدمك.

ـ دعكَ من كلّ هذا، قال جوف. جِد لي ما أمكنك إيجاده بشأنها، يا روبير. جِدهُ الآن.

ـ انتبه لما تقوله، قال كلوز بجفاءٍ مباغت، إيّاك. ليس من حقّك أن تفرض عليّ شيئًا.

ـ أعتقد أنّي أستطيع، قال جوف.

ـ لا تتحامق، قال كلوز، أنا أيضًا سدّدت دَيْنِي. لقد تعثّرت، والجميع يعلم، فأعادوني إلى أسفلِ الهرم. لقد سدّدت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

دَيني وأكثر.

ـ أنتَ تعلم جيّدًا، لفته جوف قائلاً، أنّ ما عُرِفَ من القضيّة لا يتجاوز نصف الحقيقة. كما تعلم أنّي احتفظ بالإيصال.

لتبديد الصمت الذي أعقبَ الحوارَ ثقيلاً، تطوّعت سيّارة، منّةً منها وإحسانًا، بعبورِ جادة الجنرال بروني.

ـ ذات يوم، سنسوّي الأمر برمّته، قالَ كلوز بلؤم.

ـ بالتأكيد، أجابه جوف، لا بدّ أن نفعل ذات يوم.

وبعد أن عبرتِ سيّارة أخرى الجادةَ في الاتّجاه المعاكس، نهضَ كلوز أخيرًا ـ لن أتغيّب طويلاً، سأجري اتّصالاً هاتفيًا، مخلّفًا وراءه رائحته البوليسيّة، مزيجًا من روائح المقصف وحجرة المكتب، وعطرَ أكواخٍ حقيرة وزنازين، وفوحان مساكنَ وضيعة، وعصارة مواخير؛ كلّ ما يشهده شرطي ويختبره، كلّ ما ينبغي لشرطيّ أن يختبره. منتظرًا عودته، راح جوف يتطلّع عبر النافذة إلى غصنٍ ملوّح من إحدى أشجار الدلب. العاشرة وخمس وعشرون دقيقة.

عاد كلوز منشرح الطلعة، ما من ضغينة بادية على قسماته، حاملاً بيده ورقةً كأنّه ينجز مسألة عاديّة جدًّا. من الصعب العثور عليها، قالَ غير مكترث، في البداية اعتقد الزميل الذي اتّصلت به هاتفيًّا أنّها متوفّاة. ثمّ قال لا. بالاختصار، وجدنا هذه، قد يسعك التحقّق منها. تفحّص جوف الورقة: عنوان مكتب محاماة ناحية الشانزيليزيه. شكرًا يا روبير، قال، لن أنسى صنيعك هذا. حسنًا، قال كلوز بنبرة هادئة، والآن أغرب عن وجهي.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

نحو الحادية عشرة عاد جوف إلى مكتبه، وهو مقرّ سابق لنقابات قطاع البناء، طبقة أرضيّة شحيحة الإنارة، بواجهة مطلّة على الشارع ولكنّها مطليّة بلون رماديّ. كان جوف قد احتفظ بالأثاث القديم، أنابيب ولاتكس من طرزٍ بالية غير مريحة على الإطلاق. ليس أفضل بكثير من مخفر الشرطة في حيّ «أميركا»، بل لعلّه نسخة عنه ولكن بما يتلاءم مع مؤسّسة خاصّة صغيرة. تصفّح جوف الصحيفة وصنّف بعض الملفّات، قبل أن يظهر برسونيتاز عند الظهر تمامًا.

لم يزدد وزن برسونيتاز. ولكن بدا عليه أنّه معتلّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لطالما كان مظهره على هذا النحوِ؛ مظهرٌ مريب يليق براهبٍ جندي. أطلعه جوف على الوقائع: اختفاء كاستنه، واستبداله ببوكارا، وشخصيّة غلوار. لا يبدو أنّها من النوع السهل، قال، ولا أعتقد أنّ الصغيرَ قادرٌ على إنجاز المهمّة. هل ترغب في تولّيها؟

ـ لديّ بعض الوقت، قال برسونيتاز بعد هنيهة صمت. لكنّي سأحتاج إلى مساعدٍ على كلّ حال.

ـ عليك ببوكارا، اقترح عليه جوف قائلاً. ما زال طريّ العود لكنّه قد يصلح مساعدًا ناجحًا.

بمضي ساعة واحدة، في ردهة مبنى ستوكاستيك، بدا مظهر جوف نافرًا وسط موظّفي هذه المؤسّسة، كما بدا نافرًا ومقذعًا ما كان يُكيله لهم، في سرّه، من ألفاظٍ وشتائم. دخل مكتب سالڤادور بينما كان هذا الأخير منكبًّا، مع دوناتيان، على وضع اللّمسات الأخيرة على عمليّة إطلاق «أجمل فتيات الشاطئ».



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أحمل لكَ هذا، قال جوف مادًّا يده بالورقة التي حصل عليها من صهره. أعذرني يا صديقي، قال سالڤادور، غير أنّي كما ترى، قليلاً. لست صديقك، قال جوف. عفوًا؟ قال سالڤادور مستفهمًا، آهِ إنّي آسف يا جوف، إنّه التوتّر، أرجو المعذرة. (حسنًا، كانت دوناتيان تقول، هناك سيّد يدعى إيڤون كيرسون زوّدنا باسم آنسة ما تُدعى آنابيل فلوري وقد تمّ العثور عليها). هذا الأمر غير مهمّ، قال جوف، خُذ. (وقد تعرّفت على نفسها، تابعت دوناتيان قائلةً، وأصبحت السيّدة آنابيل شنيتسلر وهي تودّ أن تأتي). لكن ما هذا؟ صاح سالڤادور وهو يقرأ محتوى الورقة. مهلاً، قال جوف. انتظر قليلاً. هيّا عُد. (سيتعيّن إبلاغ الأُسرة، قالت دوناتيان من قبيل التوقّع، لقد تمّ العثور على بعض الأصدقاء، لا بل حتّى الشرطي الذي كان يراقب الشاطئ). تبًّا، صاح سالڤادور وقد جلس مجدّدًا على كرسيه بعد أن غادر جوف، جريحَ الكبرياء، تاركًا الباب مشرّعًا على مصراعيه.

أعاد سالڤادور قراءة الورقة التي كان قد دسّها في جيبه، وحاول أن يفهم شيئًا ممّا جاء فيها ثمّ: حسنًا، لا بأس، قال، سوف تتدبّرين هذا الأمر بمفردك. فلننتقل إلى بحث الأمور الملحّة.

الشقراوات الفارعات. لنراجع باختصار. لنبدأ بالمؤلّفين. لدينا إذًا الهيتشكوكيّات. ثمّ البِرْغمانيات. ثمّ لدينا الأفلام السوڤياتيّة، بما فيها أفلام الدول التابعة. سوى ذلك لا أرى ما يُذكَر. لنعاود الكرّة. ولنبدأ ربّما بحسب الترتيب الجغرافي. في المرتبة الأولى، أميركيّات وأوروبيّات، لنقل من الضفّة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الأخرى للأطلسي حتّى الأورال: فالشقراوات الفارعات يتواجدن خصوصًا في النصف الشمالي من الكرة الأرضيّة. بلى. وجهة نظر لا بأس بها. إذ يسعنا أن نبدأ بِمِعْلَم تقليدي حيث يلتقي الجميع. لنقل، على سبيل المثال، المثلّث الشهير مونرو ـ ديتريتش ـ باردو. أليس مألوفًا بعض الشيء؟ سألت دوناتيان مبديةً قلقها، ألم يُشاهدَ مثل هذا أكثر من مئة مرّة؟

إذا شئتِ، قال سالڤادور. حسنًا. لننظّم الأمور إذًا بحسب الشخصيات. لننسَ هاته الشقراوات الفارعات التقليديّات، ولنلتفت إلى الأنماط غير المألوفة، الغريبة بعض الشيء. لنرَ مثلاً، حالة متفرّدة، كنمط آنيتا آكبرغ، هل تدركين القصد، أو جولي لندن كنمطٍ آخر. ناوليني ثبت البطاقات. لنرِ قليلاً. لدينا المتوحّدات، الهامشيّات، والفاشلات. ولدينا أيضًا بعض التافهات. وقد يكون من المستحسن ذكر حالة بعض الطريفات. كما ينبغي لنا أن نأخذ بعين الاعتبار عددًا قليلاً من القبيحات. ولكن كيف نضع ترتيبًا محدّدًا؟ كيف نصنّف كلّ هذا؟

ـ الواقع أن مونرو لم تكن فارعة الطول كما تعتقد، لاحظت دوناتيان وهي منكبّةً على ثبتِ البطاقات. متر وواحد وستون.

ـ ما صلة هذا بذاك، أجاب سالڤادور من دون أن يرفع رأسه، أنتِ لا تفهمين المنهجيّة التي ينبغي اتّباعها. إذ لا حاجةَ لأن تكون فارعة الطول لكي تنضمّ إلى فئة الشقراوات الفارعات، ليس بالضرورة. (فكّر قليلاً). وربّما، في النهاية، لا تحتاج لأن تكون شقراء أيضًا. إنّي لا أدري حتّى الآن.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

# ٨

عصر يومٍ آخر. سيهبط اللّيلُ عمّا قريب. تجلس غلوار إلى طاولة المطبَخ، مرفقاها على الغطاء المشمّع، وسيجارة بين إصبعيها تنفض رمادها تكراراً على حافّة منفضة للدعاية تحمل شارة «مارتل». لم تحتفظ بمكياجها هذه اللّيلة، ما عدا شفتيها المطليّتين بطبقةٍ سميكة من أحمر الشفاه القاني الذي يضاعف شحوب وجهها. أمّا شعرها المصبوغ بنّيًّا كما ارتأت، فمشدودٌ إلى الخلفِ بقوسٍ من الإسفنج الزهريّ محافظًا على تسريحته السابقة.

ليست بهيّة الطلعة ولكنّها بمفردها، لحسن الحظّ، ولا أحد هنا قد يلمحها. ومع ذلك أليس الأفضل أن تحسّن قليلاً من مظهرها؟ قد تكون لها أسبابها بالطبع، ولكن ألا تستطيع أن تشتري لنفسها ثوبًا بين الفينة والفينة، لكي يظهرَ حسنَها قليلاً؟

لا. إنّها ترتدي كنزتها ذات الدببة البرّاقة، وتنتعل حذاءً رياضيًّا أبيض وأزرق متّسخًا عليه كتابة Winning team. وبما أنّ أجواء المطبخ تميل إلى البرودة ـــ فهو ليس مجهّزًا إلاّ بطبّاخ غاز ذي شِباكٍ محمرة يسري بها أحيانًا لسانُ نارٍورديّ ضارب



Twitter: @alqareah

www.kutub-pdf.net

إلى الزرقة ــ، احتفظت غلوار بسترتها الخاصّة بالتزلج، المصنوعة من البوليستر الممزوجِ بالقطن، وذات البطانة البوليياميد، مقاس ١.

السابعة مساءً إذًا، وهي بمفردها مجدّدًا. غادر بيليار، متكدّرًا، إثر شجار نشب بينهما مرّة أخرى. الراديو على الطاولة لا يتوقّف عن بثّه بصوتٍ خفيضٍ، فتدندن المرأة أحيانًا لحنًا من الألحان التي يبثّها، حتّى أنّها في بعض الأحيان تصدر همهمةَ رضا كما يفعل السكارى عادةً، سوى أنّها ليست كذلك. ذلك أنّ غلوار لم ترفع كوب الخردلِ الفارغ الموسومِ برسمة باغز باني، إلى شفتيها سوى مرّة واحدة، وبالكاد تذوّقت ما فيه من نبيذ.

يكاد المرء أن لا يرى شيئًا في هذا المطبخ ذي المصباحين الخافتين لصقَ الجدار، ولمبة النيون فوق المجلى. كرسيّان للحديقة علاهما الصدأ، وضعا، أحدهما فوق الآخر، في ركنٍ منه؛ الثلّاجة ذات الشكل المكعّب؛ الطبّاخ المكسوّ بالسخام؛ وصوان السَّفرة من الخشب القديم؛ سماط بلاستيكي مزركش بالورود؛ إطاران خشبيّان معلّقان على الحائط، أحدهما لصورة المارشال دولاتر، والثاني لمطرّزةٍ تمثّل ثلاثَ قطوفِ عبّاد شمس. الجدران حالت ألوانها منذ فجر التاريخ، وغلوار جالسة في العتمة، كم هي ضجرة هذا المساء، آهِ يا ربّي كم تعاني من الضجر هذا المساء.

لمّا عُهِدَ إليها بمفاتيح هذا المنزل لم تغيّر غلوار فيه شيئًا، مؤثرةً ألّا تظهر بعد اليوم أيًّا من ميولها وأمزجتها التي كانت قد تخلّت عنها. بل حاولت، على العكس من ذلك، أن تكيّف



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ذات نفسها، وشخصيّتها مع المنزل كما هو، مستسلمةً لتأثير هذا المسكن الضيّق، الشحيح الإضاءة، البائس التدفئة، على طرفِ بلدة مؤلّفة من خمسٍ وتسعين نَفْسًا محشورة بين شَرْمٍ بحريّ وبين هكتاراتٍ من حقولِ الزرع. قبالة السماط وصورة المارشال دولاتر، بدلَ أن تستبدل الأوّل وتقلب الثانية استسلمت لذاك السماط وتلك الصورة فقلبا وغيّرا، في قرارة نفسها، ما كانت تريده. وبدل أن تعيد طلاء المطبخ، توسّلت غلوار إلى المطبخ لكي يختار لون كريمها الواقي وكحلتها، ويملي عليها ما سترتديه من ملابس وما ستتلفّظ به من عبارات وما ستنطق به من نبرات، .وأن يحدّد زاوية انحنائها.

قد تبدو حياة غلوار آبغرال حياةً لا تغمرها السعادة، غير أنّها هي التي أرادتها على هذا النحو. مُذ شاءت، قبل أربع سنوات، أن تختفي، أن تحذف نفسها من خارطة العالم واختارت العيش في الخفاء، اتّخذت بهذا المعنى كلّ الاستعدادات اللّازمة، منساقةً لما يمليه عليها حدسها. قطعت كلّ صلةٍ ماضية، ومرّة ثانية غيّرت اسمها، زاعمةً أنها تدعى كريستين فابريغ، وغيّرت مظهرها. جعلت صلاتها بجيرانها في حدودها الدنيا، ما عدا ألان، وهو الوحيد الذي سمحت له بأن يحادثها. عندها بالضبط يُسمَع طرقٌ على الباب، وإذا به هو في الباب. أذكر الذئبَ، تقول غلوار في سرّها، لقد جاء المغفّل.

هو ذا ألان يطلّ مجدّدًا إذًا، ما زال مرتديًا السترة نفسها ـ ولكن نظرًا لازدياد برودة الطقس، بدا، هذا المساء، مثلّثٌ من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الصوف الداكن تحت ياقته التي على هيئة V. جسدٌ رَبعٌ ، مضغوطٌ مثل بطّارية وشعرُ بَدَنٍ أصهب كهربائي، فلا يعوزه سوى منشبٍ للتيّار لكي يضيء لمبة. يقف حائرًا أمام الباب، وابتسامة غامضة ترتسم على شفتيه، وبيده التي أبقاها خفيضةً سلطعون ضخمٌ في حجم حقيبة يد. برتو هو الذي أعطاه إيّاه للتوّ، يقول شارحًا، إنّه لا يدري ماذا يفعل به، فهل ستسرّ كريستين به؟

في البداية لا تجيب غلوار عن سؤاله، متفحّصةً بعينين حذرتين ذلك الحيوان البنّي الفاتح الذي يفوق قُبُله الأيمن قبُلَه الأيسر حجمًا، ويقرص الهواء تكرارًا متخبّطًا بعصبيّة بادية. هل أحضر لك شرابًا يا ألان؟ تقول بعد تفكير وقد أصبح السلطعون داخل المجلى مزبدًا مطلقًا فقاعات ضئيلة من رواله. يحاول السلطعون الخروج من المجلى لكنّه ليس أكثر قدرةً على الحركة من حَجَرٍ غير مثبّت في مكانه، من رجلٍ سقطَ مرتديًا شكّته ويسعى للنهوض عبثًا. فهو، بحركته الجانبيّة المرتبكة، لا يني ينزلق عن الحواف الملساء ويسقط على جنبه فارزًا سائله بحفيفٍ معدني مكتوم.

بعد جلوسه، استأنف البحّار المتقاعد سرد ذكرياته البحريّة. حملات، وأسفار وجراح كان من شأنها أن تصنع حياةً مديدة الأجل. لطالما كان بحّارًا: في الجيش، والبحريّة التجاريّة، وصيد السمك. ويستعيد مجدّدًا انطباعاته حول أستراليا التي يبدو أنّها، من بين البلدان قاطبة، قد تركت أثرًا عميقًا في نفسه. ومع ذلك، لا يبدو كعادته متحمّسًا: إذ يصمت ألان



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

هنيهاتٍ، رامقًا غلوار بنظرات مترقّبة، منتظرًا، بلا ريب، أن تحادثه المرأة الشابّة مجدّدًا، رافعةً الكلفة بينهما، كما فعلت في المرّة السّابقة.

عندما تنهض غلوار، بعد هنيهاتٍ، لتحضر المزيد من مكعّبات الثلج، يتبعها ألان بنظراتٍ مشوّشة وهي تسير نحو الثلّاجة. ينهض بدوره ويسير خلفها فيما هي منهمكة في نزع القوالب من داخل الفريزر. أنت تعلمين يا كريستين أنّي أحفظ لك مودّة كبيرة، يقول ألان بصوتٍ متهدّج. لكن غلوار لا تجيبه على الفور.

ـ من المهمّ جدًّا أن تسود مشاعر الودّ بين الجيران، يتابع الرجل قائلاً بارتباك شديد، أمر جيّد أن يتحابّ الناس فيما بينهم. كيف لي أن أعبّر عن ذلك؟ خير لهم أن يتحابّوا.

تستدير المرأة على مهلٍ وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مصطنعة، وبيدها مكعّبا ثلجٍ يلسعان راحتها. ما هذا الذي تقوله، قالت بنبرة. لا ضيرَ فِي أن يُحسن الناس صنيعًا لأنفسهم وللآخرين، قال الرّجل مرتبكًا حيال رفعها الكلفة في مخاطبته، هذا ما أردت أن أقوله. ما هذا الهراء الذي تتفوّه به، راحت غلوار تقول مردّدةً وهي تدنو منه تدريجًا، فيما يلبثُ هو متأهّبًا للتراجع باديَ القلق على نحوٍ مباغت. لكن بعد الفوات. إذ تمسك غلوار بيدها الطليقة طرفَ ياقة سترته وتجذبه إليها ثمّ تقبله بنهمٍ لثانيتين مديدتين أو ثلاث، قبل أن تبعده عنها بحركة عنيفة منْ يدها. أغرب عن وجهي، تقول. هيّا اذهب، الآن. وإذ يحاول ألان أن يمسك بذراعها، تتخلّص غلوار من قبضته



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وتنهال عليه بيدها القابضة على مكعّبي الثلج. حرفٌ من هذين المكعّبين غير الذائبين، يجرح جبين البحّار السابق الذي يخطو إلى الوراء متحسّسًا وجهه ثمّ ناظرًا إلى أثر الدماء على أصابعه. لا تمهله غلوار قبل أن تندفع نحوه دافعةً إيّاه إلى الخلف منهالة عليه ركلاً ولكمًا حتّى الباب، فيما الرّجل الذي خبر شظفَ العيش، والصراع ضدّ الطبيعة، والمجابهة الجسديّة والعداوة، يتقهقر أمام ضراوة غير متوقّعة تطارده إلى ما بعد العتبة قبل أن تغلق الباب دونه. يهرع هاربًا على الطريق، قاصدًا منزله، غير ملتفتٍ، مرّة أخرى، لسيّارة الڤولڤو ٣٦٠ المركونة حيث كانت أمسِ، فيما تهرع غلوار فاقدةً السيطرة على أعصابها بحثًا عن فأسٍ في المخزن.

لدى عودتها من المخزن، وهي تعبر المطبخ عرقانةً راكضة، تلمح السلطعون في قعر المجلى. فتستدير حانقةً نحوه وبضربة فأس تقسمه إلى اثنين. وفيما تتابع طريقها باتّجاه الباب راكضةً، يواصل نصفا الحيوان اختلاجهما، كلّ من جهة، أملاً في أن يلتقي النصفان فيلتحمان مجدّدًا ومن حولهما مِزَقٌ من اللّحم الغضروفيّ الشفّاف.

تعاود غلوار فتح الباب، وتخرج إلى العتبة، ساعيةً، في غبَش الغروب، لأن تلحظَ خيالَ ألان الهارب الذي لم ينتظرها. في الاتّجاهين تبدو الطريق مقفرة. لا تلحظ شيئًا غير مألوف، ما عدا سيّارة الڤولڤو٣٦٠ ، الخالية، المركونة على مقربة من المنزل، التي وقعت أنظار غلوار عليها سهوًا، وما كانت لتقف عندها لو لم يغمز، مرارًا، في العتمة السائدة،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

جمرُ سيجارة «بال مال» خلف الزجاج المغبّش. ها هم يعودون ثانية. يعودون مجدّدًا لإفساد حياتها. تضيق عينا المرأة الشابّة لهنيهةٍ قبل أن تسير بخطواتٍ ثابتة باتّجاه السيّارة.

من داخل هذه السيّارة يرى بوكارا المرأة الشابّة مندفعةً نحوه. وجه ميدوزا وفأسٌ بيدها، تبدو في العتمة طالعةً من مدافن عظماء البرابرة، من لوحةٍ رمزيّة أو من فيلم رعب.. تتقدّم بسرعةٍ لا تضاهيها سرعة بديهة بوكارا الذي يبدو، في الأثناء، فاقد المبادرة. وإذ يهمّ أخيرًا بإشعال المحرّك، تهوي الفأس على الزجاج الأمامي الذي يتناثر لحظة دوران المحرّك. يطلق بوكارا صرخةً مدويةً مشحونةً بالرعبِ المتأتيء، ويحرّك عتلة السرعات حتّى السرعة الأولى قبل أن يسحقَ بقدمه دوّاسة البنزين. إثرَ مناورتين فاشلتين، وإخفاق غلوار في إصابة السيّارة المتحرّكة بسرعة فائقة، تتمكّن الڤولڤو من سلوك الطريق في الاتّجاه الصحيح، قبل أن تتوارى مطفأة المصابيح. لا يفكّر بوكارا في إشعال مصابيحه إلّا بعد ابتعاده خمسمئة متر. يتسرّب الهواء البارد من الزجاج الأمامي المحطّم، كاويًا الجراح البسيطة في وجهه التي سبّبها الزجاج المتطاير. وغبطته لا توصَف لأنّه لم يغامر بالفرار باتّجاه الجرف الصخري المحاذي للبحر، فلو فعل لما أَمِنَ النجاة. غير أنّ حسن الطالع نجّاه، إذ لا تعرف غلوار وسيلةً لتنظيف العالم إلّا من علوّ شاهق.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

# ٩

طوال الكيلومترات التالية، لم يكفّ بوكارا، متحسّسًا برفقٍ جراحَه الطفيفة بأنملة إصبعه الوسطى، عن إطلاق اللّعنات، بصوتٍ حانقٍ عالٍ، شاتمًا غلوار. قَلِقًا، مستاءً، متشنّج الفكّين، متألّمًا من جراحه التي كان عاجزًا عن تقديرِ درجة خطورتها، أظهر بوكارا موهبةً لا بأس بها في ابتكار شتائمه.

نظرًا لاضطراره إلى السير بسرعةٍ معتدلة، استغرقه الوصول إلى سان بريو بعضَ الوقت. عند مدخل المدينة وجدَ محطّة بنزين ما زالت تستقبل الزبائن وتوفّر خدماتٍ متنوّعة بحيث تولّى العاملون فيها معالجة زجاجه الأمامي المحطّم. وفيما انهمك العاملون باستبدال الزجاج بغطاء مؤقّتٍ من البلاستيك، توجّه بوكارا إلى المغاسل للتثبّت من الأضرار ـ أربعة أو خمسة خدوش سطحيّة، ولا شيء يدعو إلى القلق. تفحّص وجهه في المرآة: ما زال ذلك الشاب الوسيم الممتلئ الجسم قليلاً برغم عينيه الجميلتين اللتين تليقان بفتاة، على قدرٍ من النباهة، ليس من قصر القامة بحيث يعدّ قصير القامة، وليس من البدانة بحيث يعدّ بدينًا، ليس فاقدَ الشعر بحيث يعدّ أصلع، غير أنّه سيبتلى



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بهذه الصفات كلّها عمّا قريب. سوفَ ينشغل بهذه الأمور في وقتها إذًا. ذلك أنّه على الرّغمِ ممّا لا يشوب مظهره الآن، فإنّ مستقبله محتومٌ بمضيّ عشرينَ عامًا: مرطّبات للبشرة، كعوب عالية، مُفقدات لشهوة الطعام، تمارين سير على الأقدام، ولكنْ من دون جدوى.

مع ذلك كان يحاول أن يحفظ البسمةَ على شفتيه في كلّ الأوقات. وحتّى في لحظة الهزيمة تلك قبالة المرآة، وحيدًا في مغاسل المحطّة، طارفًا بعينيه، متظاهرًا بعدمِ الاكتراث، رسمَ على وجهه ابتسامته الطفيفة تلك، مطليةً بمساحيقِ اللّامبالاة، ومغلّفة بأغطية الطلاقة. نفضَ ثنية سترته الأنيقة ذات اللّون الأزرق المخضّب الضارب إلى البنفسجي. لطالما كان بوكارا حسن الهندام ينتقي ملابسه بعناية، ومن خلالها يراقب، بقلقٍ، أحوال العالمِ، وملابس الآخرين على نحوٍ خاص.

عاد إلى باحة المحطّة وسدّد حسابه مطالبًا بإيصالٍ ثمّ انطلق. في طريق عودته كان المنظر الذي يتراءى من خلال الغطاء البلاستيكي مشوّشًا غائمًا كأنّ ضبابًا كثيفًا يكتنف المنطقة، أو كما تبدو الصورة على شاشة تلفزيون قديم. نظرًا لعجزه عن بلوغ سرعته المعتادة، كان على بوكارا أن يصبرَ على ما يكابده: كأن يرخي عضلات ظهره، ويليّن ساعديه فوق المقود؛ كان يسعى للبقاءِ هادئًا برغم هذا البطء الذي يثير غيظه، برغم خبثِ هذا البطء الذي يتظاهر، وهو خادمُ الموت، بأنّه غافلٌ عن قِصَرِ الحياة.

على بعد ثلاثين كيلومترًا، تحاول غلوار هي أيضًا أن تحافظ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

على هدوئها. بعد كَسْرِ الزجاج الأمامي، وانزلاق الفُولفُو في أكثر من اتّجاه، لاذت بمنزلها موصدة الباب والنوافذ. ثمّ انزوت حاملةً بيدها كأسًا من النبيذ في الحمّامِ، حيث لا نوافذ، موصدةً بابه بإحكامٍ وراءها، مضيئةً لمبة النيون فوق المغسلة. هذه اللمبة، مثلنا جميعًا، تعاني أحيانًا يقظاتٍ شاقّة، فتطلقُ رذاذ ضوء خافتٍ وهي تكحّ، وبعد هنيهاتٍ من التلعثم والتأتأة، يسري النور في أوصالها. جلست غلوار فوق غطاء جرن المرحاض بعد أن أنزلته، ولبثت منحنيةً إلى الأمام، مرجّحةً رأسها المتدلّي بين مرفقيها المسنودين إلى فخذيها، فيما تشابكت يداها أمامها حول كأسها. أين أصبحنا من كلّ هذا.

طبعًا عثروا عليها. عيّنوا مكان إقامتها وتعرّفوا عليها وتتبّعوها. أمّا غلوار فهي لا تجهل كلّ شيء عمّن يكون هؤلاء الأشخاص الذين يتعقّبونها ونواياهم وحسب، بل إنّها لا تبالي البتّة بأن تعلم، وجلّ ما يشغلها هو الوسيلة التي تمكّنها من التخلّص منهم. إذ يبدو أنّ التصدّي لهم وجهًا لوجه لن يجدي نفعًا: فالتخلّص من جان كلود كاستنه لم يكن مفيدًا، كما أنّ طرد الدخيل هذه اللّيلة لن يكون بدوره مفيدًا. يبدو أنّهم منظّمون.. ومصرّون، وربّما كان عددهم كبيرًا.. وسوف يعودون. وعلى الرّغم من كلّ الاحتياطات التي راعتها واتّخذتها، يبدو أنّ مخبأ المرأة الشابّة بات معروفًا. فوداعًا يا أيّامَ التنكّر، وداعًا يا أيّام الأمان، وداعًا أيّتها الغيبوبة الاجتماعيّة المطوّلة. هؤلاء الأشخاص الذين يطاردونها يمثّلون ماضيًا تنكّرت له، لكنّه ينبثق للتوّ من سحيق الأزمان، مقذوفًا بشريطٍ مطّاطيّ عملاق. قد يسعى آخرون، في الحالة نفسها، أن يتدبّروا الأمور، أن



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

يتفاوضوا مع هؤلاء الناس، أن يستفسروا عن نواياهم خططهم ثمّ يتصرّفون على هذا الأساس. آخرون، ربّما، ولكن ليس غلوار. فمثل هذا لا يخطر ببالها على الإطلاق.

كانت تحسب أنّه لم يمضِ وقت طويل على انزوائها في ذلك المكان، جالسةً تحت مصباح النيون، لمّا تناهى إلى سمعها أنين عصفور وهو يتمطّى نافضًا ريشه، متثائبًا، فاتحًا عينًا واحدة، مطبقًا أخرى، على شجرة النخيل. لدى عودتها إلى حجرتها إذا بأربعة خيوطٍ دقيقة من خيوط الصبح، رمادية مكفهرّة، وقد رسَمت إطارًا لمصراعي النافذة المغلقين. وإذ تستلقي بملابسها، بعدَ وقتٍ، ملتحفةً بغطاء، تبقى عيناها شاخصتين في الظلمة. ولدى طلوعها تلفاها الشمسُ جالسةً على كرسيّ من القماش وسط الحديقة، ملتحفةً بالغطاء نفسه. نحو التاسعة والنصف يظهر بيليار.

يبدو بيليار متعبًا. نابتَ اللّحية لم يغيّر ملابسه منذ الأمس. وبرغم انشغالها بهموم أخرى، تهمّ غلوار بسؤاله أين أمضى ليلته، غير أنّها تُحجم عن ذلك في اللحظة الأخيرة، فما كان ليجيبَ عن سؤالها بأيّة حال. ثمّ أنّه يبدو متكتّمًا، راغبًا عن الخوض في أيّ حديث. لذا يمكن للألسنِ الزعم، هذا إذا شاءت الألسن أن تتناوله بالسوء، بأنّه لم يظهر إلّا طلبًا للاسترخاء قليلاً، ولنوم هنيء حتّى الظهر، جاثمًا على كتفِ المرأة الدافئة الليّنة. ولمّا تحاول المرأة، بعد وقتٍ، أن تطلعه على مجريات اللّيلة، يلبث الكائن الضئيل على تحفّظه مجيبًا بعبارات مقتضبة لا تخلو من جفاء أو من سخرية، وإن تخلّلها



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

جميعًا ما يوحي بالصدّ. الظاهر أنّ اليوم ليس أفضل أيّامه.

ليس أمرًا جديدًا على بيليار أن يبدو غير مبالٍ، غير مدرك لما يجري ولخطورة ما يجري. لطالما كان الأمر على ما نرى: أحيانًا يعلم بكلّ ما جرى في غيابه، كلّ شاردة وواردة بأدقّ التفاصيل التي قد تغفل عنها غلوار، وأحيانًا أخرى يأتي غير مدركٍ لأيّ شيء على الإطلاق، على شيء من الخَبَل شأنه هذا الصباح، وينبغي أن يسمع شرحًا مُفصَّلاً لكلّ ما جرى ـ طبعًا ليس من المستبعد أن يكون بيليار عندها، متظاهرًا بالخبل وعدم الإدراك ليس إلّا. تحرّك غلوار كتفها لتهزّه قليلاً.

ـ أصغِ إليّ قليلاً، تقول. أصبح الأمر لا يُطاق.

ـ وما الجديد في ذلك، يغمغم بيليار قائلاً. أمور كثيرة أصبحت لا تُطاق.

ـ لقد عادوا مرّة ثانية، تقول غلوار. رجل آخر، ليل أمس.

ـ آه، فهمت، يقول بيليار ناهضًا رأسه قليلاً، محدثًا فرقعة بفمه المبنّج كنايةً عن علمه بالأمر. وماذا لو عادوا؟

ـ أريدهم أن يدعوني وشأني، تقول غلوار صائحة. لن يتراجعوا، ألا تفهم؟ كنت أعتقد أنّ الأمر سينتهي بعد مجيء الرّجل في ذلك المساء، ولكن لا. هناك آخرون، وسيعاودون الكَرّة. لا أريد أن يحاولوا إفساد حياتي مجدّدًا: هل تفهم ما أقول؟

ـ حسنًا. يقول بيليار، حسنًا. عليك بالهدوء.

ثمّ تغطي وجهها براحتيها:



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ أريدهم أن يدعوني وشأني، تردّد قائلة ولكن بنبرةٍ مختلفة كأنّها صوت مظلّةٍ تهبطُ مدوّمة.

في غضون الدقيقتين أو الثلاث التي جعلت تنتحب خلالها، راح بيليار يربّت على كتفها بحركةٍ آليّة، مقلّبًا بصرَه في الأنحاء خشية أن يكون صراخ المرأة قد لفت الانتباه. سنفكّر في الأمر مليًّا، يقول، وسنجد حلاًّ. لقد فكّرت مليًّا، تقول أخيرًا هامسةً في راحتيها. ما الذي فكّرت فيه مليًّا؟ يقول بيليار. غير أنّها تهزّ كتفيها من دون إجابة.

ـ ما الذي فكّرت فيه مليًّا؟ يلحّ الكائن الضئيل بسؤاله.

ـ لا شيء، تقول بعد وقت. وبأيّة حال لا أستطيع.

مسحت أنفها، لصوتها نبرة الغضب اليائسة، المتقزّزة، التي قد تشوب نبرة الفتيات الصغيرات المنتحبات، الشجاعات ولكن اليائسات من كلّ شيء. بأيّة حال، تردّد قائلة، لم يعد الأمر ممكنًا حتّى.

ـ حسنًا، يقول بيليار، ما الذي لم يعد ممكنًا؟

امتناعها عن الإجابة فورًا ربّما يعني أنّها لا تجرؤ. فعلى الرّغم من أنّها تعامل بيليار بفظاظة أحيانًا، ومن أنّها غالبًا ما تشكو من وجوده لا بل تتمنّى أحيانًا أن يرحل إلى الأبد، الظاهر أنّ غلوار ما زالت تحتاج إلى رأيه، إلى موافقته وحتّى إلى تشجيعه. ولكن في البداية تخشى غلوار أن يكون هذا الرأي سلبيًّا، ثمّ لا تلبث أن تجد حاجتها إليه مذلّة، وأخيرًا:

ـ أريد أن أرحل، تقول بهدوء. أودّ أن أرحل عن هذا المكان.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

يفرض بيليار على الأجواء صمتًا سريريًا.

ــ أود فعلاً أن أرحل، تردّد غلوار رافعة رأسها. ولكن هذا غير ممكن، أليس كذلك؟

الصمت مجدّدًا، ثمّ:

ــ بلى، يقول بيليار محتفظًا بهدوئه. لا بد أن تكون هناك وسيلة لجعله ممكنًا. أنا شخصيًا لا أرى عائقًا يحول دون ذلك.

ــ أهذا ما تراه حقًّا؟

ــ بالتأكيد، يردّد بيليار، بالتأكيد. أنا شخصيًا لا أجدُ أي مانع.

ترمق غلوار بنظراتٍ متشكّكة الكائنَ الضئيل الذي يتابع:

ــ ليس ممكنًا وحسب، يقول بحماسةٍ متمادية، بل هو مستحسن أيضًا. لقد كفّرتِ عمّا فعلت، ويكفي هذا القدر. حسنًا. بإمكانك أن ترحلي. افعلي ما أقوله لك: تجمعين حاجياتك كلّها وممتلكاتك، وتسافرين خلسةً إلى المناطق الاستوائيّة، بعيدًا من هنا.

ــ لا، تقول غلوار غير مصدّقة.

ــ بلى، بلى، يقول بيليار. صدّقيني.

ــ حسنًا، تقول غلوار بتردّد. حسنًا سأفعل كما تقول. هذا ما قلته، أليس كذلك؟ بعيدًا جدًّا، إلى المناطق الاستوائيّة؟

ــ هذا بالضبط ما قلته، يجيب بيليار. وسأرافقك.

ــ مهلاً، تقول غلوار مستدركة، مهلكَ. أنا على استعداد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تام للرحيل بمفردي.

ــ كفّي عن المزاح، يقول بيليار. مرحى يا رغدَ الحياة سويًا.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٠

ـ بالاختصار المفيد، إنّها امرأة مجنونة، خلُصَ بوكارا إلى القول متحسّسًا برفقٍ ضمادات التفتة الصغيرة الموزّعة على خدوشه البسيطة.

ـ على كلّ حال، قال جوف، الظاهر أنّها امرأة تجيد الدفاعَ عن نفسها.

ـ طبعًا لكَ أن تشمتَ بي، قال بوكارا بنبرة احتجاج. كم سيستغرق شفاؤها؟

ـ مدّة لا تُذكر، قال جوف، لن يستغرق ذلك أكثر من ثلاثة أيّام. قل لمن يسألك إنّك جرحت نفسك أثناء الحلاقة. وأنتَ يا برسونيتاز، ما رأيك فيما يجري؟

من المقعد الجانبي حيث كان يجلس، حدّجَ بوكارا بنظراتٍ متحرّجة برسونيتاز الجالس مستقيمًا على كرسيّ قبالة مكتب جوف: رجل نحيل الجسم قاسي الملامح، متقشّف المظهر وإن بدا متنكّرًا في زيّ موظّف تأمين غير مألوف، بذلة رمليّة اللّون وقميص قاتم وربطة عنقٍ ضاربة إلى الأخضر الفاتح.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

شعرٌ نحاسيّ اللّون، شبه أصهب، مقصوصٍ على الطريقة العسكريّة، وخدّان ضامران وجبين متغضّن؛ جعدتان متوازيتان مع محور الحَنَك كان من شأنهما أن تبدوا أثرين لجرحين قديمين، أو ندبتين منذ الولادة، كما كان من شأن نظرته المجمّدة أن تثير الرعبَ في روع بوكارا. كان وجهه يوحي بانشغالٍ مُغرِقٍ أو لعلّه ألمٌ عظيم، أو مرض مزمن، كقرحة المعدة أو أمر من هذا القبيل. كان منصتًا متجهّمًا كما يقف المرء أمام طبيبه. ولم ينبس بحرفٍ حتّى اللحظة.

ــ للوهلة الأولى يبدو أنّه أمر لا يُذكَر، قال أخيرًا محرّكًا شفتيه.

ــ لا بدّ أنّك تمازحنا، قال بوكارا، إنّها امرأة خطيرة. إنّها فاقدة العقل تمامًا.

ــ أنا أيضًا كنت أرى أنّ الأمر لا يستحقّ خبرًا، قال جوف، أعلم ذلك. في البداية لم أشأ أن أزعجك. ولكن ما يشغلني الآن هو قضيّة كاستنه. لقد انقضى أسبوع من دون أن نسمع شيئًا من أخباره، الأمر مقلق بعض الشيء. أريد أن أعلم ما جرى. وأرجو ألّا تكون قد تسبّبت له بأيّ أذى، فأنا في النهاية من استخدمه. وما عاد سعينا وراءها الآن مقتصرًا على كونه واجبًا التزمنا به أمام الزبون. إذًا ماذا تقول، هلّا تولّيت القضيّة؟

ــ أنت تعلم جيّدًا أسلوبي في العمل، قال برسونيتاز، أنا لا أخطو خطوة واحدة من دون مساعد. والحال أنّي فقدت مساعدي. وأبحث الآن عن بديل.

ــ خذ بوكارا إذًا، اقترح جوف قائلاً، وسيكون ممتنًا لك.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

إنّه جيّد جدًّا في عمله.

ـ طبعًا، صاح بوكارا قائلاً، اختر بوكارا. المزايا الكاملة، من دون نقاط ضعف أو سيّئات. لا تتردّد قبل أن تقبل بحماسة.

رمقه برسونيتاز بمثيلِ نظرته الباردة التي يرمق بها كلّ شيء؛ نظرة تقنيّة فارغة كمن ينظر إلى الهدفِ من بعيد في ساحةِ لتمارين الرماية. حسنًا، قال ملتفتًا إلى ساعة يده الحديديّة، سنجرّب. سنعود إلى هناك في غضون ثلاث ساعات. وفي الأثناء يجب عليّ أن أعرّج على منزلي.

لم ينقضِ وقت طويل حتّى كان يسلك زقاقًا متفرّعًا من شارع روما، خلف الباتينيول، الذي يحاذي ويطلّ على خطوط السكّة الحديد المفضية إلى محطّة سان لازار. أسفل الشارعِ المذكور كان يمتدّ نحو عشرين خطًّا حديديًّا متوازيًا ومن حولها على الجانبين مبانٍ شاهقة، أو تسير عليها قطاراتٌ بين الفينة والفينة. يافطات معدنيّة صدئة، مثبّتة على السياج الواقي، تحذّر هنا وهناك من لمس الأسلاك الكهربائيّة (خطر الموت) أو رمي النفايات على خطوط السكّة.

مغادرًا رصيف شارع روما، انعطف برسونيتاز إلى اليمين سالكًا جسر لوجوندر المعلّق على ارتفاع ثلاثين مترًا فوق خطوط السكّة الحديد بوساطة أعمدة من الحديد المصبوب. عند بلوغه منتصف الجسر، وصل قطار العربات المفضّضة الأربع الذي يقوم برحلات نقل الركّاب بين روين وباريس: كأنّها صُنِعَت من حديد أبيض، كانت العربات تسير على سكّتها وفق محور شمال غرب جنوب شرق. ولأنّ برسونيتاز كان، من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

جهته، يسلك الجسر وفق محور جنوب غرب شمال شرق، كان مسارا الرجل والقطار يتقاطعان وفقَ زاوية قائمة، ولأقلّ من عُشرِ عُشرِ الثانية، كان جسد الرجل مجاورًا بالضبطِ، ومن أعلى، لجسد المرأة، داخل القطار، التي شرع في التحرّي عن مكان وجودها.

على أثر حديثها مع بيليار، كانت غلوار قد ارتجلت خطّة لرحيلها. وضعت جدولاً بالأعمال التي ينبغي أن تنجزها. تنظيف البيت وترتيبه عند الصباح، تنظيف بقايا السلطعون وقتل الأرنب. بعد الظهر، جمع لوازم زينتها وملابسها التي حاولت في البداية أن تختار بعضها لتحمله معها قبل أن تكدّسها جميعًا في كيس نفايات من البلاستيك ثمّ تضعها بقرب البوّابة الخارجيّة حيث توضع عادة مستوعبات النفايات. تحرير رسالة موجزة لمالكة المنزل سترسلها بالبريد مصحوبة بشيك مصرفي ومجموعتين من المفاتيح. شراء قنّينة كونياك. إعداد الأرنب للشيّ بطريقة مارنغو.

باكرًا في صباح اليوم التالي، استقلّت أوّل القطارات المتوجّهة إلى روين، ثمّ استقلّت الحافلة إلى دارة للنقاهة ملحقة بأحد الأديرة القديمة بمنطقة روين. بعد قليل من الانتظار عند طرف أحد المماشي، أقبل نحوها رجل عجوز حسن الهندام، حليق الذقن مهفهف المظهر، وهو ممسكٌ بيد ممرضة. حضنته غلوار وقبّلته. يا آنستي، قال العجوز، أنت امرأة فاتنة ولكنّي لا أعتقد أنّنا التقينا من قبل. في الخلف، هزّت الممرّضة برأسها. إليكَ يا أبي، قالت غلوار، لقد أحضرت لك قنّينة كونياك. في



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الخلف هزّت الممرّضة برأسها في الاتّجاه المعاكس. إنّه لُطفٌ بالغٌ منكِ، قال العجوز بحماسة بادية، ولكنّي أخشى أنّهم سيصادرونها منّي. بعد ذلك عادت إلى المحطّة واستقلّت ذلك القطار الثاني المتوجّه نحو باريس ـ محطة سان لازار. كانت في طريق عودتها. كانت في طريق عودتها إلى ديارها.

لم تغيّر شيئًا من مظهرها البائس، وعلى الرّغم من سفرها في الدرجة الأولى احتفظت بملابسها التي تليق بالدرجة الأخيرة. حقيبة سفرها شبه فارغة، إذ لا تحتوي إلّا على مبلغٍ كبير من المال من أوراقٍ نقديّة من فئة الخمسمئة فرنك، كانت اختلت مرةً بنفسها في مراحيض القطار لكي تعاود عدّها. نظرت إلى صورتها في المرآة، بدت كتفاها بارزتين إلى الأمام، وبدا ظهرها محنيًا قليلاً. لقد اكتفت من رؤية صورتها على هذه الحال، وضاقت ذرعًا بها ـ غير أنّ كلّ شيء سيتغيّر عمّا قريب، وسوف تتخلّص من هذا المظهر. صبرًا يا عزيزتي الشمطاء.

بينما كانت تعبر بين كاميرات المراقبة، في محطّة سان لازار، لمحت قامتها البائسة، من أخمص القدمين حتّى الرأس هذه المرّة، على شاشات المراقبة التلفزيونية المثبّتة تحت لوحات جداول المواقيت: منذ زمن بعيد لم تر غلوار نفسها على شاشة. وهي بأيّة حال لم تكن تشاهد نفسها كثيرًا خلال فترة شهرتها الفوريّة القصيرة، الآفلة كشمسٍ آفلةٍ وقد أشرقت للتوّ. اقتصر الأمر في البداية على ثلاثة أو أربعة برامج منوّعاتٍ موسيقيّة لم يعاود بثّها إطلاقًا، واقتصرت مشاركتها فيها على أداءٍ، بصوتٍ مسجّل مسبقًا، لأغنيتها «المتجاوز حدّه» متبوعة بـ«لا نرحل»، ثم بعد ذلك



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بقليل، خلال فترة المحاكمة، بعض الأنباء السريعة في ختام النشرات الإخباريّة ضمن فقرات الأحداث المتفرّقة والمتابعات العدليّة. سوى ذلك لم تظهر مجدّدًا على شاشة تلفزيون. تلاشت صورتها من كلّ مكان ما عدا المساحات المخصّصة للأدوات الكهربائيّة المنزليّة في المخازن الكبرى، على شاشات معدّات الفيديو كشرائط اختبار للزبائن الراغبين في الشراء، أو في المترو، قبيل مغادرته باريس، على شاشات الاختبار التي تبيّن لسائقي القطارات حركة الناس على أرصفة المحطّة.

غير أنّ من المستحسن من الآن فصاعدًا أن تتجنّب غلوار ركوب المترو. أقلّتها سيّارة أجرة نحو فندقٍ متواضع هادئ في شارع هادئ في نواحي مونبارناس. لم يكن الفندق فندقًا حقًّا، كان مزيجًا من النُزلِ العائلي ودار المواعيد. لا ردهة استقبال بالمعنى الحرفي للكلمة بل صالة حيث امرأة أنيقة المظهر وعلى شيء من التحفّظ، ترتدي تايورًا وعقدًا من اللؤلؤ، سلّمتها مفتاحًا غافلةً عن الإجراءات المعتادة ـ لا أرقام على أبواب الغرف. أودعت غلوار حقيبتها وسرعان ما غادرت، ثمّ سلكت نزلة طريق رين سيرًا على الأقدام.

في نواحي سيفر بابيلون، كانت ثلاث أو أربع من ساعات ما بعد الظهيرة كافية لشراء ما تحتاجه من ملابس من دون أن تلتفت إلى الأسعار: رداءً مشمّعًا وتنّورتين وبنطالين وأربع تنانير يابانيّة ذات ثنياتٍ، وزوجي صنادل بسيورٍ ونعلٍ متصل بالساق. ثمّ لدى مرورها من أمام غيرلان دخلت لشراء بعض المستحضرات الخفيفة، من دون مساحيق ملوّنة أو مرطّبات



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

للبشرة أو كريمات نزع المكياج، كما ابتاعت مِرذّة «جاردان دو باغاتيل» من الحجم الصغير. في شارع غرونيل أخيرًا ابتاعت غلوار حقيبتين من الجلد الثمين لتضع فيهما مقتنياتها الجديدة.

عادت على الأثر إلى الفندق، حيث وضعت بعض المكياج على وجهها، وسرعان ما أقلّتها سيّارة أجرة ثانية إلى شارع الوزارات، وترجّلت منها أمام مبنى منخفض، أنيق الهندسة، ولا ما يشير على الواجهة إلى طبيعته. كتلتان من الشجيرات تحيطان ببابٍ من زجاج شفّاف وحديد مطرّق. بعد أن ارتدت مئزرًا أبيضَ في الطبقة الأرضيّة، وتسلّقت سلّمًا مريحًا، بدر من الرجلِ الجالسِ على السُدّةِ إيماءة اهتمام حالما رآها مُقبلةً نحوه، غير أنّه لم يبدِ شيئًا من علامات المفاجأة، ولن يطرح أيّ سؤال. هذه أنا، قالت غلوار. طبعًا، قال الرجل، أرى ذلك.

يُعرف بسيزار، اسم شهرته كمزيّن، جنسٌ من الطيور الجارحة المتأمّلة، يرتدي نظّارتين معدنيتين، حليق الرأس كالقائل بالجوهر الفرد، أشار إلى كرسيّ. خذي مكانك، قال، لقد سُررتُ لرؤيتك، هل أحضر لك فنجان قهوة؟ جلست أمام مرآة وعمد سيزار من دون أيّ تعليق في البداية، إلى تمرير ثلاث من أصابعه خلل شعرها، رافعًا خصلة، رائزًا خصلة أخرى متأمّلاً ممتنعًا عن البوح بتشخيصه. يا إلهي، قال أخيرًا بنبرةِ أسف. هل قصصته بنفسك آخر مرّة؟ هزّت غلوار برأسها متبسّمةً. حسنًا إذًا، قال سيزار. في هذه الحالة سأحاول أن أصلح ما أفسدته، وإلّا سنضطرّ إلى إعادة الكرّة من الأصول؟

ـ من الأصول، قالت غلوار، كما في السابق. اللّون نفسه



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كما في السابق.

كان ينظر مباشرةً في عينيها، في المرآة، وقد وقف وراءها واضعًا يديه برفقٍ على كتفيها. متى كانت آخر مرّة؟ سألها برفق، منذ ثلاث سنوات؟ منذ أربع سنوات، قالت غلوار. كانت عيناه ترمقانها بنظرة عطفٍ محبطة، ثمّ استحالت، في سرّه، نظرة ساخرة. لم يتغيّر فيك شيء على الإطلاق، قال. حسنًا، أقصد إذا استثنينا شعرك بالطبع. ثمّ يمسك بمقصّ.

بمضيّ ساعة ونصف الساعة، كانت الشمس موشكة على الغروب عندما كانت غلوار تجتاز السين سالكة جسر الكونكورد قبل أن تسلك صُعُدًا باتجاه الشانزيليزيه سيرًا على الأقدام. الضوء ناعم أشقر ومثله كانت غلوار. لقد استعادت مظهرها كشقراءٍ فارعة الطول، تسير منتصبة القامة، وما عاد الجنون باديًا عليها، وعاد الرّجال يلتفتون إليها بنظراتهم إذا مرّت بهم.

في شارع تيلسيت، بين سفارة بلجيكا وسفارة زيمبابوي، كان مكتب باردو، للمحامين الشركاء، يحتلّ الطبقة الثانية. موكيت قاتمة اللّون ولوحات تجريديّة عند المدخل. بعد أن طلبت مقابلة الأستاذ لاغرانج، كان على غلوار أن تنتظر بضع دقائق في صالون لا تتردّد فيه الأصداء لشدّة رحابته. بان محامي شاب عصبيّ جدًّا قصير القامة كئيب المظهر مثل إضبارة، وطلب من غلوار بعبارة مقتضبة أن تتبعه حتّى باب مكتبه المبطّن. لكنّه، ما إن أغلق الباب وراءهما، راح يرقص بحماسة حول المرأة الشابة، مائلاً برأسه إلى الوراء ضاربًا هواء الغرفة بذراعيه، صائحًا في سياق الإيقاع نفسه أنّه لم يرها منذ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وقت طويل، وأنّه مسرور للمناسبة، وأنّ شيئًا فيها لم يتغيّر على الإطلاق. فابتسمت غلوار إذ أدركت أنّ الآراء حولها متطابقة.

هدأ لاغرانج تدريجًا، كما قد تكفّ الكُرة العجيبة إذا تُركت عن الارتداد تدريجًا، قبل أن يجلس إلى طاولة مكتبه حيث لبث منطنطًا لبضع دقائق إضافيّة ولكن بوتيرة تنازليّة. حتّى بعد أن خَبَت حماسته، يبقى لاغرانج رجلاً شديد الهياج في جوهره، كأنّه زوّد، على غرار دوناتيان، ببطارياتٍ فائقة القوّة، تثير لديه ما لا يُحصى من التشنّجات العضليّة المتكرّرة في الوجه؛ وبتأثير من هذا الهياج اللّافت تبلى بذَلِه المفصّلة على بدنه بأسرع ممّا تَبْلى لدى سواه. تذكر غلوار أنها، قبل ستّ سنوات، شاركته فراشه أربع أو خمس مرّات: وكان يقضي اللّيل مضطربًا لا يهدأ عن الحركة. الواقع أنّه محام بلا قضايا، ولا يسعى وراء القضايا، فلديه من المال ما يكفيه لكي لا يدبّر سوى عمليّاتٍ غير مضمونة النتائج وغير قيادته سيّارته الأوپل. غير أنّه مستقيم وصادق. مع غلوار على الأقل. فهو الذي يرعى، مجّانًا، ممتلكات المرأة الشابّة ويسهر على مصالحها. يا صغيرتي غلوار، يقول، أنا هنا، أنت تعلمين أنّني هنا لأجلك. أنا هنا. يعرفها منذ طفولتها أو تقريبًا منذ الطفولة، وهو الوحيد الذي يعلم تقريبًا كلّ شيء. على عكس سيزار الذي يطرح الكثير من الأسئلة، ولغلوار مطلق الحرّيّة أن تجيب عنها كما يحلو لها.

ولكن في الوقت الحالي، ما تريده هو أن ترحل.

– إلى أين؟ يسأل لاغرانج.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ إلى أبعد الممكن، قالت.

ـ أبعد الممكن، ردّد لاغرانج ساهيًا. ما عدا نيوزيلندا وأستراليا، لا أرى مكانًا آخر.

عندها توالت في ذهن غلوار، وبسرعة كبيرة، حكايات ألان الأسترالية. الثروة الحيوانيّة؛ الثروة النباتيّة؛ السكّان الأصليّون؛ صائدو اللؤلؤ؛ شرائح اللّحم بالمربّى والفكر البدائي. حسنًا. قالت. فليكن، إلى أستراليا. هل أنت واثقة من أنّك واثقة مما تريدين؟ سأل لاغرانج قلقًا. أجل، قالت غلوار، وأودّ أيضًا أن أحصل على بطاقة هويّة جديدة. جد لي اسمًا آخر.

المال أوّلاً، قال المحامي مستخرجًا عددًا من الوثائق المصرفيّة من ملف غلوار. وقد أسفرت عمليّة التدقيق تلك، أوّلاً عن أنّ عائدات الأسهم والسندات والاستديوات المؤجّرة، تجعل من غلوار صاحبة ثروة لا بأس بها. وثانيًا، عن أنّ هذا الرأسمال قد زاد أيضًا في الآونة الأخيرة، لأنّ المبالغ الشهريّة التي كان لاغرانج يحوّلها إلى البروتاني أقلّ من عائدات استثماراتها. ممتاز. وعليه أجابت غلوار أنّها أوّلاً ستحتاج إلى مبالغ أكبر بكثير خلال رحلتها هذه. وثانيًا لا لم يتغيّر شيء في حياتها، وخصوصًا ليس لها علاقة بأيّ رجل جديد. وأنّ ما ترغب فيه حقًّا هو أن تنتقل إلى مكان آخر. كما أحجمت عن ذكر كاستنه وزيارته لها وما تبع هذه الزيارة. ممتاز.

ثمّ راحا يتداولان في المستقبل الأسترالي. سوف يتولى لاغرانج تدبير كلّ الأمور: بطاقات السفر، تأشيرات الدخول، التحويلات المصرفيّة، الحجوزات، والعنوان البريدي في أحد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

مكاتب البريد. ثمّ، فكَّر مليًّا باسمي الجديد، ذكَّرته غلوار قائلة، وأوراقي الثبوتية. حسنًا، قال لاغرانج، الأمر معقّد كالعادة لكنّي سأتصرّف. ما هي الأسماء التي تحبّينها؟ كما تشاء أنت، قالت غلوار، لك أنت أن تقرّر. حسنًا، أجاب لاغرانج، هل أدعوكِ إلى تناول العشاء؟

بما أنّ بيليار لم يظهر طيلة ذلك النهار، شعرت غلوار بأنّها قد تقبل بأن تحتسي كأس شرابٍ بعد العشاء، وكأسًا أخرى، ومن ثمّ كأسًا أخيرة بصحبة لاغرانج ثمّ كما هو متوقّع في مثل هذه الحال، مَنْي لاغرانج، غير أنّها عادت إلى فندقها في وقت مبكر نسبيًّا، وسرعان ما غرقت في سبات عميق حالمةً بطرف العالم المقابل. متخيّلةً في أقصى أقاصي هذا العالم السفلي ملاذًا يتعذّر الاهتداء إليه، حصينًا، أبعد من أن يقربه أحد. حضنٌ جرابيّ تلوذ به ثمّ قفزة وبعدها قفزة إلى أبعد، دائمًا إلى أبعد نحو أفقٍ أفضل لكي تنسى كلّ شيء حتّى اسمها، كلّ أسمائها.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١١

لن يكون شيءٌ من هذا. ولن ترى غلوار هناك لا حيوان الكنغر ولا الكوال ولا شيء من هذا القبيل. فقط ذات مساء، قد تلمح في أحد مجاري «أكزيبيشن ستريت»، جيفة أوبوسوم ملقية بين الرفراف الأمامي لسيّارة هولدن كومودور وبين الرفراف الخلفي لسيّارة هولدن أپولو.

كانت قد استقلّت رحلة باريس ـ سيدني، عبر سنغافورة وجاكرتا، وهي الرحلة نفسها التي تتابع بعدها إلى نوميا. في تلك الطائرة كان هناك عشرون مجنّدًا من كاليدونيا الجديدة عائدين إلى ديارهم بعد تسريحهم من الخدمة. وداعًا أيّتها الثكنة الرطبة، وداعًا أيّها المناخ القاسي: كان الفتيان يحتفلون بانتهاء خدمتهم العسكريّة ببهجةٍ مردّدين الهتافات والأنخاب والخطب والغناء. فما أن أعيدوا إلى الحياة المدنيّة حتّى استبدلوا زيّهم العسكري بأزياءٍ مغالية في طابعها الإفريقي: إذ استبدلت الشارات والكتفيّات بشاراتٍ وسلاسل للعنق تمثّل إفريقيا، أو ورقة قنّب هندي أو بيتر تورش؛ كما استبدلت القبّعات الخاكيّة بطاقيّاتٍ من الصوف حِيكَت باليد مفلطحة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كأنّها قرص عجّة بيض من أربع وعشرين بيضة، ثلاثيّة الألوان خضراء صفراء حمراء. كانت بهجة العودة إلى الديار تُترجم أحيانًا ببعض الانتهاكات البسيطة. كأن تختلس يدٌ عددًا من كؤوس البوردو والبورغوني أثناء عبور المضيفة بعربة المشروبات، أو، بعد عبور العربة، كأن تربّت يدٌ أخرى بمحبّةٍ على ردفِ المضيفة التي تفاجأ قليلاً ثمّ تلتفت متظاهرةً بالابتسام. هدوء، هدوء، يصيح بنبرة متسامحة ضابطا الصفّ المولجان مرافقة المسرّحين. رويدكم يا فتيان.

كان أحد ضابطي الصفّ جالسًا بجانب غلوار. من مواليد واليس وفوتونا، كان رقيبًا أوّلَ رَبْع البنية مائلاً إلى السمنة يفيض عن مقعده أثناء نومه، لكنّه تحدّث معها قليلاً قبل أن يغلبه النوم. ابتسامة عذبة وعنق ثور، وشارب مياه، كان الرقيب الأوّل قد شارك في كلّ الحملات العسكريّة لبلاده منذ عشرين عامًا: من جزر القمر إلى لبنان، ومن النيجر إلى الغابون، ومن الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر. الضابط الآخر الذي لفت انتباه غلوار على الفور، كان زنجيًّا وسيمًا طويل القامة، ذا نظرةٍ ثاقبة، عرّف عنه الرقيب الأوّل بأنّه ملاكم من الوزن الثقيل في الجيش الفرنسي. موهبة واعدة في فئته. فرمقته غلوار إذًا بنظرةٍ واعدة. إنّ نقل المجنّدين المسرّحين إلى ديارهم يتطلّب مرافقين من مثل هذا العيار، قال الرقيب شارحًا، وإلّا لما توانى هؤلاء الفتيان، نظرًا لإفراطهم في الشراب، عن التسبّب في بعض المشكلات الدبلوماسيّة لدى هبوطهم الموقّت في أيّ مطار.

حان موعد تقديم وجبات الطعام. أكلت غلوار ما قُدّمَ لها



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وشربت ما اختارته من أنواع الشراب حتّى بعد إطفاء الأنوار وبداية عرض الفيلم. كان المسافرون قد وضعوا سماعاتهم على آذانهم، ما عدا غلوار وبعض الآخرين الذين استغرقوا، على هدير المحرّكات، في تصفّح مجلّات وضعوها على رِكبهم. بمضي ساعتين كان الجميع مستغرقين في النوم، وساد الهدوء بين مقاعد المجندين. نهضت غلوار باحتشام من مكانها متوجّهةً إلى المرحاض، ملقيةً في طريقها نظرة خاطفَةً، ولكن متعمّدة، على الوسيم بطل الوزن الثقيل في الجيش الفرنسي، الذي تبعها بعد عشرين ثانية ولبث برفقتها عشرين دقيقة. فيما بعد لن تزور من سنغافورة سوى محال المنطقة الحرّة في المطار، ريثما يفرغ عاملون محلّيّون بلباسهم الأخضر الفاتح من تنظيف الطائرة؛ أمّا خلال الهبوط المؤقّت في جاكرتا فلن تتمكّن غلوار من مشاهدة أيّ شيء على الإطلاق لاستغراقها في النوم.

غالبًا ما تكون المواقيت تقريبيّة خلال رحلات الطيران الطويلة، إذ لا يدري المرء أين موقعه بالضبط وفي أيّ منطقة زمنية. بالمقابل كانت الساعة ناحية البورت دوريه تشير إلى الخامسة تمامًا عندما جاء جوف، عائدًا من العنوان الذي حدّده له صهره، لزيارة سالڤادور. لم يبدُ هذا الأخير مصغيًا كما ينبغي لشدّة انهماكه في صوغِ تِيمَةٍ مركزيّة (شقراوات فارعات ملتهبات وشقراوات فاتنات باردات) لمشروعه.

ـ شخص يدعى لاغرانج، قال جوف. رفض أن يقول لنا شيئًا، ويزعم أنه لا يعرفها، كما أوهمني بأنّه يحافظ على السرّيّة المهنيّة، وأشياء من هذا القبيل. ولكنّي أعلم أنّه يعلم



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أشياء كثيرة. وقد ألجأ معه إلى أساليب مختلفة.

غير أنّ سالڤادور الذي ينتظر رحيل جوف بفارغ الصبر قال: حسنًا، تصرّف كما يحلو لك. وما أن غادر جوف: هل دوّنت كلّ شيء، خاطب دوناتيان قائلاً. فلنتابع.

بعض الشقراوات الفارعات الملتهبات يُقبلنَ على العالم من دون تحفّظ. يتكلّمن بحيويّة، يضحكن بخفّة، يفكّرنَ خطفًا ويشربن صرفًا. ينظرن إلى العالم بفخر، يقابلنه ببسماتٍ مدهشة وسخيّة. أحيانًا يضطرب العالم لرؤيتهنّ، وأحيانًا تُربكه طريقتهنّ الواثقة الجسورة الحاسرة في إقبالهنّ عليه، إقبالهنّ عليكم، وأذرعهنّ مبسوطة لاحتضانكم. يا لبهجة.. يا لخطَرِ بهجة أولئك الشقراوات الفارعات الشمسيّات.

ـ بإمكانك مثلاً أن تذكري اسم كيم نوفاك على الهامش. كم لدينا من صور كيم نوفاك؟

كانت هناك بضع صور لمشهد قبّة الجرس في «فرتيغو»، ومن بينها لقطة من أعلى لبيت السلّم (توليفة من لقطة متحرّكة خلفيّة ومن لقطة مكبّرة أماميّة)، لكن سالڤادور نفسه مفرط الحساسيّة حيال دوار الارتفاع، بحيث أنّ أيّ صورة للقطة من أعلى تسبّب له الغثيان. لا، قال، اعثري لنا على شيء آخر. يكفي لهذا اليوم. حسنًا، قالت دوناتيان، وماذا عن الباردات؟.. ماذا؟ قال سالڤادور. الشقراوات الفارعات الباردات، أوضحت قائلة، لم تعالج إلى الآن سوى الملتهبات. سوف نرى لاحقًا، قال سالڤادور. لا يسعنا أن ننجز كلّ شيء في وقت واحد.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بُعَيد ذلك قد نرى غلوار، وقد بلغت مقصدها، مقيمةً في فندق ناحية دارلنغ هاربور حيث، بموجب تيلِكس من لاغرانج، حُجزت لها غرفة مع شرفة مطلّة من بعيد على خليج سيدني. لكي تبدّد ضيقها الناجم عن فرق التوقيت، نامت في البداية خمس عشرة ساعة متواصلة، ثمّ حالما استيقظت، خرجت إلى الشرفة حيث جعلت تصرف معظم وقتها مستلقيةً على كرسي طويل بصحبةِ بيليار.

بيليار هذا الذي اختفى أثره منذ التحوّل الذي طرأ على شخصيّة غلوار، عاد للظهور مجدّدًا منذ حلولها في هذه الغرفة. إذ تفحّصها من رأسها حتّى أخمص القدمين، صاح قائلاً: آه، من المؤكّد أنّي أفضّلك هكذا. في الأيّام الأولى كان الكائن الضئيل يبدو في تمام عافيته مرتديًا قميصه الفضفاض وسرواله البرمودا مستلقيًا على مرقاة الكرسي الطويل. كان يرتدي نظّارة سوداء على مقاسه، ويقصّ أظافره صافرًا، متأمّلاً الخليج الذي تمخر مياهه متمايلةً قوارب الركّاب الضخمة المعدنيّة القاتمة. حمّامات شمسٍ مع وقاية تامّة.

ذلك أنّ شمس أستراليا ليست كالشموس الأخرى. تلفحك قبل أن تدفّئك، نافثة نار منتقمة حتّى إذا مال الجوّ إلى الطراوة. كما أنّ مسارها ليس مألوفًا: إذ تشرق فجأة، حارقةً كلّ ما تصادفه في طريقها، تغرب في الوقتِ نفسه في غضون عشر دقائق، من دون أصيل ولا شكليّاتٍ أخرى، ثمّ يهبط اللّيل كصخرة. لدى استبدالهم قناني الشراب الباردة، كان العاملون يحضّون غلوار على توخّي الحذر، ينصحونها بأن تحمي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بشرتها، ويعدّلون فتحة المظلة بحسب المقتضى. كانت قلّما تغادر الفندق. وكان كلّ شيء على خير ما يرام.

مع ذلك، وبمضيّ أسبوع واحد على وصولهما، بدا أنّ بيليار بات فاقدًا صبره. وبدا أنّ مزاجه قد تغيّر كليًّا. كان بالكاد يجيب عندما تخاطبه غلوار، ونادرًا ما يدلي برأيه حول الطقس. ثمّ بعد ظهر ذات يوم، نطقَ أخيرًا مُتبرّمًا معبّرًا عن ضيقه بهذه الشمس اللّعينة مقترحًا أن يقوما بجولةٍ في الخارج، وتركِ هذه الشرفة اللّعينة. حسنًا، قالت غلوار. ولكنّ مشكلة الشمس لن تُحلّ في الخارج. كعادته كان بيليار خافيًا عن أعين الفانين من البشر، وما إن سارا، هو وغلوار، مئة متر باتّجاه مرفأ الترفيه حتّى تهالكا على أوّل كرسي تحت أوّل مظلّة صادفاهما بقرب كشكٍ لبيع اللّبن المثلّج. في غضونِ هنيهاتٍ غفت غلوار على الكرسي. ولمّا فتحت عينيها من جديد كان بيليار قد اختفى: بدا أنّه انتهز الهواء الطلق ونوم المرأة الشابّة لكي يتوارى عن الأنظار. كما لو أنّه كان يحتاج كلّ هذه المناورة، قالت في سرّها وهي في طريق عودتها إلى الفندق. . وهكذا إذًا كان عليها أن تقضي الأيّام التالية وحيدة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٢

ـ لِيَرْحمكَ الله، قال برسونيتاز.

ـ إنّي أصابُ بالزكام، قال بوكارا موضحًا، وهو يضغط على منخريه.

ـ إنّنا نهدر الكثير من الوقت، لاحظ برسونيتاز، وهذا ليس في صالحنا.

ـ بالله عليك، صاح بوكارا، البراغي شديدة. ويبدو لي أنّها عالقة بسبب الصدأ.

ـ من المستحسن ربّما أن نستخدم مزيلاً للاحتكاك، قال برسونيتاز، أو القليل من الزيت. أو ربّما مادّة مزيلة للجليد. ألا نعثر على أيّ من هذه الأشياء في صندوق السيّارة؟

اقتصر جواب بوكارا على تكشيرة إضافيّة رافعًا كتفه التي كان قد أعياها ما بذله من جهد. كان بوكارا يضغط بثقله ما أمكنه على مقبض المانيفيل ولكنْ كما لو أن الحزقات كانت ملحومة بالبراغي، مبرشمةً بالسويقات المضلّعة. كان المطر



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

المنهال رذاذًا يمتزج بعرقه الفاتر، مزيجًا حراريًا ذا طَعم يغشى أبصاره، يسيل على عينيه باتّجاه شفتيه: كان كلّ شيء كأنّه أعدّ لعرقلة سعيه لاستبدال العجلة الخلفيّة اليمنى.

ممسكًا بالمانيفيل، كان بوكارا راكعًا أمام إطاره المثقوب الذي تفيض عن حِتاره من الجانبين جيوبٌ رخوة من المطاط. على راحتي يديه المسوّدتين بالشحم منذ أن أمسك بالرافعة ظَهَرَتْ بعض النَفَط. كان الشاب يضغط بثقله كلّه على الأداة، ويعتليها منتصبًا، أحيانًا راكلاً بقدميه لكي يحلّ البراغي العالقة ولكن عبثًا: إذ ذاك كان يفلت المانيفيل من البرغي ويُقذَفُ بعيدًا محدثًا طقطقة مدوية، ويضطر بوكارا إلى البحث عنه وإحضاره شاتمًا مبعثرًا العدّة المتروكة بجانبه.

كانا، هو وبرسونيتاز، على قارعةِ طريق سريعة ذات ستة مسالك ـ خطّين في وجهتين متعاكستين، ولكلّ منهما ثلاثة مسالك، يفصلهما حاجز مغروس بأجناسٍ من النبات السباتيّ، ومحاط بدرابزين مزدوج ـ، معزولة عن العالم بسياجٍ تتطاير بين زرداته خِرقٌ من مادّة بلاستيكيّة، ومن قماش وورق، متّسخة مدعوكة ملتصقة بسافلاتِ الأعمدة. ووراء هذا الحدّ يترجّح العالم بين أرضٍ بور وورش بناء. ولا أثر لكائن حيّ سائرٍ على قدميه.

تحت ضوء مكفهرّ، كان سالكو الطريق السريعة قد أشعلوا مصابيح سيّاراتهم أبكر ممّا هو معتاد، ما جعل النهار أشدّ إعتامًا. نُعاءُ السيّارات العابرة مسرعةً، وهينمة مطّاطِ إطاراتها على التكسية الزَلِقة، رشقاتٍ متقطّعة وقشعريرة تسري في الظهر. كان يوم ثلاثاء، الساعة الثانية عشرة ظهرًا إلّا عشر دقائق.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كان برسونيتاز واقفًا وراء بوكارا، حاملاً مظلّة خفيفة، محاولاً أن يقي نفسَه، وبوكارا، من المطر ـ غير أنّ سعيه هذا لم يكن ناجعًا لضيقِ واقية المظلّة التي تعصف بها الرياح، وتقلبها أحيانًا، فلا تقي في الأغلب سوى بقعة ضيّقة بينهما وقد بلّلهما المطر. أتريدني أن أحاول؟ كان برسونيتاز يقترح بين الفينة والفينة. فيجيبُ بوكارا: لا، لا داعيَ لذلك.

لا ندري إذا تلقّيا مساعدة من عابر سبيل ذي نخوة، غير أنّ جهودهما لا بدّ أن تكون قد أثمرت أخيرًا، لأنّهما، بمضيّ ساعتين من الزمن، كانت سيّارتهما تسير مجدّدًا مضاءة المصابيح على المسلك الأيسر. أصابع بوكارا تترك أثرَ شحم أسود أينما حلّت داخل السيّارة، أثرًا غير مرئي على المقاعد والمقود لكنّه ظاهرٌ على ياقة قميصه وجبينه وخدّيه وأجفانه وأنفه.

في طريق عودتهما الخائبة من مهمّة لم تسفِر إلّا عن العثور على منزل غلوار مهجورًا، لبثَ الرجلان صامتين: كان بوكارا صامتًا بسبب حَرَده، أمّا برسونيتاز فلم يؤثر عنه يومًا أنّه كثير الكلام. كان الراديو يذيع النشرة الإخباريّة التي بلغت فقرة أحوال الطقس. وكان معدّ هذه الفقرة مسترسلاً في تحويل الطقس الرديء البادي من وراء الزجاج، إلى أرقام وحسابات. وإذ بدا المكابد الأوّل لهذه التقلّبات المناخيّة التي يندّد بها، فإنّ صوته المضطرب المأخوذ كان خير ضمانة لصحّة مزاعمه.

كان بوكارا المنهوك، يرتعش في بذلته المدعوكة. طعم رديء في فمه كأنّه خارجٌ للتوّ، متّسخًا مجعّدًا، من ليلة أرقٍ طويلة في وضحِ النهار. نظرًا للإحباط الذي ألمّ به حيالَ ضيق



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

رقعة العالم، أراد أن يستردّ بعضًا من شجاعته على مسافة ثلاثين كيلومترًا من باريس. على الرّغم من أنّ برسونيتاز يوحي له برهبة غريبة، فلربّما أراد أن يعبّر عن سبب ضيقه، لذا خفض صوت الراديو ثمّ:

ـ وماذا عن الفتيات، قال مبتسمًا من دون بهجة، هل تتاح لك الفرصة غالبًا، أثناء العمل؟

غير أنّه لم يلحّ عليه بالسؤال. كان الآخر ساكنًا صامتًا يحدّق في نقطةٍ ما أمامه بثباتٍ، بادي الضيق أو الغمّ أو الألم، إذ لا سبيلَ لوصف مشاعره بدقّة: فإمّا أنّه معكّر المزاج جدًّا وإمّا يائس ببساطة. كانت الأفكار السّوداء بادية على سمات وجهه، ولكن لا أحد يعلم ما هي بالضبط. ولأنّ بوكارا لم يجرؤ على التمادي في سؤاله، ظنّ أنّه يسعه التسرية عنه بحديث حول الموضوع نفسه. ماذا يفعل هو، بوكارا نفسه، على سبيل المثال، لجذب النساء؟

ـ الأمر غاية في البساطة، أجاب نفسَه بنفسِه قائلاً. أجلس وحيدًا على شرفة مقهى وأطلب كوبًا من البيرة، وألبث واجمًا رصين المظهر. هذا أسلوب لا يفشل على الإطلاق. ففي غضون نصف ساعة لا بدّ أن تأتي فتاة وتجالسك. ومن هناك أنتَ وشطارتك.

من دون أدنى تعقيب، رمقه برسونيتاز بنظرةٍ، نظرة خاطفة مركّبة الدلالة حيث خليط من الحسد والشكّ والاستنكار تتربّص ببعضها بعضًا. ثمّ أعاد صوت الراديو كما كان في السابق: شوستاكوفيتش: لكن بوكارا لم يُفرّج بعد عمّا يعتمل في


Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

صدره. أصغيا إلى شوستاكوفيتش، ليس رديئًا على الإطلاق، لا بل لديه رباعيّات جيّدة جدًّا. ثمّ حالَ وصولهما إلى باريس، ناحية الأوبرا، أوقف برسونيتاز السيّارة قرب كشك للهاتف. انتظرني، قال وهو يفتح باب السيّارة، يجب أن أطلع الزبون على المستجدات.

نحو الثانية وبضع دقائق بعد الظهر كانت السماء قد انقشعت، وعاودت المحال فتح أبوابها، وبدت الناحية مكتظّة بالبائعات العائداتِ من غداء قليل السعرات الحراريّة، متأبّطات قناني المياه «كونتركس» من الحجم الكبير: عدّل بوكارا درجة انحناء مسند مقعده لكي تكون جلسته مريحة خلال انصرافه إلى تأملهنّ عائداتٍ لاستئناف أعمالهنّ.

غير أنّ سالڤادور الذي استلم لتوّه «السندويش كلوب» وقنّينة البيرة مستعينًا بخدمة المكاتب، لم يكن راغبًا في الردّ عندما رنّ جرس الهاتف. تحت أنظاره كان ملف الشقراوات الفارعات مفتوحًا عند الفقرة الحسّاسة التي تتحدّث عن الشقراوات المصطنعات. حسنًا، قال بنبرة متعجّلة، أجل، إذًا أخفقتما؟ أنا لا أدري، تحدّث إلى جوف. وضع السمّاعة بسرعة خاطفة لكي لا يفقد تسلسل أفكاره، ساعيًا لتعميق الفكرة، متفكّرًا بصوتٍ مسموع. في الأثناء، كانت دوناتيان عند الطرف المقابل من الطاولة، تدوّن ما يمليه عليها، وتعرض، في الوقت نفسه، على شاشة علّقت على الجدار، صورًا لستيفان أودران وآنجي ديكنسون ومونيكا فيتي لاستثارة أفكار سالڤادور. سالڤادور الذي توقّف في استراحة قصيرة بسبب المخابرة التي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

شوّشت أفكاره. ثمّ:

ـ كلّ شقراء معرّضة ذات يوم للارتيابِ في كونها شقراء مزيّفة. جميعهنّ يعرّضنَ أنفسهنَّ لهذا الشكّ، وجميعهنّ يخاطرنَ في أن يُشتَبَه بأنّهنّ مصطنعات. والحال أنّ الشقراء المزيّفة قد تكون أحيانًا أكثر إقناعًا وأكثر تمثيلاً من شقراء حقيقيّة، فما رأيك أنت؟

لَكنّ دوناتيان لم تكن في ذلك اليوم راغبةً في التفكير ولا حتّى في الكلام على جري عادتها.

ـ هذا أمر قابلٌ للنقاش، قالت، أيسعك الدخول في مزيدٍ من التفصيل؟

ـ أعتقد، قال سالڤادور. سوف أعود إلى هذه النقطة. دعينا نتابع الآن. الشقراء المزيّفة هي إذًا فئة خاصّة. نمط على حدة. ما لا ينطبق على السمراء المزيّفة. وبأيّة حال يمكن القول إنّ السمراء المزيّفة من الحالات غير المحتّمة، فلا سبب لوجودها في الأصل. إنّها لا تخلق الحدث كما قد تفعل شقراء مزيّفة اختارت لونها لهذا الغرض بالذات. إذًا الصبغة لا تكون فضائحيّة إلّا في اتّجاه واحد، هل اتّضح لك ما أقول؟

ـ إذا شئت، قالت دوناتيان متثائبة. هيّا أكمل.

لقد رأيت إحدى العابرات من هنا، قال بوكارا حالما صعد برسونيتاز إلى السيّارة، آه لو رأيتَ أسنانها عندما تتبسّم، كم تبرق أسنانها. أسنان بمثل هذا البياض الساطع، أقسم لكَ، كأنّها حقًّا حُجْرة استحمام. هيّا، انطلق، قال برسونيتاز. أرجو



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

المعذرة، قال بوكارا. ثمّ سلكا، عبر محطة سان لازار، باتّجاه حيّ أوروبا حيث النور يذكّر غالبًا بأوروبا الشرقيّة، وحيث الشوارع سالكةً أكثر ممّا هي عليه في أحياء أخرى؛ ومن مساحاتٍ أكثر انفراجًا تهب نسائم طراوة حتّى في أوقات الحرّ، وحيث للضجيج رنين أصداء كأنّه يتناهى من بُعد. بعض هذه الشوارع، من بين أكثرها انغلاقًا، يحافظ على مدار السنة على أجواء العَطَلِ أو أزمات التقنين: مثلاً، هذا العدد الكبير من الأماكن الشاغرة أمام مكتب جوف حيث بوسع المرء أن يركن سيّارته من دون مشقّة.

بموازاة هذا المكتب، مكتب آخر أكثر رحابة كان مقرًّا لجمعيّة نسائيّة تتنافس كلّ المنتسبات إليها في روعة جمالهنّ. عندما دخل برسونيتاز وبوكارا إلى ردهة الاستقبال، بدا أنّ جمعيّة عموميّة تعقَد فيه، فاسترقّ بوكارا النظر خلل الباب المفتوح قليلاً. هيّا، تقدّم، قال برسونيتاز. أرجو المعذرة، قال بوكارا. كان جوف ينتظرهما ليطلعاه على المستجدّات. أعلماه بفشلهما. هذا لا يدهشني، قال، من المؤكّد أنّها غادرت خلسة. في النهاية هذا أمر مؤسف. سنحاول بأسلوب آخر. سيتعيّن أن نزور أحد الأمكنة، سأشرح لكما فيما بعد، ولكن ينبغي أن يتمّ ذلك بقدرٍ من التكتّم، إذا كنتما تفهمان ما أقول. أجل، قال برسونيتاز، أفهم تمامًا ما. بُعَيْد ذلك، كانا عائدين أدراجهما، ومعهما عنوان لاغرانج، عندما بلغت الجمعيّة العموميّة للنساء الفاتنات ذروة النقاش الدائر فيها. وفي أجواء عصيان طُرح بحماسة الانتقال إلى التصويت. ماذا نفعل، سأل بوكارا، هل نذهب فورًا؟ لِمَ تسأل، أجاب



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

برسونيتاز، ألديك ما تفعله غير ذلك؟

هو ذاته بمضيّ هنيهات أخرى، في شارع تيلسيت:

ـ أتريدني أن أحاول بدوري؟

ـ لا داعي لذلك، قال بوكارا.

كان برسونيتاز واقفًا وراءه منذ بعض الوقت، حاملاً مصباح جيبٍ بيده، ومحاولاً، ما أمكنه، أن يوفّر بعض الإضاءة لبوكارا المنهمك في ما يفعله. غير أنّه لا ينجح في مسعاه تمامًا. ذلك أنّ وقوفه ساكنًا لفترة طويلة أوهن معصمه ما جعلَ حزمة النور مهتزّة في بقعةٍ وسطٍ بينهما فما عادا يريان شيئًا. عندئذ خاطبه بوكارا منبّهًا، فعدّل برسونيتاز من اتّجاه المصباح وأمسك به بيديه الاثنتين. كانت الساعة قاربت منتصف اللّيل وعشر دقائق، أي أنّ الثلاثاء استحال أربعاء.

ما زال قدر من الرطوبة يسود الجوّ في الخارج. وعلى نوافذ حجرة مكتب لاغرانج العالية، كان المطرُ الذي استحال رذاذًا خفيفًا أشبه بالضباب ينهمر بين الفينة والفينة على الزجاج ويضربها برفقٍ كما تخلّف الأمواج الخفيفة ثنياتٍ على سطح الرمل. من شارع تيلسيت كان يتناهى صخب المرور المتقطّع، ولكنْ المستمرّ، منتصف ليل ساحة الإتوال، بعيدًا عن الهالة المكتومة للجادات المحيطة، صفّارة إسعافٍ هنا، منبّه سيّارة هناك. لا يسع المرء إلّا أن يصغي إلى كلّ هذا، ولا شيء يُرى أبعد من بقعة الضوء التي يرسلها مصباح الجيب. عبر الباب المفضي إلى حجرة المكتب، تلوحُ، عابرةً، ومضات المصابيح، مبرّزةً بالكاد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أشكال قطع الأثاث من دون أن تنير شيئًا.

كانا قد دخلا إلى الحجيرة الملحقة بحجرة مكتب لاغرانج الفسيحة، وهي عبارة عن نطاق مغلق من دون نوافذ مساحته خمسة أمتار مربّعة. فاكس، وحافظات معدنيّة وآلة استنساخ ومغسلة، وخزنة من طرازٍ قديم: كان بوكارا راكعًا على الموكيت أمام الخزنة. وكانت أعداد من الملفّات مكدّسة فوق هذه الخزنة وتتساقط منها بعض الأوراق الرقيقة جدًّا، وبقرب بوكارا وضعت حقيبة يدٍ صغيرة تحتوي أدواتٍ ضئيلة الحجم، مخارز وبنسات ومجسّات، وجهازًا أكبر حجمًا له شكل المحجمة بالإضافة إلى سمّاعة طبيب. كان بوكارا يضع السمّاعة أحيانًا على أذنيه مصغيًا إلى حركة الآليّة الداخليّة وهو يعدّ أصوات الفصّال، مرتعدًا بعض الشيء. مرتعدًا أحيانًا بحيث يخطئ في حركة ما، فيضطر إلى معاودة حساباته، لكنّه أيضًا يتصبّب عرقًا بمقدار ما تسري الرعدة في أوصاله، إذ تنزلق أصابعه الرطبة عن العتلة الزَلِقة، هذا إذا أغفلنا وجود الآخر وراءه، الآخر الذي يخفض ضوء المصباح في اللّحظة غير المناسبة: كانت كل العوامل معاندةً لنجاحه في فتح الخزنة.

الآخر وراءه، إذ انحنى من فوق كتفه، لاحظ كمِّيَّة العرق التي تتصبّب من جسم مساعده.

ــ كان ينبغي لك أن تحضر معك بعض المناديل، قال، هل أنت واثق من أنّ الحقيبة لا تحتوي على مناديل؟ ألم تحضر كلينكس من أجل زكامك؟

ــ لا، قال بوكارا حانقًا، لا، لا. ولكن تبًّا، كم تنزلق



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الأشياء من يدي. يا إلهي، إنّه أمر لا يصدّق.

وإذ توقّف قليلاً لاستدراك أنفاسه، كظمَ عطسة براحة يده.

ـ عليك بالهدوء، قال برسونيتاز، أنت تهدر وقتك.

ـ أشعر بأنّ هذا الزكام سينتقل إلى شِعَبي الهوائيّة، نَشَقَ بوكارا قائلاً، أرى ذلك كما أراك الآن. بعد ذلك سأعاني من التهابِ الشِعَبِ لشهور. فبمَ تجدني ترحمّاتك!



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٣

بعد تواريه بلا استئذان لم يظهر بيليار مجدّدًا. لم تكن غلوار حزينة لغيابه، غير أنّها افتقدت أحاديثها معه أحيانًا. فيما عدا ذلك كان الصحو المتمادي هو السّائد على أنحاء المحيط الپاسيفيكي الجنوبي.

ذلك الأربعاء طلع الصباح، كعادته، على نحوٍ مباغت. دوش سريع وفطور على عَجَل، وعلى عَجَلٍ غادرت المرأة الشابة الفندق. توزيع جديد أوركسترالي لموسيقى الروك أند رول كانت تصدح مشوّشةً، ولكن برفق، في حجرة المصعد، وغادرت غلوار الفندق تحت شمسٍ حامية. سلكت جسرَ بايرمونت، المخصّص للمشاة، حتّى الأكواريوم الكبير. ثمّ على بعد خمسمئة متر من هناك ينتصب مبنى شُيّد بأسلوب الهندسة الإنكليزيّة التعارضيّة ـ صالات عرضٍ فاخرة مزدانة بالثريّات وأعمدة دربزين، ونحاسيّات وواجهات زجاجيّة ضخمة، ونجود ولوحات ومنحوتات ـ وفي الجهة المقابلة ينتصب تمثال شاحب، من الرخام، للملكة ڤيكتوريا. صعدت غلوار، بواسطة السلّم الكهربائي، إلى الطبقة الأخيرة وجلست إلى منضدة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

خفيضة ملتصقة، عموديًا، بقضيب سانِدٍ مُبرنق، بجانبِ محلّ للوازم الأعراس سُمّيَ «السّماء السابعة». من هناك كانت عينها تغوصُ في تأمل ثلاث طبقات من صالات العرض الفنّيّة، ووكالات مصمّمي الأزياء العالميين، وبوتيكات البضائع الفاخرة، والأنتيكا الحديثة العهد والتذكارات الغامضة.

ما إن جاءها نادلٌ مزوّدٌ بواكمان بما طلبته ـ قهوة؛ منفضة ـ، لاحظت غلوار حركة المخطوباتِ، جيئة وذهابًا، حول «السّماء السابعة». شابّاتٌ وغير شابات تمامًا؛ لم تكن المخطوبات تأتين بمفردهنّ، بل مصحوبات على الدوام بوصيفة ـ أمّ، صديقة حميمة، أخت، أو أختَ الخطيب الذي يحتسي، بعيدًا، آخر أكواب البيرة بصحبة رفاق صباه طوال فترة العدّ العكسي. كانت الوصيفات يجلسن على كنباتٍ من الجلد الأبيض يبذلنَ ويتصفّحنَ النصائح والكتالوغات. وكانت المخطوبات يَظهرنَ بالأحرى في مظهر الواثقات من أنفسهنّ خلال قياس الأثواب. منهنّ من لديها فكرة غائمة عمّا تريد؛ ومنهنّ من يبقين متحفّظات باردات ربّما على سبيل المداراة لمشاعر دفينة، وأخريات يدارين خجلهنّ من إظهار فرحتهنّ؛ لا يمكن القول بالإجمال إنّهنّ قبيحات أو متحذلقات، والدليل على ذلك أنّهنّ وجدن من يطلب يدهنّ للزواج. كانت غلوار تشاهدهنّ عبر الواجهة الزجاجيّة يتّخذن الأوضاع الملائمة لأثواب العرس، ثمّ لمّا انتصفَ الصباح وفرغ المحلّ من زبائنه، دخلته.

غلالات من الأخضر الباهت، من الزهريّ الباهت، بُسُطٌ من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

البنفسج الأرجوانيّ، ومن اللؤلؤ. ديكورات عرضٍ من القطيفة والساتان محمّلة بالقبّعات والعقود والأحذية التي تعكسها، أضعاف أعدادها، مرايا محمولة على منصّاتٍ وذات أطرٍ من خشبٍ منقوش. من بين العلّاقات الحاملة مواكبَ من الأثواب الساطعة البياض، الراغية الفوّارة، اختارت تصميمًا كلاسيكيًا؛ ثوبًا ذا خصر عالٍ جدًّا، طويلاً ذا ثنيات جانبيّة، مقوّرًا على شيء من الاحتشام غير حاسرٍ لا يكشف زاوية ياقته المفتوحة إلّا عن الناخرتين أعلى الصدر. دخلت حجرة القياس الضيّقة.

بسحر ساحر خرجت منها بلمح البصر، مشتملةً بثوبٍ هائل، يتبعها موكبٌ من البائعات حاملاتٍ خلفها أمتارًا من أذيال الطرحة ـ على غرار مشعوذٍ ذي قبّعة عالية يستخرج من قبّعته حمامة هاربةً من هرّ هاربٍ من كلابٍ تتبعها خيول وجمال وأفيال تتوجّه بِدَعَةٍ نحو الكواليس مطلقةً رغاءها ومواءها ونهيمها، متغوّطةً في سيرها، ثمّ موكب من الناس في أزياء الأقاليم المختلفة مستعرضين صفوفهم رافعين أيديهم تحيّةً للجمهور على وقع الهتافات، ملوّحين بقبّعاتهم وراياتهم، مسبوقين بجوقات البوّاقين متبوعين بجوقات المنشدين ـ، أي أنّها بالإجمال بدت في مظهرٍ زريٍّ، تتدلّى منها بطاقات الماركة والأسعار، معتليةً كعبين عاليين أبيضين، متمايلةً كأنّها فاقدة توازنها.

بعد ذلك قد تستسلم غلوار لعناية البائعات لضبط الثوب على مقاس جسدها، وتسوية الخصر، وملاءمة الكتفين، وربط شرابة عند أسفل الظهر، وعقد أرطنسيّة من الدانتيلّا البيضاء على النحر، وتزيين شعرها بتاج من الورقيات الصنعيّة، وبسط



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الغلالة على وجهها، وتسوية تهدّلات القماش، وتمليس الثنيات، شوبك الدبابيس في كلّ اتّجاه ووسم الكلّ بثلاثة صفوف من اللّؤلؤ. بعد الفراغ من ذلك، ربّما خطت، حبيسة ثوبها، خطوة حذرة، أو انحنت توقيرًا لصورتها، عروسًا عازبة في المرآة. حسنًا، قالت، سأقرّر لاحقًا.

بعد أن ارتدت ملابسها، قضت غلوار فترة بعد الظهر على متن أحد مراكب الفيري التي تنقل الركّاب من المرفأ الدائريّ إلى مانلي، ثمّ عادت إلى فندقها حيث تناولت عشاءها، ولمّا لم تكن راغبةً في النوم باكرًا، زوّدها موظّف الاستقبال، بسرورٍ بالغ، بعنوان إحدى العلب اللّيليّة حيث يسعها أن تدفن ليلتها.

اهتدت من دون مشقّة إلى الملهى اللّيلي الذي يرتاده غربيّو النصف الشمالي من الكرة الأرضيّة، ومن بين هؤلاء عدد لا بأس به من غربيي النصف الشمالي السكارى، ومن بين الأخيرين سويسري طويل القامة نحيلها، ذو ابتسامة حزينة تحت شاربين، عند البار، بالإضافة إلى عازف أرغن في خلفيّة المشهد. من وراء ضباب الأحاديث، كما من وراء مسقط مياه، كان الأرغن الهاموند يصدَحُ خلسةً بأنغام دبِقَةٍ، بين حُجُجٍ مشوبةٍ بالخُنّة تخالطها نوبات سعالٍ، وهبّاتٌ من الحرّ الخانق. السويسريّ الذي يُعنى بقضايا البيئة، قدّم لغلوار كأس شمپانيا محلِّيَّة ثمّ جرت أحاديث، أو في الأقلّ عمد السويسريّ إلى رسم صورة كئيبة لأستراليا: المزيد فالمزيد من السيّاح على الأرَض، والأقلّ فالأقلّ من الأوزون في الجوّ: والظاهر أنّ لديه هنا الكثير الكثير ممّا يُعنى به في نطاق اختصاصه.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لم تكد غلوار أن أفرغت كأسها حتّى سارع الرّجل، من دون أن يقطع مناجاته، إلى طلب كأس أخرى، ثمّ أعاد الكرّة مرارًا. كانت غلوار تتبسّم، كثير من الناس كانوا يتبسّمون، وكان الأرغن يواصل ختّه، مطلقًا ألحانًا عشوائيّة أو جاهدًا في إطلاقها كدابّة حَرْث. عودة اللابرادور؛ كان السويسري قد انتقل الآن إلى عرض وجهة نظره بشأن مصير حيوانات الفقمة في «اللابرادور»، التي تتعرّض للإبادة الجماعيّة لكي تُصنع من جلودها البوابيج وعلّاقات المفاتيح، وخصوصًا دمى صغيرة مركّبة على هيئة فقمة اللابرادور. بدورها بدأت غلوار تشعر بخدر الثمالة وترى العالم من خلال زجاج، وقد تبلّد كلّ إدراك لديها، كما تَبْرُد الحرائق إذا عبرت شاشة التلفزيون. وعندما اكْمَدّ الزجاج وأَغْبَشَ، حانَ وقت الرحيل. كان هذا الرّجل السويسري غايةً في اللّطف ولكن لا، ليس هذه اللّيلة، قد تعود في اليوم التالي لترى إذا كان لا يزال هنا. نهضت غلوار بحرصٍ وشكرت الرّجلَ ثمّ غادرت الملهى.

لدى خروجها كان السكون في الشارع أشبه بالسكون الذي نصغي إليه كصوت. وإذ لاحظت بارتياح أنّها تسير بقدر من الاتّزان والاستقامة، وأنّها تقرأ بوضوح أرقام ساعتها التي تشير إلى الثانية بعد منتصف اللّيل، كان لغلوار أن تؤثر العودة سيرًا بدل أن تستقلّ سيّارة أجرة. ذلك أنّ الملهى اللّيلي لا يبعد سوى بضعة مفارق عن الأكواريوم، ومن هناك قد يسعها أن تبلغ الفندق عبر جسر بايرمونت. وكان من شأنها ألّا تصادف في مثل تلك الساعة عابرين كثرًا في طريقها إلى الأكواريوم، وألّا تصادف نَفْسًا على الإطلاق لدى عبورها جسر بايرمونت.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

المؤسف، أنّها، بلى، صادفت أحدًا: بعد أن سلكت الجسر بهنيهات، إذا بنَفْسٍ بعيدة تسلك الجسر من الطرف المقابل. في البداية لم تكن واضحة للعيان، وإذا اقتربت شيئًا فشيئًا اتّضح أنّها نفسٌ على مشارف الخمسين عامًا، قويّة البنية، ترتدي زيًّا أزرق غامقًا: الجنسُ مذكّر. يتقدّم الرّجل متمهّلاً إلى يسار غلوار التي تواصل سيرها إلى يمينها مُغضيةً. وإذ يصبحان على وشك الالتقاء وجهًا لوجه ينحرف الرّجل مقبلاً نحوها على نحو مباغت ويخاطبها بعباراتٍ لم تفهم معناها. لم تكن غلوار في يومٍ من الأيّام بارعةً في تعلّم اللّغات الأجنبيّة. وبالكاد أتقنت من الإنكليزيّة ما يتقنه منها أي حمّال أمتعة في نُزلٍ حقير، لذا لا يسعها أن تجري محادثة فيها، وخاصّة في ساعة مثل هذه، ونظرًا لحالتها الراهنة، بالإضافة إلى غرابة اللّكنة الأستراليّة. إذ تهزّ برأسها ـ don't speak English ـ حاثّةً خطاها، يستدير الرّجل عازمًا على اللّحاق بها، سائرًا بموازاتها مُردّدًا العبارات نفسها ولكن في صيغة سؤالٍ هذه المرّة وبإلحاح، ثمّ لم يلبث أن أمسك بذراعها. تسرع غلوار في سيرها، هازّة برأسها ـ leave me alone ـ وتحاول أن تفلت من قبضته بنظراتٍ ترمقه بها حانقة ثاقبة. عندئذ يمسك الرّجل بكتفها ويرغمها على التوقّف، ثمّ بعد أن يجذبها لتقف أمامه وجهًا لوجه، يمسك بكتفها الأخرى.

تحاول غلوار أن تقاومه غير أنّ الرّجل يمسك بها بقوّة، ويجذبها نحو شخصِهِ العريض المتصبّب عرقًا متراجعًا نحو الدرابَزون. وإذا بغلوار تخونها قواها، ويستبدّ بها الهلع الذي يمنعها حتّى من الصراخ في هذه الناحية المقفرة بأيّة حال،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وتكاد أن تختنق من عرق هذا الرّجل وأنفاسه، عاجزةً عن التصدّي إلّا بعبارات حانقة مكتومة، قاصرة عن تغيير مجرى الأمور. كان الخَطَرُ داهمًا عندما انتصب بيليار فجأةً، كأنّه ظهرَ من لا مكان، على كتف المرأة الشابّة، وراح بسحنته الحاقدة يطلق صراخًا مرعبًا. دمّري هذا الوغد، يصيح بيليار قائلاً، اقتلعي خصيتيه. اقتلعي عيني هذا المغفّل.

لن تعلم غلوار في يومٍ من الأيّام إذا كان الرّجل قد شعر بتدخّل بيليار القتالي. غيرَ أنّ هذا لا يلغي حقيقة أنّه يبدو، لهنيهاتٍ، مخيّبًا، فاقدًا توازنه ثمّ يحكمُ قبضته مجدّدًا عليها، بضراوة، مسترسلاً في إطلاق عباراته المقتضبة التي يسعها من دون عناء، وإن لم تفهمَ حَرْفَها، أن تخمّن ما قد تنطوي عليه من معنى. قدرة بيليار تكمن في تجديده الخلايا ومضاعفة الطاقة: إذ سرعان ما يواجه الرّجل مقاومةً متجدّدة وهجومًا مضادًّا مباغتًا، ويُرمى به أرضًا على نحوٍ فجائي ويصطدم رأسه بقوّة بالحافة. يصرخ، يحاول أن ينهض، ربّما للإعلان عن هدنةٍ لتكافؤ الطرفين: لعلّه ما كان ليصرّ على مصارعة هذه المرأة ذات القوى المضاعفة لو لم يستمرّ بيليار، متقافزًا فوق كتفها، في تحريض غلوار التي تعين المعتدي على الوقوف على قدميه مجدّدًا. وقبل أن يتسنّى له أن يلوذ بالفرار تدفعه بقوّة ليصطدمَ بالدرابزون ثمّ تصفعه بقوّة، مرّة ومرارًا، فإذا بنظرات الرّجل مترجّحة بين الألم والذهول ولا يلبث أن يُرخي بثقله على المرأة الشابّة مستسلمًا كأنّه يقول حسنًا، اتّفقنا، فهمتُ الآن، فلنكفّ عن ذلك.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كان ممكنًا أن تنتهي الأمور عند هذا الحدّ. وكان من شأن غلوار أن تدع الرّجل وشأنه لو أنّ بيليار لم يواصل الصراخ في أذنها ويحرّضها على القضاء على هذا الرّجل وتمزيقه إربًا. فإذا بها بصفعة أخيرة تجرح كتف الرّجل جرحًا بليغًا، وتلوي ذراعه خلفَ ظهره حتّى تكاد أن تكسرها لكي تجذبه بعد ذلك نحو الدرابزون، ثمّ ناخرةً بقوّة كحيوان مفترس تقذف به، بضربة من كتفها، من أعلى الحاجز إلى الأسفل. مذهولاً، جاحظ العينين، يهوي الرّجل من دون أن يفهم شيئًا ممّا يجري له، ويحولُ ذهولُه حتّى دون أن يفكّر في الصراخ. في الأسفلِ، بعد سقوطه من علو عشرين مترًا، يبتلعه خليج سيدني بصمت. برغم كلّ شيء، من حسن الحظّ، طبعًا، أنّ بيليار يؤدّي بعض الخدمات من وقتٍ إلى آخر.

بمضيّ عشرين دقيقة كانت غلوار قد عادت إلى الفندق مرتعدة من الحقد والإثارة والخوف، وكأنّ جسدها تعاظم حجمه بفعل هذه الطاقة التي تخلّلتها فجأة؛ احتست كأسين من الويسكي تباعًا، فإذا بالأمور تتّخذ معنىً معاكسًا: جعلت غلوار تنتحبُ، ذارفةً دموعها، خائرةً على طرف السرير، يائسة من ميلٍ لديها لا يقاوم إلى قذفِ النّاس من النوافذ أو من أعلى جرفٍ أو من على الجسور. كان بيليار الجالس بقربها ينظر إلى حالها متفكّرًا. هيّا، هيّا، قال بنبرةٍ مؤاسية. في البداية لم تكن غلوار قادرة على الكلام:

ـ لم يكن الأمر ضروريًّا، قالت منتحبة، لم نكن مضطرّين إلى فعلٍ ما فعلنا.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ انسي، قال بيليار، دعكِ من هذه الهواجس. أحيانًا نضطرّ إلى القيام بأمورٍ لكي نعطي الناس درسًا. على كلّ حال ليس لنا أن نخشى أيّة عواقب، ومع ذلك ربّما كان من الأفضل أن نرحل. سوف أسأل عن مواقيت الطيران ليوم غد. أمّا أنتِ، فينبغي لكِ أن تنامي الآن، أليس كذلك؟

ـ لن أقوى على النوم، قالت المرأة الشابّة.

ـ أحسب أنّكِ لن تفعلي حقًّا، قال الكائن الضئيل. ماذا تبقّى لديك من عقاقير؟

ذهبت غلوار لتحضر حافظة أقراصها المنوّمة، فاختار بيليار من بينها مزيجًا فعّالاً، وعلى الأثر سكنت عاصفة المشاعر، ونامت المرأة، وبدا أنّها اطمأنّت أخيرًا، فيما عروق صدغيها الزرقاء تنبض بِرِفق. كانت تحلّق بعيدًا عن العالم، لعلّ شيئًا لم يحدث حقًّا.

لكن في صباح اليوم التالي، عندما أطلقت خدمة إيقاظ النزلاء رنين الهاتف باكرًا بعض الشيء، لم يظهر أثر لبيليار في الغرفة. ولا حتّى ظلّه. لا أحد. ما حدا بغلوار إلى التفتيش عنه تحت السرير. ومع ذلك لم يكن بعيدًا جدًّا: فلدى خروجها من الدوش، لم تكن حجرة الاستحمام سوى كتلة من البخار الكثيف. وكانت إصبع بيليار لضآلتها قد خطّت بحرفٍ دقيق على المرآة المغبّشة عبارات سيدني ـ بومباي عبر هونغ كونغ، الرّحلة ١١٢ الساعة ١٠ والدقيقة ٣٠ على متن طيران «كاثاي باسيفيك». ثمّ بعد أن دوّنت هذه المعلومات على طرف مغلّف، عادت إلى حجرة الاستحمام لترتدي ملابسها فوجدت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أنّ الغبش قد زال: عادت المرآة صفحةً عذراء.

لكن بمضيّ ساعة واحدة كانت في مطار «كينغسفورد سميث»، ووجدت بالفعل حجزًا باسمها في الدرجة السياحيّة، قسم المدخّنين، لجهة النافذة ــ واتّضح لها أنّ بيليار قادر فعلاً على القيام بشتّى أنواع الخدمات. عند الساعة العاشرة صعدت غلوار إلى الطائرة المتوجّهة إلى بومباي مرتدية طقمًا من الكتّان البيج مستوحى من الأزياء الكولونياليّة ومنتعلة صندلاً صيفيًّا ذا سيور معتدلَ الكعب. وكعادتها منذ أن غادرت البروتاني، كان مكياجها خفيفًا، ووجهها شبه محتجب تحت نظّارة سوداء عريضة وشال ساترٍ تنبو عنه، هنا وهناك، خصلاتٌ شُقْرٌ، كما في ماضي الزمان الجميل.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٤

وفي اليوم ذاته، في المَقلب الآخر من العالم:

ـ الظاهر، أردف سالڤادور قائلاً، أنّ لدى الشقراوات الفارعات وعيًا حادًّا بتميّزهنّ. ومثل هذا الشعور بكونهنّ متميّزات، وبأنّهنّ نتاج تحوّل، نتاج ظاهرة وراثيّة لا بل نتاج كارثة طبيعيّة، قد يشجعهنّ على إبراز أنفسهنّ على نحوٍ مدروس. بلى، قال، أو شيء من هذا القبيل على ما أظنّ. لست أدري بالضبط. ما رأيك أنتِ؟

دوناتيان التي لم تكفّ عن التثاؤب، ارتأت، وهي تشدّ طرفَ تنورتها، أنّه ربّما كان من المستحسن تأجيل البحث في هذه المسألة. فالأجدى، ربّما، أن نلتفتَ إلى بعض القيم المؤكّدة لدى العيّنة موضوع البحث. فكرة مقتضبة عن جين مارلو، على سبيل المثال، أو، لا أدري، ربّما دوريس داي؟ حسنًا، قال سالڤادور، أحضري لنا الصور.

اجتازت دوناتيان الحجرة باتّجاه الباب، مُتَمَايلةً أمام عين مستخدمها المحاطة بالزرقة. من حولهما، جوارٌ صاخبٌ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بأصواتِ المنبّهات الحادّة لجهة الشارع، بزقزقةٍ لجهة الأشجار، وفي الاستديوات المجاورة شرائط تسجيل تدورُ مُسرّعةً: لا شيء في تلك اللّحظة كان ينمّ عن الوقار إلّا مزاج سالڤادور.

لمّا همّت دوناتيان بفتح الباب وجذبه كادت أن تصطدم ببرسونيتاز الواقف في الممشى وراء الباب والذي كان يدفعه، بموازاتها، من الجهة الأخرى في الوقت نفسه. ولمّا كانت هي تهمّ بالخروج من الحجرة فيما يهمّ هو بالدخول، تراجعا في البداية منتحيين جانبًا، ثمّ، كما يحدث عادة في مواقف مماثلة، يحاول كلّ منهما، وفي وقتٍ واحد، أن يعبر من خلال المساحة التي أخلاها مُقابِلُه، وبالكادِ يتدافعان عند صدع الباب. تماسٌ خاطفٌ عابر، سرعان ما تمّ استدراكُه: ذلك أنَّ الرجل الذي لامسَ، عفوًا، ذراعَ المرأة الشابّة، سارعَ إلى ردّ ذراعه نحوه، كمن ينتفض لهول المباغتة، وتراجع قليلاً. من مكتبه رأى سالڤادور وجه برسونيتاز المشدوه، المذعور كأنّه لمسَ خطًّا للتوتّر العالي، والمذهول لنجاته سالمًا، رأى سالڤادور جسدَ برسونيتاز مرتعدًا لشدّة انفعاله، كما لو أنّه يواجه سيلاً متدفّقًا في كلّ اتّجاه ولا مفرّ له من الغرق. لم يستغرق الأمر إلّا ثوانيَ معدودة، تراجع برسونيتاز على أثرها خطوة أخرى، وقد شَحُبَ وجهه من شدّة التعب. عاجلته دوناتيان بابتسامة عريضة قبل أن تبتعد قاصدةً قسم الوثائق.

استدار برسونيتاز، منهوكًا، من دون أن ينظر إليها قبل أن يوجّه كلامه إلى سالڤادور، أو الأحرى، لشدّة ارتباكه، إلى كتفِ سالڤادور اليمنى، إذا شئنا الدقّة، كأنّه يتفحّص بقعةً ما



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

عليها أو ثلاث ذرّات غبار، أو خيطًا فقده هناك أحد أبناء عمّ بيليار.

ــ حسنًا، قال أخيرًا، حصلنا على المعلومات. نعلم أين هي الآن. نعتقد أنّنا نعلم.

ــ إذًا؟ قال سالڤادور، لِمَ لا تذهبون إليها؟

ــ أقصد أنّ المكان بعيد، قال برسونيتاز، بعيد جدًّا.

ــ وافرض أنّه بعيد، قال سالڤادور، أين المشكلة؟

ــ أقصد أنّ الأمر مكلف، قال برسونيتاز. أقصد الرّحلة، أقصد أنّها باهظة الكلفة.

ــ طبعًا، قال سالفادور متأفّفًا وهو يسحب دفتر الشيكات من الدرج. درجة رجال الأعمال، أليس كذلك؟

ــ لا، قال برسونيتاز، لا بأس بالدرجة الاقتصاديّة لشخصين.

بينما ينكبّ سالڤادور على تحرير الشيك وانتزاعه من الدفتر، يضطرب فكّا برسونيتاز عندما تعود دوناتيان من قسم الوثائق. تحمل رزمةً من الصور تحت ذراعها وسيجارة «دانهيل» بين شفتيها، طُلِسَ فلترُها بالأحمر الفاقع. وإذ تقف متكئةً بقربِ الباب بانتظار أن يقضي الرجلان ما بينهما، يدسّ برسونيتاز الشيك في جيبه وينهض عن كرسيه منتصبًا. الآن وقد جعل دوناتيان خارج نطاق بصره، متّجهًا إلى المخرج، بمسارٍ أشبه بالقوس الخفي الذي يبقيه على مسافةٍ واحدة منها، يُغادر مشمولاً بنظرتها الباسمة دائمًا. غير أنّه يفقد العفويّةَ في مشيته



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

عندما يشعر بأنّه متبوعٌ بنظرتها: فإذا به يُصلّب قامته على نحوٍ مضحك، ويغالي في تقليص عجيزته، وتهزل ساقاه، ويهتزّ قفصه الصدري أكثر ممّا ينبغي، أي، بالاختصار، يتحرّر الجسد منه وكلّما تعمّد التحكّم به ازداد الجسد ميلاً إلى العصيان. حتّى المصعد، هكذا يبتعد برسونيتاز سالكًا الممشى الطويل، واثقًا من أنّ دوناتيان تنظر إليه بعد أن أغلقت الباب.

بمضيّ نصف ساعة كان، كالمراقب، ولو من بعيد، يتابع سيره، في شارع «الشهداء» بعد أن ركن سيّارته على البولڤار. وعندما وصلَ إلى بناية بوكارا فتّش عن رمز الدخول في مفكّرته، وحاول تكرارًا أن يطبع الأرقام على اللّوحة الرقميّة للقفل الألكتروني ولكن عبثًا: لبث باب البرونز جمادًا كالبرونز. شعر برسونيتاز، الذي لم يبرأ بعد ممّا سبّبته له دوناتيان من اضطراب، بأنّ غيظه يتعاظم في صدره خصوصًا أنّ أقرب هاتف عمومي إليه يبعد خمسمئة متر على الأقلّ.

ـ أنا برسونيتاز، بادر إلى القول. لقد أعطوني رقمًا هو رمز الدخول. فما هو هذا الرمز؟

ـ ما هو الرمز الذي تعرفه؟ أجاب بوكارا بصوتٍ مذعور.

ـ مهلاً، قال برسونيتاز مقلّبًا بصعوبة صفحات مفكّرته بيد واحدة، لقد أعطوني الرمز التالي 89A51.

ـ واضح جدًّا أنّ جوف لم يأت إلى هنا منذ زمن بعيد. بلى، كان رمزًا ممتازًا ذاك الـ 89A51، كنت أتفاءل به كثيرًا. لفظُه له رنّة النتيجة النهائيّة لمباراة في كرة السلّة كما كان من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

السهل أن نتذكّره. الثورة الفرنسيّة والباستيس، أين نجد أفضل من ذلك؟

ـ حسنًا، قال برسونيتاز، ولكن ما هو الجديد، الرمز الجديد؟

ـ وعلاوةً على ذلك أنهما رقمان أصمّان، قال بوكارا مسترسلاً في تحليله.

ـ لا، قال برسونيتاز. 89، بلى، ولكن ليس 51. ذلك أنّ 51 ليس سوى حاصلٍ لأرقام صمّاء.

ـ أجل، قال بوكارا، لكنّهم غيّروه على كلِّ حال.

ـ حسنًا، ردّد برسونيتاز قائلاً، إذًا ما هو الرمز الجديد؟

ـ إنّه رمزٌ حقيرٌ جدًّا، قال بوكارا، 8C603، جرّبه.

ضغطَ مفاتيح الأرقام 8C603، وسمع بالفعل تكّةً خفيفة أدارت على الفور الرتاج الألكتروني. المصعد. مرآةٌ داخل حجرة المصعد. تجَنّبُ النظر فيها.

ـ ماذا، قال بوكارا، هل قُضيَ الأمر؟ لقد استعدت عافيتك بعد تلك الأمسية؟ أمّا أنا فما عدت قادرًا على السهر حتّى هذه الساعة، أشعر بأنّني منهوك تمامًا. كما أحذّرك بأنّي مصابٌ بما يشبه الانهيار العصبي. ولكن لحسن الحظّ تمكنّا في النهاية من العثور على الغَرَض. هل أقدّم لك بعض القهوة؟ لقد فرغتُ للتو من صنعها.

ـ لا، قال برسونيتاز. مهلاً، لِمَ لا. أرِني الغَرَض.

ـ خُذ، قال بوكارا. قطعةَ سكّر واحدة أم اثنتين؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كان الغَرَض عبارة عن صورٍ كبيرة لوثائق كان الرجلان قد وجداها وصوّراها ثمّ أعاداها إلى حيث كانت في خزنة لاغرانج: أسماء مدنٍ غريبة متبوعةٍ بإرشادات مرقّمة: تواريخ، عناوين، أرقام هواتف، وأرقام فاكس. حسنًا، قال برسونيتاز، سنرحل غدًا.

وفي اليوم التالي كان بوكارا يردّد أنّه منهار عندما استقلّا تلك البوينغ نفسها المتّجهة إلى سيدني، والتي كانت غلوار قد استقلّتها من قبل. غير أنّنا نعلم أنّها غادرت سيدني، ونعلم كلّ شيء عن تفاصيل الرحلة، دعونا إذًا ننهي المسألة بسرعة وإيجاز. لم يعثرا على أحد في فندق «دارلنغ هاربور»، والطقس كان مقيتًا، كما لم يتسنّ لهما أن يريا شيئًا، وسرعان ما عادا أدراجهما.

في طائرة العودة كان بوكارا ينام على نحوٍ متقطّع. إنّ خمس عشرة ساعة من الطيران في اتّجاه ثمّ في آخر، والتعب، وفارق التوقيت المزدوج البالغ ١٨٠ درجة، واضطراب النوم والهضم، ليست أمورًا مساعدة لمقاومة الغثيان عندما تجتاز البوينغ مناطق اضطرابات جويّة. كان خائر العزم طول الوقت، لكنّه حاول أن يستردّ شجاعته على بعد ألف كيلومتر من باريس، وأراد أن يستأنف الحديث الذي كان قد بدأه قبل بضعة أيّام في السيّارة، في طريق العودة من بروتاني. استدار نحو برسونيتاز الذي بدا مستغرقًا في التدقيق بأحوال الطقس في العالم على شبكة التلفزيون الداخليّة.

ـ ما قلته لك في ذلك اليوم، لم يكن صحيحًا، قال بوكارا معترفًا. الحقيقة أنّ حياتي الجنسيّة بائسة. آه لو تعلم كم ضقت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ذرعًا بمضاجعة الأرامل في المباني التعاونيّة.

ـ أعتقد أنّه لطالما كانت الحال على ما هي عليه، قال برسونيتاز حائرًا في ما ينبغي أن يقول.

ـ لا يسعك أن تتخيّل كيف تجري مثل هذه الأمور. لحظات استيقاظك. الصباحات. العودة إلى منزلك من دون حتّى أن تغتسل عبر طرقات الضاحية المزدحمة، تحت سماء مقيتة، الدخول إلى شقّتك الباردة. إشعال التدفئة والاحتفاظ بمعطفك ريثما تجهز القهوة. لا تتخيّل ما يرافق ذلك من احتقار لذاتك.

ـ دعكَ منهنّ إذًا، اقترح برسونيتاز قائلاً. اهجرهنّ.

ـ إني لا أهجر أحدًا على الإطلاق، قال بوكارا، فالأمر متعب جدًّا. وإذا كان لا بدّ من ذلك فعندئذ أفضّل أن أُهْجَر. فهذا يجنّبني عذاب اتخاذ القرار. وعلى كلّ حال، الأمر لا يكون أبدًا بهذه البساطة، قال مستطردًا. إذ لا سبيل لأن يعلم المرء على وجه الدقّة مَنْ يهجر مَنْ. نحسب أنّنا نرى أحدهما يبادر إلى ذلك. غير أن مَن يَهجر ليس هو دائمًا من يبدو عازمًا على الهجر.

بعد قوله هذا أحكم بوكارا وضع السمّاعتين على أذنيه، مفتّشًا عن بعض الموسيقى بين البرامج المتوافرة، معالجًا الدولاب الصغير المثبّت على مقبض كرسيه، وإذ وقع على معزوفةٍ لشوستاكوفيتش عدّل وضعيّة كرسيه بحيث يتمكّن، باسترخاء تام، من مراقبة المضيفات المنهمكات في أعمالهنّ.

في مطار رواسي، توجّه برسونيتاز إلى أقرب هاتف



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

عمومي، غير أنّ مزاج سالڤادور لم يكن قد تهيّأ بعدُ للردّ على أي اتصال عندما سمع رنين الجرس. على طاولة مكتبه، كان مشروعه الرئيسي مفتوحًا، مرّة أخرى، عند الفصل المتعلّق بالشقراوات المصطنعات ـ بفضل الأوكسيجين أو البيروكسيد، أو سواهما. أجل، قال بنبر، مَنْ؟ لقد أخفقتما إذًا مرة أخرى. ولكن من دون أن يصغي حقًّا لتبريرات الآخر:

ـ لحظة، قال له.

ومنكبًّا على الصفحات المفرودة أمامه، دوّن بسرعة على هامش إحداها أنّ بيروكسيد الآزوت يستخدم أيضًا لصنع أنواعٍ من المتفجّرات، وكقوّة دفعٍ لبعض أنواع الصواريخ، هذه فكرةٌ قد تكون مفيدة. حسنًا. حاول أن توسّع هذه النقطة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٥

تلك اللّيلة، عند الحادية عشرة بتوقيت بومباي، في بار «تاج أنتركونتيننتال»، تلاحظ أنّ قلّة قليلة من الزبائن هناك، على غرار الملاهي اللّيليّة في سيدني، هم من السكّان المحليين. جميعهم، تقريبًا، من الغرباء، غرباء عن هذه المدينة وغرباء عن بعضهم بعضًا، أي غرباء على نحوٍ مضاعف.

تلمح امرأتين دخلتا للتوّ إلى البار مقهقهتين، كما لا يفعل الناس عادةً لدى دخولهم الأماكن العامّة، امرأتين شابّتين مَرِحَتِين ومعهما باقة أزهارٍ بيضٍ كبيرة تتعاقبان على حملها كلّ خمس دقائق. للوهلة الأولى تراهما جميلتين مثل قلب النهار، ثمّ بعد تفكير، تراهما جميلتين كقلبي نهارين مختلفين، كعيدين في موسمين مختلفين.

كانتا قد التقتا في صبيحة اليوم ذاته على متن رحلة سيدني ـ بومباي. وإذ شاءت المصادفة أن تجلسا في مقعدين متجاورين، راحتا تتبادلان المجلّات والسجائر والنصائحَ المختلفة في الحفاظ على جمال المرأة، كما شربتا ما فيه الكفاية وتبادلتا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الأحاديث كما يفعل الناس عادةً أثناء الرحلات الطويلة، على ارتفاع عشرة آلاف متر من اليابسة الطافية على سطح المياه. كانت راشيل، مثلها مثل غلوار، تسافر بمفردها. ومثل غلوار بقيت متكتّمةً حول أهداف ودوافع رحلتها: ولن تفترق المرأتان طول الأيّام التالية.

كانتا قد وصلتا إلى بومباي عصرًا، لا لغاية محدّدة، وجالتا في أنحاء المدينة في سيّارات أجرة، تترجّلان منها حيثما اتّفق ثمّ تتسكّعان في الشوارع سيرًا على الأقدام. عابرتين كتلةً من الروائح الكثيفة غلبت عليها نكهة السكّر، محسوسةً كركام مُزني متغيّر الأشكال ومنبثقة من كلّ صنوف البهارات والبخور والزيوت المعطّرة والفواكه والأزهار والطعام المقلي والدخّان والشّياط والنفتالين والقطران والغبار والعفونة وغاز عوادم السيّارات والبراز. ثمّ لدى وصولهما إلى «مارين درايف» حيث جالتا على مقارّ حرق الجثث، غلبت لبعض الوقت رائحة الأجساد المحترقة على ما عداها، مشوبةً بفروق طفيفة تمليها المكانة الاجتماعيّة، إذ يوضع الجثمان بين طبقتين من الحطب حتّى يتبدّد دخانًا، بنكهة الصندل أو حطب الموز للموسرين، وحطب المانغا للعوام. هكذا قضتا النهار حتّى حلّ المساء.

أنت، نفسك، تجلس وحيدًا وأمامك كأسك في بار «تاج»، تلمح هاتين المرأتين المرحتين جدًّا مقبلتين، وعلى الفور، كما بفعل معجزة، تلتقيان رجلين في حالةٍ مشابهة. الأكثر مرحًا منهما تختار الأكثر ظرفًا، أمّا الاثنان الآخران فيتدبّران أمريهما معًا كيفما اتّفق. أنت تراقب المشهد من بعيد. يتّضح لك أنّ هذا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الرباعي المتشكّل للتوّ لا يتبادل وجهات النظر دائمًا في اللّغة نفسها، فكلّ واحد منهم يتكلّم بلغته مستعينًا بإشارات الأيدي. تبقى جالسًا لبعض الوقت، متردّدًا ثمّ راغبًا عن طلب شرابٍ آخر، وتغادر المكان في اللّحظة التي تتّضح فيها، في ذهن أفراد الرباعي، الفكرة القائلة إنّ الحواجز اللغويّة أمرٌ تافه لأنّ الحبّ كونيّ. مع ذلك، عند الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، تتسلّق سلالم الطوابق قاصدًا الغرفة ٢١٢، وتفتح الباب على نحوٍ موارب ولا تجد، كما كان متوقّعًا، لا أحد هذين الثنائيين، ولا الثنائي الآخر، بل تجد راشيل وغلوار نائمتين متلاصقتين.

بمضيّ بضعة أيّام، وبعد أن ملّتا من التجوال في أنحاء المدينة، حدثَ أنّهما أمضتا أيّامًا بطولها في الغرفة، ما دامَ الوقت، والمتّسع منه، هو ما تملكانه. دائمًا تبقيان ملتصقتين جنبًا إلى جنب، نائمتين أم صاحيتين، بقرب النافذة المفتوحة حيث تأتي طيور الزاغ ذات النظرات الوقحة لتحطّ على حافتها. كان لراشيل في موضع من جسمها وشمٌ على هيئةِ نجمة صغيرة، وكانت طيور الزاغ تطلق نحنحاتٍ صاحلةٍ من قعر حوصلاتها كما يفعل البشر عند تنخّعهم. وعبر هذه النافذة، كان يتناهى، من الصباح حتّى المساء، صوت ناسكٍ ما مرتّلاً صلواتٍ يذكّر بعض أنغامها بمعزوفة Working class hero.

في معظم الأحيان، كانتا لا تغادران الفندق إلّا عند العصر، بعد أن يترطّب الجوّ، لاستنشاق الهواء النقيّ على مقربة من رصيف «أليفانتا» أو تبتاعان المشروبات الكحوليّة عند طرفِ زقاقٍ عبر مبنى خربٍ، من دكّان معتم وضيع ذي نافذة مشبّكة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ولكنّهما بقرب الرصيف تعرّفتا أيضًا على شبّان يتسكّعون طيلة النهار على مقربةٍ من الفندق، بين بار «تاج» و«نادي اليخوت»، بين منظّفي الآذان. فتيان مهذّبون ومهندمون مظلّلون بشواربَ نابتة ومشاريع مستقبليّة، رجال أعمال مبتدئون يبسطون، برصانة، مروحة عروضهم: مواد للاستنشاق، مواد للحقن، فتيان وفتيات في مقتبل العمر للمضاجعة، واستبدال العملات. برغم امتناعهما عن التعامل مع أمثال هؤلاء، أُعْجِبَت راشيل بمروّج يُدعى بيبلاب، وبدا أنّها أُغرمت به، ثمّ توارت بعد أيّام ـ وبذلك تكون قد خرجت من حياة غلوار بالسرعة القياسيّة التي دخلت بها إليها.

بعد أن غدت وحيدة صارت الحياة في بومباي مختلفة، إذ بدت المدينة أكثر صخبًا ممّا عهدتها. قضت غلوار يومين كاملين لم تغادر خلالهما الفندق، مبدّدةً وقتها كلّه لدى تجّار السلع المترفة في الطبقة الأرضيّة. ولمّا عزمت على الخروج في اليوم الثالث، تبعها بعض المتسوّلين بإلحاح يفوق المعتاد مُصدرين من حناجرهم أصواتًا شبيهة بأصوات طيور الزاغ، وطاردها مقعدون وقطعوا عليها الطريق، فعادت غلوار إلى غرفتها شاعرةً بالقنوط. بدأت تشتاق إلى بليار. لم يظهر مرّة واحدة طول الفترة التي قضتها برفقة راشيل، وهذا أمر طبيعي. ولكنّها لشدّة ما تشعر بالوحدة في الوقت الحاضر، ربّما تمنّت أن يظهر مجدّدًا لبعض الوقت. ولكنّه لم يظهر. حتّى ساورها شكٌّ بأنّ الكائن الضئيل قد سنحت له فرصة ما في سيدني وآثر أن يبقى هناك.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بأيّة حال من المستحسن أن ترحل مرّة أخرى. كانت راشيل قد حدّثتها ذات يوم عن بلدة في الجنوب بدت لها الحياة فيها هانئة، في دارٍ للضيافة هادئة على الطراز الإنكليزي يرتادها أناس من نخبة القوم، وكانت غلوار قد دوّنت عنوانها. طلبت من موظّف الاستقبال في الفندق أن يحجز لها مقعدًا في القسم المكيّف من أوّل قطارٍ متّجهٍ إلى الجنوب. وغادرت في اليوم التالي.

بلدة هادئة في تلك البلاد يعني، على الأقلّ، مليون نسمة في حركة محمومة، غير أنّ النادي الكوسموبوليتي كان عبارة عن مؤسّسةٍ عريقةٍ قائمة عند أطراف الوسط التجاري في حيّ القنصليّات. وكان مدخل النادي الرئيسي ملاصقًا للقنصليّة البيرمانيّة، ومن الجهة الخلفيّة بوّابة مفضية إلى تقاطع شارعي سينوتاف وأرشيبيتر ـ ڤانسان، ومطلّة على تجمّع سكني مؤلّف من ڤيلّات كبيرة بيضاء محاطة بالحدائق ومسوّرة بجدران. هنا قد تشعر غلوار بالأمان.

كان النادي الكوسموبوليتي، وهو عبارة عن مبنى فسيح يتألّف من ردهةٍ فسيحة الأرجاء وعدد من الصالونات. مطعم، وقاعة للتدخين، وقاعات للبريدج والبيليار والحفلات.. وبار ثمّ بار ثمّ بار ثالث. كان سقف شرفته متوَّجًا بقبّة صغيرة ذات اثنتي عشرة زاوية، تعلوها مرمدة قمعيّة الشكل. أمّا الردهة، التي ازدانت جدرانها بصور رسميّة للملكة، وأخرى أحدث عهدًا لأمير بلاد الغال، فكانت فسحتها متصلةً بدرجِ مدخلٍ وإفريز من الإسمنت الفاتح لا تهدأ تحته حركة سيّارات الليموزين أمباسادور وسيّارات هندوستاني المتينة، التي كانت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تقلّ، ساعةً بعد ساعة، أعضاء النادي وهم في كاملِ وعيهم، ثمّ تعود لتقلّهم سكارى متعتعين بعد احتسائهم لترًا أو لترين. لجهة اليسار هناك حوض سباحة تُضخّ إليه مياه شفة، ولجهة اليمين مكتبة صفّت فيها مجلّدات فاقدة الرونق. ثمّ مبنى معزول، طبقتان من الغرف والشقق الفاخرة خصّص لها مصعدٌ من البليساندر: من المفترض أن تنزل غلوار في هذا المكان، على مقربةٍ من المدخل الخلفي، المطلّ على شارع سينوتاف. كلّ هذا في ظلّ سكون حريريّ وإن تناهت إليه، من الأحياء المكتظّة، أصداء جلبةٍ رتيبة تكاد لا تسمعها الأذن، لكنّها متواصلة حرّيفة مثل وعي شقي وتسبغُ على السكونِ رونقها.

كانت المؤسّسة تمثّل مزيجًا من الفندقِ الفخم، ونُزل العائلات والمصحّة. البارات التي لم يجر عليها أيّ تعديل منذ عهد الإنكليز، من خشب الأكاجو، والمصابيح الجداريّة من النحاس، والأطباق ولوازم المائدة من الفضّة، وأغطية طاولات من القطن المزيّح بخطوطٍ حمرٍ، والغلمان في حُللٍ بيض. من صالة المطعم يمكن للناظر أن يرى، خلفَ مصطبةٍ طويلة وفسيحة كسطحِ مَركب، خمس عشرة درجةً هيّنةَ الارتفاع تُفضي إلى حديقةَ مغروسة بأشجار البيبال والمارغوزييه، ومسكونة بأجناس النمسِ والببغاوات، محاطة بنهرٍ كثير الفيضانات. كانت الشمس مشرقة. والأمور على أحسن ما يرام.

فور وصول غلوار، رافقها كبير المشرفين إلى حجرتها. كانت رحبةً فسيحة الأرجاء، مجهّزةً بتلفزيون «تكسلا» أسود وأبيض، وبثلّاجة زرقاء ومكيّف هواء ضخم بين النافذتين،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وثلاث مراوح مثبّتة في السقف. على كلّ منضدة من جانبي السرير أربعة أطر زجاجيّة صغيرة الحجم، نقشت عليها رسوم عصافير (Chloropsis cochinchinensis)، وإطار زجاجي كبير علّق فوق السّرير نقشت عليه رسوم أربعة طيور (Porphyrio porphyrio). يبدو أنّ الأمور تسير من حسن إلى أحسن.

كبير المشرفين، وهو شابٌ نحيل القامة ذو شاربين دقيقين باردين وابتسامةٍ مجمّدة، سارعَ إلى مغادرتها بعد توقيعها على السجلّ. وسوف يظهر لها في الأيّام التالية كثيرًا من الاحترام المتحفّظ، مؤثرًا البقاء على مسافةٍ معقولة لا التظاهر باللّامبالاة. أمّا الخدم، وهم أكبر سنًّا، فقد أظهروا ودًّا ومبادرةً إلى الخدمة؛ ولمّا كانت زوجة أحدهم، وهو الأكثر لطفًا من بينهم المكلّف بفترة الخدمة الصباحيّة، نزيلة المستشفى حاليًّا، أعطته غلوار ألفي روبية. ثمّ، بعد أن رتّبت ملابسها في الخزائن التي تتّسع لأضعاف أضعافها، وبعد أن جالت في أنحاء الحديقة واجتازت الصالونات المقفرة، وبعد أن تفقّدت جميع الأمكنة للتعرّف إليها، بدأت بتنظيم نهاراتها ومواقيتها.

كلّها متشابهة. عند السابعة يوقظها الحرّ. ونحو الثامنة يأتي زوج نزيلة المستشفى ليضع صينيّة وجبة الشاي الأولى على المنضدة ويرفع الستائر المسدلة. وإذ يجذبها تنكمش إلى طرفِ القضيب المعدنيّ وتحدث الحلقات المعدنيّة صوتًا أشبه بصوت سَنِّ السكّين. بعد ذلك كانت غلوار تتناول طعام فطورها، بمفردها، على الشرفة، ناثرة على الأرضيّة، بين الفينة والفينة، فتات الخبز المحمّص الذي يحظى باستحسان عدد من طيور



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الزاغ الكبيرة وعدد آخر من سناجب النخيل التي تهرع جميعها للفوز به. من كلّ عشر محاولات كانت السناجب تتقهقر تسع مرات، متهيّبةً غطرسة طيور الزاغ الأشدّ بأسًا والأكثر تنظيمًا، تحت الدوائر التي يخطّها في السماء تحليق النسور. ثمّ تأخذ غلوار قسطًا من الراحة في حجرتها، لا ترى أمامها سوى سحليّتين، قصيرتين، زهريّتين، جاثمتين على الحائط من دون حراك. لم تحاول أن تقبض على إحداهما سوى مرّة واحدة.

كان عدد من عربات الريكشو يقف باستمرار أمام البوّابة، على أهبّة الاستعداد لنقلِ نزلاء النادي. وكانت غلوار تستقلّ أوّل عربة تصادفها من هذه الدرّاجات الصفر ذات الغطاء المثبّتِ على عجلٍ ــ ثلاث عجلات، مقعدان خلفيّان، وعدّاد معطّل ــ قاصدةً وسط البلدة. كانت تتسكّع أحيانًا معرّجةً على بائعي الأقمشة، وعلى المعابد أو تقصد المدلّكين، مسلّمةً يديها كلّ يوم إلى المختصّين بشؤون الظاهر والباطن، مرّةً لقراءة الكفّ ومرّة لتطريف الأظافر.

كانت تثير الفضول، وكان السكّان المحلّيّون يرمقونها بنظراتٍ متفحّصة لأنّهم غير معتادين على رؤية الشقراوات الفارعات، إذ يندر مثلهنّ في هذه البلاد. وفي الأثناء، كان سالڤادور، في ركنه النائي، يدوّن ملاحظاتٍ غير محدّدة حول هذا الموضوع ــ شقراوات فارعات في سيّارات أوستن صغيرة، شقراوات فارعات وسياسة الأرض المحروقة ــ، من دون أن يحيد بنظره، ولو لحظة واحدة، فمن يدري؟، عن نسخة من لوحة جيم داين المعنونة «The blonde girl» (زيت، فحم، نسيج، ١٩٦٠).



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

في الأثناء كان برسونيتاز يبذل ما بوسعه ولكن عبثًا إلى الآن، لكي يهتدي إلى غلوار التي تقضي فترة بعد الظهر مستلقيةً على كرسيّ طويل عند حافّة حوض السباحة، إلّا إذا كانت تقوم بجولة في الحديقة، متوقّفةً أمام المولّد أحيانًا بقرب المستنقع حيث مئة ضفدعٍ ساكنٍ، تلتقف بصمتٍ أيّ حشرة من حجمٍ معيّن.

عند المساء كانت غلوار تتناول طعام العشاء بمفردها في المطعم، كتابها مفتوح على الطاولة، تقرأ وهي تأكل، ثمّ تستلقي أمام التلفزيون، تشاهد فيلمًا تامليًا غير معقّد أو لاغيةً الصوت، تمسك بكتاب مستعار من المكتبة، حيث الخيار محصور بين مؤلّفات موسوعيّة أو أدب رحلات، أو مصنّفات في العلوم الطبيعيّة، أو أبحاث في التقاليد والأعراف أو مؤلّفات أكثر تخصّصًا من منشورات ثاكر وسبينك وشركائهما (كلكوتا) مثل: «الحيوانات التي لا أهمِّيَّة لها» أو «كلاب المناخات الحارّة». كانت غلوار تقرأ كلّ هذا بمثابرة من دون أن تهمل سطرًا أو تحفظ سطرًا. وبعد ذلك، كانت، مبدئيًّا، تنام. وإن كان الأمر شاقًّا عليها في بعض الأحيان، ويزداد مشقّة بمرور الأيّام. أمّا بيليار فكان لا يزال متواريًا منذ أيّام سيدني. تُراهُ واجه مشكلة عند نقطة التدقيق في جوازات السفر؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٦

خلال الأسبوع التالي، باتَ السّهادُ رفيق لياليها. كان أرقًا يقرض حبل النوم من طرفيه، يحذف منه، مساءً وصبحًا، وبالتساوي، بضعَ دقائق إضافيّة كلّ ليلة. وكانت غلوار تستيقظ كلّ يومٍ أشدّ تعبًا من اليوم السابق.

في بار النادي، التقت أخيرًا بعض الأوروپيين، من النزلاء أو الزبائن العابرين، خاصّة رعايا بريطانيين وكلاء لشركاتهم: مندوبًا لشركة تأمين على مجوهرات التاج، وكيلاً في مجال ترويج العطور، مهندسًا مختصًّا في الفرامل ــ وهي آليّة مهملة، مجهولة في هذه البلاد حيث يؤثَر استعمال المنبّه، وتشكّل، تاليًا، سوقًا محتملة في هذا المجال.

غير أنّها كانت تقضي قليلاً من أوقاتها في البار. وفي الأمسيات كانت غلوار تمكث لبعض الوقت عند المستنقع، قرب البوّابة، ساعيةً لتأخير محاولاتها الفاشلة للنوم. في مثل ذلك الوقت تكون الضفادع بعد التقافها ما تيسّر من الحشرات الضئيلة، منصرفة إلى هضمِ طعامها، منشدةً بِدَعةٍ كما تنشد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الجوقة. ولكي تؤدّي إنشادها المتواضع، كانت تنقسم إلى ثلاث فئات، فئة تقلّد صياح الدواجن، وفئة تحاكي صفّارة سيّارات الشرطة، وفئة ثالثة تقلّد جهاز بثّ مورس. جوقة حماسيّة، متناغمة، لا تستكين لحظةً، حيث المورس والشرطة بنبرة الوحدات الثماني، فيما هدير المولّد الجهير بمثابة أنغام الأوتار الغليظة المتّصلة الرنّانة. علاوةً على الجوقات البرمائيّة، كان بعض المنشدين المجنّحين المنفردين يصدح، من بين أغصان الشجر، ببعض البيانات النغميّة الجوابيّة المقتضبة، وبعض الجمل الموسيقيّة بفاصلة ثلاثيّة. كانت غلوار تصغي إليها لربع ساعة، قبل أن تعود إلى غرفتها لتنام.

كانت تتلقّى دعواتٍ، وأحيانًا تقبلها. فقد كان الرعايا البريطانيّون ينظّمون أيّام الثلاثاء سهراتٍ لرقصة «الكايك واك» على الشرفة بأحذية الأديداس وسراويل البرمودا، متصبّبين عرقًا وسط الطاولات المرصوفة بالقناني. وذات مساء، وكان ذلك المساء الوحيد الذي سمحت غلوار لنفسها، أن تشرب خمس أو ستّ كؤوس متتالية.

ثمّ تعود سكرانة إلى النادي. تصرف وقتًا طويلاً وهي تبحث عن مفتاحها، وهي تضع المفتاح في القفل، ثمّ، بعد أن تدخل، للعثور على زرّ اللّمبة. لكنّها سرعان ما تطلقُ صرخةً مكتومة لاعتقادها أنّها لمحت جسمًا ضئيلاً مستلقيًا بالعرض على سريرها. ثمّ لا تلبث أن تستدرك فزعها، وتفكّر بتعقّل: يا صديقتي البائسة، ما زلت متعتعةً من السكر. ولكن لا: عندما صُفِقَ الباب نهض الجسمُ الضئيل فجأة، متصلّبًا كتمثال



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

العدالة، شابكًا ذراعيه، حانقًا.

ـ هل تعلمين كم الساعة الآن؟ صاح بيليار قائلاً. هل تجدين أنّه الوقت المعتاد لعودة امرأة إلى غرفتها؟

ـ أيّها الوغد البائس، قالت غلوار، لقد أفزعتني.

ـ هذه ليست سوى البداية، قال بيليار مضاعفًا صياحه. إنّي أشعر بأنّ الأمور خرجت عن السيطرة هنا. سوف أتولّى الأمور بنفسي، أنا.

ـ كم أنتَ مغفّل، ردّدت غلوار قائلةً متّجهةً في العتمة نحو كرسي، حيث جلست متهالكةً واضعةً يدها على عينيها.

ـ احفظي لسانك، قال بيليار بجفاءٍ وإن بدت لهجته أقلّ حزمًا.

ـ ألا يسعك أن تُعلِمني بمجيئك مسبقًا؟ قالت بعد هنيهة، ناهضةً عن كرسيها بتثاقل لكي تسكب لنفسها كأسًا أخيرة.

ـ انتهى زمن المزاح، قال بيليار بنبرة وعيدٍ مشيرًا بإصبعه إلى الكأس، ثمّ ملوّحًا بتلك الإصبع. سوف أتولّى رعايتك جيّدًا من الآن فصاعدًا.

ـ يا لهذه الدنيا العجيبة، قالت غلوار، لقد تواريت منذ دهرٍ. يستحيل أن أجدك حين أكون في حاجة إليك. كدتُ أن أهلَك ألف مرّة.

ـ أعرّج عليك بحسب المستطاع، زعم الكائن الضئيل مُطرقًا، ولا تحسبي أنّك شغلي الشاغل. هل رأيت سحنتي؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تباين التوقيت، الرحلة، وكلّ شيء. إذا كنتِ تحسبين أنّ الأمر يمتّعني فأنتِ على خطأ، قال مستخرجًا من جيبه مرآة صغيرة، ألا ترين كيف أصبحت؟

كان شاحبًا بالفعل، مشعّث الشعر، مهمَل الملابس، وقد حلّ ربطة عنقه وسيور حذائه. وإلى ذلك كان نابت اللّحية. بات الأمر فوق طاقتي واحتمالي،. غمغم قائلاً متهالكًا من جديد فوق السرير. مسّت غلوار شرابها بشفتيها وهي تنظر إليه مستلقيًا واهنًا، كأنّه دمية رخيصة.

ــ إذًا، ماذا فعلت، قالت، أين كنت؟ هل مكثتَ في سيدني؟

ــ دعيني أنام، قال بيليار متثائبًا، أعتقد أنّه ينبغي لي أن أنام.

ــ إنكَ محظوظ حقًّا، قالت. فأنا منذ بعض الوقت لا يغمض لي جفن. آه لو تدري عذاب اللّيالي التي أقضيها.

ــ سوف أعالج هذا الأمر، غمغم بيليار قائلاً. سوف نرى في الغد.

ــ يا حبّذا، قالت غلوار.

في صباح اليوم التالي، كان بيليار لا يزال نائمًا عندما غادرت، على جري عادتها كلّ يوم، للقيام بجولةٍ في وسط البلدة. من بين عربات الريكشو المركونة عند مدخل النادي، اختارت، بعد تردّد، عربةً هي الأفضل حالاً بين مثيلاتها ربّما لأنّ سائقها يبذل لها كلّ العناية اللّازمة. كان داخلها مزيّنًا بمخروطين من العنبر المشتعل، وكان مذبح صغير من الزهور



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

والتماثيل الصغيرة يعلو مقود العربة وفوقه، على الزجاج الأمامي، ألصقت صور مطبوعة لبعض الآلهة. ومن خلف، بجنبِ عاكسات النور رُسِمَت عينان مكحّلتان شاخصتان بشعارٍ فدرالي يدعو إلى تحديد النسل، وتحت الغطاء المرتّق بشريط لاصقٍ طبيّ، عند طرفي المقعد الخلفي، علّقت صورتان لشخصٍ واحد ربّما كان ممثّلاً أو زعيمًا سياسيًّا، والأرجح أنّه ممثّل وسياسيّ في وقتٍ معًا.

أمّا سائق هذا الريكشو، المدعو سانجيف، فقد كان شابًّا ودودًا كُرَويًا، يرتدي قميصًا وبنطالاً من الكتّان، ويضع حول عنقه قماشةً حائلةً من القطن الزهري. منذ مشوارها الأوّل كان اقترح على غلوار أن يضع عربته بتصرّفها طول الوقت. كان شعره حليقًا ما عدا خصلة متدلّية على قذاله، أشبه بالقبضة التي بها يُنتَشَلُ من نار جهنّم إذا وقعَ فيها. كان ودودًا، سويّ المزاج، بارعًا في السواقة، وعدّاده غير معطّل، وبخوره من النوع الجيّد، فأجابت غلوار لِمَ لا. المشكلة الوحيدة التي يعاني منها هي زكامُه المزمن الذي يدفعه إلى العطس باستمرار، والتمخّط عند كلّ إشارة مرور في قماشته الزهريّة، التي كان يستخدمها أيضًا كعصابة رأس وشالٍ وحزام وضمادة وخرقة ومنشفة حمّام وفوطة مائدة وصرّة مؤن.

لمّا عادت إلى حجرتها بعد الغداء، كانت غلوار ممتقعة الوجه مجدّدًا، وبدا بيليار قلقًا. خذي قسطًا من الراحة، اقترح عليها قائلاً قبل أن يستأنف نومه، حاولي أن تنعمي بقيلولة قصيرة. حاولت لكنّ النومَ باتَ أمرًا لا وجود له. وبقيت على



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

هذه الحال حتّى بعد هبوط اللّيل، وكلّ اللّيالي التي أعقبته، حتّى ألفاها، ذات صباح مشرق، خائرة العزمِ تكاد لا تقوى على الحراك.

وطبعًا، لمّا كان بيليار غير جديرٍ بشفاء غلوار من أرقها، انصرفَ إلى الاستعاضة عمّا فاته من نوم. كانت تقضي أيّامها بقربِه نائمًا، مستلقيةً في حجرتها المسدلة الستائر. عيناها تبحلقان في السقف، لا تفكّر في شيء، وهي تعدّ إلى ما لا نهاية دورات المروحة.

لن تبرحَ غرفتها طيلة الأيّام الثلاثة هذه إلاّ في مواقيت الطعام، غافلةً عن وجبات فطورها محتجبةً خلف نظّارتها السوداء. وما إن تنهض كانت طيور الزاغ تنقضّ على الفضلات متقاسمةً فيما بينها الخبز المحمّص والسكّر والزبدة والمربّى الصناعي قبل أن تحلّق مجدّدًا لكي تتلذّذ بما خطفته هانئةً فوق شفرة إحدى المراوح.

لا بل حدث ذات مساء، في مطعم النادي، أن انتفضت غلوار مرتعدةً لدى اكتشافها عنكبوتًا ثائرًا، جاثمًا على الجهة المحدّبة من الملعقة بجانب طبقها. كانت الحشرة الأسيرة تدور حول نفسها، متخبّطةً داخل الماعون. انتابها، لهنيهةٍ، شعورٌ بالتقزّز قبل أن تلمحَ في هذا التجويف انعكاس حركة مروحةٍ أخرى فوقها.

واضح جدًّا أنّ المراوح بدأت تحتلّ حيّزًا كبيرًا من حياتها. غير أنّها لم تعرف القلق حقًّا إلّا بمضي أسبوعٍ عندما بدأت تتراءى لها ذبابات ضخمة مجمّدة في شعيرات الإضاءة داخل اللّمبات



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الكهربائيّة. بيليار الذي أقرّ بعجزه حيال ما تعانيه، أُسقِطَ في يده. فراحت غلوار تصارح الخدم بما تعانيه من اضطراب.

الخدم الذين يكنّون لها كلّ مودّة ـ امرأة شابّة، بشوشة ومتحفّظة، سخيّة، نادرًا ما تبقى في البار حتّى ساعةٍ متأخّرة ـ، أسفوا لحالها. وبعد التشاور فيما بينهم، تطوّع زوج نزيلة المستشفى بأن يُطلعَ كبير المشرفين على الأمر ولو تلميحًا. وفقَ سمتٍ منحرف، أمالت ابتسامةٌ شاربَ كبير المشرفين الذي راح، آخر الأمر، يدوّن على قفا بطاقة من بطاقاته الشخصيّة، عنوان طبيب محلّي يزاول المهنة في عيادة قائمة في ٣٣ شارع دولاباغود ـ كارانيسوارار، عندَ ناصية شارعٍ تجاريّ.

أمّا بيليار الذي لم يبرح الحجرة، فقد بقي، منذ عودته عمليًّا، في حالة سباتٍ متواصلة. هزّته غلوار قبل أن تغادر:

ـ سأذهب، أخطرته قائلة، أعتقد أنّني اهتديتُ إلى من يعالج أرقي.

ـ سوف نرى، غمغم الكائن الضئيل قائلاً وهو يتقلّب على السرير.

ثمّ خرجت في عزّ القيظ الذي يشتدّ في فترة ما بعد الظهيرة. بقرب البوّابة، في الظلّ، كان سوّاقو الريكشو نائمين فوق مقاودهم. No problem، قال سانجيف بعد فكّه رموز العنوان، وقبل أن يدير محرّكه.

أوصلها إلى العنوان: كان الشارع مزدحمًا بالحوانيت المتلاصقة من كلّ نوع: تجّار مضخّات ونبّاضات وأنابيب



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وألوان وجصّ وحبال، وحرفيّو أدواتٍ كهربائيّة، وسمكريّون، ومزيّنون. أي كلّ ما هو موجود في أنحاء العالم كافّة، سوى أنّ هذه المؤسّسات جميعها، التي لا تزيد مساحة كلّ منها عن ستّة أمتار مربّعة، متشابهة فيما بينها، فهي مسقوفة بورق النخيل المجدول والألواح والقشّ، وأرضيّاتها من التراب المطروق.

ما إن ترجّلت من عربة سانجيف، لاقت غلوار صعوبةً في الاهتداء إلى عنوان الطبيب: أوّلاً لأنّ مباني الناحية لم تكن واضحة الترقيم، وثانيًا لأنّ محتوى الدكاكين لم يكن دائمًا متطابقًا مع ما تعلنه يافطاتها. هكذا، لمّا اهتدت أخيرًا إلى لوحةٍ كتب عليها «عيادة الدكتور غوبال»، كانت هذه اللّوحة مثبّتةً على الواجهة الأماميّة لدكّان تاجرِ أدوات موسيقيّة، حيث رجلان موسوما الجبين بطلاء ما يتناقشان بحدّة ولا أثر من حولهما لدفاتر التوليفات الموسيقيّة أو الآلات أو شرائط التسجيل.

وقفت حائرةً: على الرصيف، لجهة اليسار كان أحد الحوانيت يحتوي على آلتين متقابلتين، الأولى هي آلة كاتبة والثانية ماكينة خياطة؛ لجهة اليمين، حانوت آخر يوفّر خدمات تصوير المستندات والتليكس والفاكس. في الأعلى، عند مؤخّر الحانوت كان رسّامان يقفان على سقالةٍ من الحبال والقصب ينجزان لوحةً إعلانيّة عملاقة لم يتّضح موضوعها: شراب كحولي أو سجائر، أجهزة تلفزيون أو غسّالات. بادر سانجيف إلى الاستفسار لدى مالك دكّان التصوير الذي أرشده إلى مكان العيادة: عند مؤخّر فناء داخلي، بعد عطفة زقاق، قبالة معبدٍ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

مكرّس لإلهة الجُدريّ.

مراوح وحُصُر تالفة، كانت حجرة الانتظار في العيادة مجهّزةً بوسائل اتّصال حديثة. وثمّة امرأة شابّة تتولّى شؤون الزبائن من وراء شاشة كمبيوتر، وقد رصّعت أرنبة أنفها بلؤلؤة، وزيّنت بخاتم السلامية الثانية من الإصبع الثانية من كلّ رِجل. ما إن أُخطِرَ بمجيء غلوار، ظهر غوبال الذي اقتصرت زينته، هو، على خاتمٍ بفصّ هائل الحجم في سبّابته اليمنى.

سوى ذلك، وعلى الرّغم من سلوكه الذي يليق بأسقف، كان الطبيب مبتذل الهندام. قميص قصير الكمّين فضفاض فوق وزرة مزيّحة بخطوط خضرٍ عُقِدت من الأمام على نحو مرتجل، وخفّان صينيّان شعبيّان يكسوان قدميه. شعرٌ كستنائي خطّه الشيب مُشبَعٌ بالدهونِ مقوّسٌ عند القذال بتموّجاتٍ طفيفة؛ نظّارة كبيرة هيكلها من الرخام وزجاجها مكبّرٌ على نحوٍ مفرط، بحيث لا يُرى من عينيه سوى بؤبؤين وقزحيّتين وقد تضخّم حجمها الطبيعي عشرة أضعاف.

بعد أن شرحت له غلوار معاناتها، تبادلت هي وغوبال بالإنكليزيّة بعض الأسئلة والأجوبة الروتينيّة ـ الحالة الصحيّة العامّة، أمراض الطفولة، سوابق عائليّة، طبيعة العَرَض. أبدى غوبال استسهاله لهذا الاضطراب الذي قد يُعالج، برأيه، بعقارٍ فيديّ ملائم. فتّشَ محتويات درج مكتبه ثمّ أخرج منه علبة من الأقراص الداكنة، عدّ حفنةً منها ثمّ وضعها في مغلّف صغير من الورق الأسمر؛ قرص قبل النوم لمدّة عشرة أيّام، هذا كلّ شيء.. ألف روبيّة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بينما كانت غلوار تغادر العيادة وغوبال يسارع إلى الهاتف طالبًا الرقم الشخصي لكبير المشرفين، كان سانجيف ينتظر المرأة الشابّة في الخارج. هل هو طبيب جيّد؟ سألها.

ـ الظاهر أنّه ليس سيّئًا، قالت غلوار، ربّما كان من الأفضل أن تستشيره بشأن هذا الزكام.

ـ مُكْلِف، قال سانجيف، لا بل باهظ الكلفة في نظري.

ـ خذ، قالت المرأة الشابّة وهي تفتّش في حقيبة يدها.

ـ شكرًا، قال سانجيف، هذا كَرَم زائد.

ـ إنّه مبلغ تافه في نظري، قالت غلوار.

أوصلها سانجيف إلى النادي الكوسموبوليتي، وعاد مسرعًا إلى العيادة، فدخلت هي إلى غرفتها. كان بيليار حيث تركته، غير أنّه لم يكن نائمًا. بدا هادئًا، حليق الذقن، مهندمًا، منتعشًا. وسأل غلوار عمّا فعلت في هذه الأثناء.

ـ إذا أردتِ رأيي، أنا، لا أنصحكِ بالتردّد على هذا الرجل، نصحها قائلاً بعد وقتٍ ناثرًا الأقراص فوق راحته الضئيلة. لو كنت في حالتك للزمتُ الحذر حيال هذا الشخص.

في الأثناء كان الشخص يعاين سانجيف بدقّة وأناة: باستثناء هذا الزكام المزمن الناجم عن تحسّس فيما يبدو، كان الشاب يتمتّع بصحّة ممتازة.

ـ أرى جيّدًا ما هي العلّة، قال، سأصف لك مستحضرًا بسيطًا سوف يرضيك حتمًا.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

من قعر درجٍ آخر من أدراج مكتبه أخرج غوبال قارورة مملوءةً بمسحوقٍ داكن، هو الآخر، سكبَ منه حفنةً طيّ ورقة مثنيّة أربع مرّات جاعلاً منها مغلّفًا مستويًا. خذ، قال له، مرّتين أو ثلاث مرّات في اليوم من طريق الأنف، هذا كلّ شيء، عشر روبيّات.

عاد سانجيف إلى النادي؛ جلس على المقعد الخلفي لعربته لينشقَ بعضَ هذا المسحوق بحسب وصفة الطبيب. وبالفعل، شعر بالراحة على الفور، متهالكًا على مقعده مسرّحًا أبصاره نحو النافذة التي خلفها كان بيليار وغلوار يتبادلان أطراف الحديث بشأن خطط المستقبل. وحيث باتا يشعران، في قرارة نفسيهما، بأنّ الوقتَ بطيء.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٧

في عيني بوكارا الواسعتين الزرقاوين، كان الوقتُ يبدو بطيئًا أيضًا. لم يعد هناك ما يشغل أوقاته، في هذه الآونة، إلّا أن يسلكَ شارع «الشهداء» صعودًا، ثمّ أن يسلكه هبوطًا، في انتظار تعليمات برسونيتاز.

في تلك الأثناء، كان يسلكه هبوطًا. تحت نعليه تصرّ وتتكسّر شظايا زجاج «سيكوريت» المحطّم، المسودّ أحيانًا، والمنتثر حفناتٍ حفناتٍ على الأرصفة وفي المجاري، وبجانب السيّارات التي سُلِبَت للتوّ أجهزة تسجيلها. توقّف أمام محلّ للوشم عُرِضَت في واجهته كلّ الطُرُزِ والأشكال. علاوة على الأشكال البسيطة التي تستهوي المتورّعين ـ أشكال أزهار وحيوانات صغيرة ـ، كانت هناك تنويعات أوسع وأكبر حجمًا للهواة الفعليين والتي تصوّر مشاهد مكتملة، أو ملكاتِ ليل، أو أبطال أدغال، أو فهودًا مفتولي العضلات. في البداية راوده ميلٌ غامضٌ إلى دخول المحلّ، غير أنّه سرعان ما أعرض عن فكرته هذه. لقد أنبأته الساعة، بأيّة حال، بأنّ الوقت قد حان للتوقّف عند أوّل هاتف عمومي والاتّصال، كعادته كلّ يوم، ببرسونيتاز.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كان هذا الأخير، ومن دون الحاجة إلى مساعدة الفتى، قد اهتدى، على ما يبدو، إلى مكان غلوار: سننطلق مجدّدًا، يوم غد. هذه المرّة أيضًا رحلتنا ستكون طويلة، قال، أقصر من الرحلة الفائتة، لكنّها طويلة على كلّ حال.

ـ مهلاً، قال بوكارا، إلى أين وُجهتنا بالضبط؟ (استدارت عيناه). ماذا؟ (تنهّد بقوّة). لا، لكن مهلاً، لم نتّفق بعد. الأمراض المعدية المتفشّية هناك، لا تحصى. فكيف سيتّسع وقتي لإنجاز كلّ اللّقاحات اللّازمة؟

ـ لا تقلق، قال برسونيتاز، لقد استعلمتُ بهذا الشأن. لم يعد التلقيح إلزاميًّا.

ـ وماذا عن الملاريا؟ قال بوكارا. الملاريا تتطلّب علاجًا وقائيًّا كاملاً. مع كلّ هذا البعوض والرطوبة والمطر هناك. الأمطار غزيرة هناك. أنا أعلم ذلك.

ـ لقد استعلمت بهذا الشأن أيضًا، ردّد الآخر متضجّرًا، لقد انقضى موسم الحصاد. لذلك لا بدّ أنّ الطقس بات أَمْيَلَ إلى الحرّ.

ـ حسنًا إذًا، قال بوكارا متفكّرًا، نحتاج إلى ملابس خفيفة، قطنيّة. مع ذلك سأحاول أن أتدبّر ناموسيّة. ثمّ المطر، من يدري برغم كلّ شيء. سأحمل معي الكواي خاصّتي.

ـ أحسنتَ، قال برسونيتاز، خُذ الكواي معك.

نظرًا لعدد رحلات الطيران التي قمنا بها في السابق والتي سنقوم بها لاحقًا، لا نجد أيّ فائدةٍ في وصف الرّحلة التي قاما بها في اليوم التالي. إذ لم يتخلّلها أيّ حدث غير معتاد. الرّحلة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

٧٤٧ على متن الطيران الهندي التقليدي، حيث لا خيارَ آخر بين الوجبة النباتيّة أو لا وجبة على الإطلاق، وحيث الساري المرجاني الذي ترتديه المضيفات، والموكيت المعرّق وموسيقى المصعد المصاحِبة.

لا، لم تشهد رحلتهما ما يستحق الذكر، إلّا عندما لفَتَت برسونيتاز، لدى هبوطهما في مطار دلهي، ظاهرةٌ غير معتادة أبصرها من مسافةٍ غير قريبة. لمّا كان واقفًا وراء بوكارا في الصفّ أمام نقطة المراقبة الجمركيّة، لاحظ فجأةً أنّ جمهرةً صغيرة من الناس تحتشد، في الأثناء، وراء المِرقَب. مجموعة من الناس الذين يبذلون بسماتهم العريضة وإن بدا سلوكهم رسميًّا، بعضهم يرتدي زيّ الطيران المدني وبعضهم الآخر الزيّ الإداري الرسمي، وقد أحيطوا بالزهور وعَلَتهم يافطة مبهمة، بضع كلمات بالهنديّة شُكَّ بعضُها إلى بعض بسِلْكٍ وتُرِكت تجفّ معًا. راح برسونيتاز يصرّ بأسنانه إذ خيّل إليه، في البداية، أنّ العيون الشاخصة والابتسامات العريضة موجّهة نحوه. ثمّ كلّما كان يقترب ازداد يقينًا أنّه ليس الشخص المعني، بل إنّ الجمع كان مندفعًا نحو بوكارا. بوكارا الذي كان يسير قُدُمًا لا يلوي على شيء، واضعًا يده على بطنه، لضيق أَلَمّ به وسبّب له الغثيان.

وبالفعل، ما إن اجتاز الشاب نقطة التفتيش حتّى لمعت فلاشات الكاميرات وعلا التصفيق مصحوبًا بمعزوفة تشريفات مقتضبة. تقدّم رجل متحمّس قصير القامة ذو شاربين وبذلة غامقة وصافح بوكارا بحرارة، فيما سعت يد أخرى لسحبِ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

نظّارته من جيبه، وبيدٍ ثالثة لسحبِ قصاصة ورق من جيبٍ آخر، ثمّ شرع بقراءتها. فالتفت بوكارا الذي لا يتقن جيّدًا اللّغة الانكليزيّة، مذهولاً.

ـ ماذا يقول؟

كان برسونيتاز محبطًا يدعك جواز سفره بيده كما تُدعك علبة سجائر فارغة.

ـ يقول إنّكَ الراكب المليون على متن هذه الرّحلة، قال مترجمًا. ويقول إنّهم عازمون على الاحتفال للمناسبة.

ـ وبعد؟

ـ أعتقد أنّ أحدنا لن يرى الآخر لبعض الوقت.

وبالفعل، بعد التهاني، عدّد الرّجل القصير المنافع والهدايا والرحلات البحريّة التي سيحظى بها، سعيد الحظّ، بوكارا السعيد. عندما طوّق عنق مساعده بعقدٍ أوّل من الزهور، رفع برسونيتاز أنظاره نحو السماء. هو أيضًا لن يكون مزاجه مؤاتيًا لوصف هذه الرّحلة وهو في طريق عودته على متن الطائرة، وحيدًا، على مقعدٍ لجهة الممشى.

باريس. برد قارس، وجوّ سيّئ. حتّى دوناتيان، الملتحفة على غير عادتها، لم تنزع، برغم ضيقها، معطفَها داخل المكتب.

ـ أشعر بأنّي أراوح مكاني في موضوع الشقراوات الفارعات، لاحظ سالڤادور قائلاً.

ـ انّنا نراوح مكاننا منذ البداية، قالت، وفي المواضيع كافّة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ فقدت الوجهة، فقدت وجهة البحث، قال سالڤادور. هل تشكّل المقاسات وجهة بحث؟ ما رأيك بجاين منسفيلد؟ وما رأيك بالفضاء الخارجي كوجهة بحث؟ أقصد أمرًا كالتالي: لطالما اعتقدتم بوجود رجالٍ خضرٍ قصار القامة. والحقيقة مغايرة، إنّهنّ فتيات شقراوات فارعات الطول.

لمّا كانت دوناتيان قد آثرت السكوت هذه المرّة، جاء وقع طرقتين على الباب ليعكّر أجواء الصمت تلك، ثمّ لم يلبث أن فُتِحَ وظهر برسونيتاز واقفًا في صدعه. الرجل بدا مقطّبًا، مشدودَ القسمات، لمّاع النظرة، جافّ الحلق. الرّجل بدا متعبًا. الرجل هيّأ نفسه، سيكولوجيًّا، ألاّ يلقي ولو نظرة واحدة على دوناتيان، ولكن لا يسعه إلّا أن يفعل خلسةً. بصره الموارب أنباه بوجود معطف. فاطمأنّ الرّجلُ على نحوٍ غامض. هذا أنتَ يا برسونيتاز، قال سالڤادور، ظننتكَ بعيدًا جدًّا.

ـ لقد فقدتُ بوكارا، قال برسونيتاز.

يرمقه سالڤادور بنظراتٍ مستفهمة، مشيعةً مرّة أُخرى الصمتَ الذي سرعان ما ترجّه ضحكة دوناتيان المجلجلة. في معرض سرده للوقائع، يسعى برسونيتاز جاهدًا لكي لا تقع عليها نظرةُ القاتلِ الذي ليس هو، لأنّه فشل في اختبار معهد القَتَلة.

ـ أما كنت تستطيع أن تكمل البحثَ بمفردك؟ سأل سالڤادور.

ـ هذا مخالف لعاداتي، قال برسونيتاز، فأنا لا أعمل إلاّ برفقة مساعد. لا مانعَ لديّ من متابعة القضيّة، ولكن ينبغي أوّلاً أن تجدوا لي مساعدًا آخر.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ إنّ أمرًا كهذا لا يدخل في نطاق اختصاصي، قال سالڤادور، ولا أرى أحدًا هنا يستطيع أن يعثر لك على مساعد. ألديكِ أنتِ أيّة فكرة بهذا الشأن؟

ـ طبعًا، قالت دوناتيان.

ـ أرأيت، قال سالڤادور، هذه أفضل مزاياها، فهي دائمًا حاضرة الذهن لنبش الأفكار الناجعة. مَن تقترحين؟

ـ أنا، قالت دوناتيان بإيجازٍ شديد.

ـ يا لها من فكرة عبقريّة، قال سالڤادور.

ـ مهلاً، قال برسونيتاز، أرجوك. أفضّل ألاّ تفعلي.

ـ سأتحقّق من مواعيد الطيران، قالت دوناتيان وقد باشرت تنظيم العمل بالفعل، أوديل ستُعنى بمسألة التذاكر، وجيرار سيتولّى أمر التأشيرات، بإمكان جيرار أن ينجز المهمّة بسرعة قياسيّة.

ـ أرجوكِ، ردّد برسونيتاز قائلاً. أصغي إليّ لثانيتين.

والحال أنَّ أحدًا لم يصغ إليه. وأنّ حياته ستشهد تبدّلاً حاسمًا. إنّه يرى ذلك، إنّه يعلم ذلك، وسوف يندم. كان بوكارا غالبًا ما يثير حَنَقه، غير أنّه سيفتقد بوكارا. بوكارا الذي يعيش بلا ريبٍ أجمل أيّام حياته، مسافرًا في الدرجة الأولى، من قصر إلى قصر، محتسيًا الأنخابَ برفقة الطيّارين، فيما الموسيقى تنبعث صاخبةً من مكبّرات الستيريو، معانقًا المضيفة في حجرة المغاسل، مستنشقًا خطوطَ الهيرويين أثناء رحلات اللّيل، في المطبخِ الصغير، برفقة المضيف، بعد أن ينام الجميع.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

في تلك الأثناء، كان سانجيف يدخل عيادة الدكتور غوبال في شارع دولاباغود ــ كارانيسوارار:

ــ هل صرتَ أفضل حالاً؟ سأل الطبيب، هل أرضاكَ العلاج؟

ــ أفضل حالاً بما لا يُقاس، أجاب سانجيف، وراضٍ جدًّا.

يبدو مسرورًا بالفعل لتحسّن حاله، إذ تحمرّ عيناه من شدّة اللّذة، وتضمر حدقتاه من شدّة البهجة. نظرته راضية على الدوام.

ــ إنّي في حالٍ أفضل، حقًّا، يقول بإصرار. وأريد المزيد من هذا العقار.

ــ لا مانعَ، قال الطبيب، أعتقد أنّه يلائمك فعلاً. نحن على درب الشفاء الصحيح، ولذلك سنعدّل الجرعة. وما عليك إلّا أن تزيد الجرعات قليلاً. سأعطيك عشرة غرامات من هذا الدواء.

ــ عشرة غرامات ليست كمِّيَّة كبيرة، قال سانجيف مستعينًا بذاكرته.

ــ أنظر، قال له الطبيب وهو يدسّ طرف أصابعه داخل درج مكتبه.

يستخرج منه مغلّفًا مثنيًّا كما في المرّة السابقة، لكنّه أكبر حجمًا بخمسة أو ستّة أمثال. عشرة غرامات هي كمِّيَّة أكبر بكثير ممّا كان سانجيف يعتقد، سانجيف تغمره البهجة.

ــ ثمّ إنكَ ستكفّ عن تناوله من طريق الأنف، يوصيه الطبيب قائلاً، سأعلّمك كيف تحقنه، الأمر بسيط جدًّا.

ــ إذا قلت إنّه أمر بسيط، فهو إذًا كذلك، قال سانجيف،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كيف لي أن أعبّر عن امتناني؟

ـ لا داعي لذلك، قال الطبيب، لا تشكرني. كما سترى، لن أتقاضى منك سوى عشر روبيات، ولا أطلب شيئًا بالمقابل. أو بلى، ربّما القليل القليل من دمك، كما ترى لا أطلب سوى القليل. هل تمانع؟

ـ خذ منه ما شئت، قال سانجيف هاذيًا.

ـ يجب أن يبقى الأمر سرًّا بيننا، يقول غوبال موضحًا. هذا دم، كما ترى، لذلك فإنّ الأمر أشبه بميثاق.

ـ طبعًا، قال سانجيف متهيّبًا.

ـ هذا إذًا أمرٌ تافه لا يُذكَر، سآخذ لترًا واحدًا من دمك. ألا تمانع حقًّا؟

ـ No problem، قال سانجيف.

ـ ثمّ بإمكانك أن تعود متى تشاء، كما تعلم، قال غوبال. شمّر عن ساعدك قليلاً.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٨

ـ هذا الفتى في حالٍ يُرثى لها، شَخَّص بيليار قائلاً بعد بضعة أيام.

كان يُراقبُ بواسطة منظارٍ على مقاسِه، عبر النافذة المفتوحة، سانجيف المتهالكِ فوق مقود عربته تحت الشمسِ وسط النباتات الخضراء، أمام بوّابة النادي الكوسموبوليتي.

ـ ألن تحاولي الاستفسار عن حاله؟

كانت غلوار قد استردّت قدرتها على النوم بفضل عنايةِ غوبال، وكفّت عن اهتمامها المفرط بالمراوح. والحال أنّنا كنّا في عزّ ساعات القيلولة: لا جَلَد لي على ذلك، غمغمت قائلةً من دون أن تفتح عينيها، دعني وشأني. أقول لكِ، هيّا، اذهبي إليه، ألحّ بيليار قائلاً. يُخيّل إليّ إنّه ليس على ما يرام.

كانت تتثاءب وهي تجتاز قاعة المكتبة باتّجاه الموقف المخصّص لعربات الريكشو. السماء فوق رأسها محتجبة وراء الخطوط التي يخلّفها عبور طائرات الشحن النفّاثة، مزيّحة بندوب بيضٍ سرعان ما تلتئم. كانت أغصان الألبيزيا تهتزّ برفق



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

إذ تمرّ بها، والضفادع الهانئة في مستنقعها تواصل التهام الحشرات. اجتازت غلوار البوابة، وتوقّفت هنيهة: من هنا ترى فعلاً أنّ سانجيف ليسَ على ما يُرام.

الواقع أنّ نشاط الرّجل شابَه بعض التراخي في الآونة الأخيرة. زكامُه الذي شهدَ تحسّنًا ليومين أو ثلاثة، لم يعاوده وحسب بل راح يزداد سوءًا على نحوٍ ملموس. كان يسعل، ويتحدّب. حتّى اعتدال مزاجه لم يعد بالثبات الذي كان عليه. إذ بدا سانجيف مؤخّرًا أقلّ نشاطًا وأقلّ قدرة على التركيز، وبدا غضوبًا، نهمًا لأيّ كسب إلى حدّ النفاق. ومع ذلك كانت ثقته بغلوار متينةً بمقدارٍ يجعله قابلاً لمصارحتها ـ عندما جاءت إليه لتهزّه برفق وتسأله إذا كان على ما يرام، وللاستفسار، في معرض ذلك، عن التغيّر الذي طرأ على سلوكه مؤخّرًا ـ بأنّ عقار الدكتور غوبال قد يكون هو السبب، بالإضافة إلى تزايد كمّيّات الدم التي تؤخذ منه. فهو في تأقلمه السريع مع آليات الحقن الوريدي، أضحت حياته مقتصرةً على هذه الحركة المستمرّة للحقنِ في الاتّجاهين. رمقته غلوار بنظرات ثابتة من دون أن تنبس بكلمة في البداية. ثمّ قالت له انتظرني هنا، سأعود.

ـ لقد حذّرتك من هذا الرّجل، ذكّرها بيليار قائلاً بُعَيْد فراغها من سرد الوقائع بإيجاز. هل أدركتِ الآن أنّه خليق بأفعال كهذه. مع أنّه أحسن في علاجك برغم كلّ شيء. تمهّلي، ماذا تفعلين؟

ـ أبدّل ملابسي، قالت غلوار وهي تستخرجُ ثلاثة أثواب من الخزانة. كنت محقًّا، لكنّنا لا نستطيع أن نقف مكتوفي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الأيدي. سأذهب إليه.

غطّى بيليار جبينه براحة يده: هل فقدت صوابها أم ماذا؟ إنّي أحذّرك بشدّة، قالَ بلهجة حاسمة، لا تتدخّلي في هذه المسألة. ما جرى قد جرى. إنسي. لا تذهبي إليه. مهلاً. انتظري. عودي. عودي. ولكن بمضي عشرين دقيقة كان سانجيف، المتصبّب عرقًا، الجاحظ العينين، يقلّ غلوار إلى شارع دولاباغود ـ كارانيسوارا.

استقبلها غوبال على الفور، بنظرته المتضخّمة وراء زجاج نظّارته وبسمته المرمريّة. جلست قُبالتَه من دون أن تنبسَ بكلمة. واضحٌ جدًّا أنّك أحسن حالاً، قال الطبيب، مظهرك يدلّ على ذلك. أحسب أنّ العلاج يُلائمك. سنتابع العلاج ولكن أودّ أن نبدأ اليوم بتمارين استرخاء. تبًّا لكَ ولاسترخائك، أجابت غلوار، إنّك حقًّا لوغد. ماذا تقصدين؟ سأل غوبال. لستَ سوى كومة قذارة، تابعت قائلةً، وأنا أعلم ماذا فعلتَ بالصغير. الصغير؟ أجاب غوبال. الصغير الذي يقود عربة الريكشو، قالت غلوار. مَن منهم؟ قال غوبال مبتسمًا. أنتَ رجل مقيت، قالت غلوار، يجب أن أبلّغ عنك لكي تُسجَن، وسأبلّغ عنك لكي تُسجَن. حسنًا، قال غوبال متأنّيًا في تدوين سمات هذا العَرَض الجديد على دفتر ملاحظاته، جيّد جدًّا. وسكتَ لبعض الوقت.

إنّي أدرك جيّدًا حقيقة هذا الأمر، قال أخيرًا، وأفهم جيّدًا ما تقولين. ولكنّي أخشى أنّ مثل هذا التصرّف ليس في مصلحتك، سوف أستدعي زميلي. إنّي أحذّرك، قالت غلوار،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

دَعكَ من هذه الألاعيب. هناك من يعلم أنّني هنا. طبعًا، قال الطبيب، لا تقلقي، سيشرح لك زميلي كلّ شيء. ومدّ إصبعه نحو جهاز الهاتف الضخم وضغط زرًّا: فإذا بستارة ترفَع عند الطرف المقابل من الحجرة، ويظهر خيال كبير المشرفين بشاربيه الدقيقين وبسمته الهلاميّة ونظرته الثاقبة.

بمضيّ ساعتين كان بيليار يستلقي متكاسلاً بملابسه الداخليّة على السرير عندما عادت غلوار إلى حجرتها. كان مكياجها الخفيف قد ساحَ واختلطت ألوانه، وهُرِعت إلى الثلّاجة الصغيرة تسكب لنفسها كأسًا. ماذا أصابك، قال الكائن الضئيل، هل رأيت سحنتك؟ كانت ترتعد فلا تحسن سكبَ الشراب في كأسها. لن تصدّق، قالت، لن تصدّق على الإطلاق.

ـ أحسب أنّني، بلى، سأصدّق، قال بيليار ببرودة لافتة. لقد التقيتِ كبير المشرفين، أليس كذلك؟

على الرّغم من أنّه لا يعلم، في المبدأ، شيئًا من تحرّكات غلوار إلّا ما تطلعه، هي، عليه، الظاهر أنّ بيليار يعلم، من مصادر أخرى أو ببصيرته الثاقبة، كلّ أو بعض ما يجري في حياة المرأة الشابّة. التي لا تعير الأمر انتباهًا. التي تجلس على السرير. مع ذلك، احكي لي، قال. حسنًا إليكَ ما جرى. لقد قاما بتحرِّياتٍ، ويبدو أنّهما يعلمان كلّ شيء. الظاهر أنّ كبير المشرفين هو الذي تولّى إجراء التحرّيات ثمّ أخطر غوبال بكلّ المعلومات التي جمعها بشأن غلوار. وبعد أن قالا إنّهما على صلة وثيقة بالشرطة المحلّيّة، هدّداها بأوخم العواقب إذا حاولت أن تعترض طريقهما.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ ولكن، صاح بيليار قائلاً، ألم تخبريهما أنّك سدّدتِ دينك للمجتمع. وأنّه لا مأخذ عليك مبدئيًا. فلم يعد هناك ما يدعو إلى ملاحقتك.

طبعًا قالت لهما ذلك. ولكن غوبال: ما الذي يحول، على سبيل المثال، دون لفتِ النظر إلى فترة إقامتك القصيرة في أستراليا؟ فقدت غلوار سيطرتها على نبرات صوتها حين سألته ما القصد من قوله هذا. (جواب ماكر، قال بيليار معلّقًا). لا أقصد شيئًا محدّدًا، أجاب غوبال متبسمًا، إنّه مجرّد حديث، لا أكثر. بإمكاننا أن نتحدّث عنك، بإمكاننا أن نثير حديثًا عنك، لكنّنا لن نفعل. فقد نحتاج إليك. ماذا، سألت غلوار، ماذا تقصد؟ (من حسن إلى أحسن، لاحظ بيليار). سوف نرى، قال غوبال، سوف ترين أنّنا سنلتقي مجدّدًا. هذا كلّ شيء.

فكّر بيليار لبعض الوقت ثمّ هزّ كتفيه.

ـ إنّها خدعة، حديثهما عن أستراليا ليس أكثر من خدعة، قال، لا أحد يعلم بالأمر. أعلم ذلك جيّدًا. لقد كنت هناك. ليس لديهما ما يدينك.

مرّر ظفره بسرعة على سنّيه الأكثر اصفرارًا، ثمّ ألقى نظرة خاطفة على ما اجتمعَ تحته.

ـ طبعًا، قد يكون هناك طريقة ما، أردف قائلاً، هل تودّين التخلّص منهما؟ أنتِ تعلمين أنّ هذا الأمر ممكن. الأسلوب نفسه، نعثر على جرف ما، ثمّ دفعة صغيرة وينتهي الأمر.

ـ لا، قالت غلوار، لا نستطيع. عددهم كبير وأخشى أن



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

يكونوا منظّمين جيّدًا.

كانوا منظّمين بالتأكيد. كان الخدم العديدون يدخلون إلى حجرتهما كلّ يوم وبألف ذريعة، ريّ النباتات أو تنظيف الحجرة أو إحضار الشاي، أو صحيفة الصباح، أو صحيفة المساء، لإحضار الملاءات والأغطية أو الشرائط اللاصقة المضادّة للذباب. فليس مستهجنًا أن يكون كلّ غلامٍ مخبرًا محتملاً لغوبال بواسطة كبير المشرفين.

لم تكن الأيّام التالية أيّامًا سارّة، كفّت غلوار عن تبادل الحديث مع بيليار، وفقدت ثقتها بالجميع، حتّى أنّها اشتبهت بأمين المكتبة وبزوج نزيلة المستشفى. وعلى غرار ما انتابها في ذروة أرقها خلال الأسبوع المنصرم، لازمت حجرتها مجدّدًا، مُحكِمةً إقفال الباب بوجه العاملين، متخلّفةً عن مواقيت الغداء ريثما يغادر الجميع المطعم في أوقات القيلولة.

لكنّ المؤسف أنّ في أوقات القيلولة لا ينام الجميع. بعد ظهر ذات يوم، وبينما كانت تغادر المطعم نحو الساعة الثالثة، أبصرت غوبال برفقة كبير المشرفين جالسَيْن إلى البار المجاور. بدا الرّجلان مستغرقين في حديث مهمّ. حاولت غلوار أن تحتجب عن أنظارهما قدر المستطاع، عابرة كما يعبر ظلّ من بعيد. ولكن إذا كان غوبال حسير النظر إلى حدّ بعيد، فإنّ كبير المشرفين لا يعاني علّة في بصره. ولمّا لمحها بطرف عينه، انحنى هامسًا في أذن الطبيب الذي استدار فجأةً ملتفتًا نحو المرأة. يا لها من مفاجأة سارة، قال، هل نقدّم لك شرابًا منعشًا؟

غير أنّها لم تجد ما ينعشُ القلبَ في كلامه هذا. إنّما أردت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أن أراك مجدّدًا، قال، ولن أقبل بالرفض. أودّ أن أعهد إليك بغَرَضٍ أريد أن أرسله إلى أحد أقاربي في بومباي. أنتِ تعلمين جيّدًا، قال على سبيل المزاح، أنّ خدمة البريد هنا أشبه بخدمة البريد في إيطاليا، كما تقولون أنتم، وكم أودّ أن يتمّ تسليمه باليد، بواسطة مرسال خاص. فهل تتولّين الأمر؟ وطبعًا، تكاليف الرحلة مدفوعة.

ــ أعلم ما هو، قالت غلوار.

ــ أحسب أنّكِ تعلمين، قال غوبال، ولكنّني أحسب أيضًا أنّكِ ستفعلين ما أطلبه.

ــ مستحيل، قالت غلوار.

ــ أنتِ مخطئةٌ بموقفكِ المرتاب هذا، قال غوبال. الأمر لا يُلزمك بشيء، ولا تخاطرين بشيء، وطبعًا ستنالين تعويضًا مناسبًا. لا تقولي إنّك ترفضين عرضي، ردّد قائلاً. وخصوصًا لأنّ معلومات أملكها تقول إنّه من الأفضل لكِ أن تتغيّبي بضعة أيّام عن هذا المكان.

نهضت غلوار: ماذا تقصد بكلامك؟ إنّما أطلعكِ على ما وردني من معلومات، أجاب غوبال، وأصارحك مباشرة بما يجول في خاطري. دعني أفكّر قليلاً، قالت. طبعًا، طبعًا، قال غوبال، فكّري مليًّا. حتّى لو كان التفكير لن يجديكِ نفعًا، لا بأسَ بذلك، فأقلّ الإيمان أن تفكّري. فور عودتها إلى حجرتها، تشاورت مع بيليار.

ــ طلبه هذا ليس مفاجئًا، قال. حسنًا إذًا، كيف سنتصرّف؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ تسألني أنا، قالت، ألستَ أنتَ صاحب الأفكار كلّها.

ـ فكرتي الوحيدة في الوقت الحاضر تنبئني بأنّنا ينبغي أن نجاريه، قال بيليار. تغيير جوّ. ثمّ، سألها، هل لدينا ما نخسره وقد بلغنا ما بلغناه؟

ـ لا أدري، قالت، كما تشاء.

ـ أجل، قال بيليار، الأفضل أن نبتعد. ثمّ أنّنا في بومباي سننعم بقدر أكبر من الطمأنينة. إنّها مدينة كبيرة، لا أحد يعرفنا هناك، ولا نعرف أحدًا، فيتركوننا وشأننا. ثمّ أنّني لم أر بومباي من قبل، وهذه سانحة، أليس كذلك؟

لم تردّ عليه فورًا. كانت تجلس، بالعرضِ، على السرير، وقد شبكت ساقيها إلى الأمام، منصرفةً إلى تقليب صفحاتِ نسخةٍ من البهاغافاد ـ جيتا كانت موجودة في الحجرة إلى جانب نسخة من التوراة.

ـ أين كنتَ؟ قالت.

ـ ماذا تعنين بأين؟ أجاب بيليار على السؤال بسؤال. ومتى؟

ـ عندما كنتُ أنا في بومباي، أين كنتَ أنتَ؟ هل حقًّا مكثتَ في سيدني؟

ـ لا تزعجيني بسؤالٍ من هذا القبيل، قال بيليار، أنت تعلمين جيّدًا أنّنا لا نتحدّث في أمور كهذه. لي كلّ الحق في أن تكون لي حياتي الخاصّة. الأحرى أن تذهبي إليه وتخبريه بأنّنا سننفّذ ما يطلبه.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ثمّ إثر عودة غلوار إلى البار:

ـ كنت واثقًا من ذلك، قال غوبال. ستغادرين إذًا في الصباح الباكر.

ـ بهذه السرعة؟

ـ صدقي ما أقول، من مصلحتك أن ترحلي بأسرع وقت ممكن.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ١٩

مهما جَمَعَ الدكتور غوبال في شخصِه من صفات الفظاظة والخداع وعدم الاستقامة، فإنّه، لهذه المرّة في الأقل، لم يكن كاذبًا. بعد ظهيرة اليوم التالي، كانت سيّارة ليموزين أمباسادور مؤجّرة تسلك ببطء شارعَ سينوتاف باتّجاه النادي الكوسموبوليتي.

شارع سينوتاف هو شارع فرعي هادئ ذو طابع سكنيّ وإن كان كثير الغبار، أشبه بممرّ محاطٍ من الجانبين بأشجار الأكاسيا الضخمة المنبثقة من أجماتٍ كثيفة شائكة. على جانبيه أيضًا، وبمسافاتٍ فاصلة فيما بينها لا تتعدّى المئة متر، تنتصبُ، على التوالي، ڤيلات بيضاء فسيحة ذات سطحٍ مستوٍ معتمرٍ بأطباقٍ لاقطة، وبوّابة ثبّت عليها تحذير من وجود كلب، برغم غياب أيّ أثر لكلبٍ، وبجانبِها حجرة حيث يقيل حارسٌ في زيّ شبه عسكريّ، خاكيّ، مفكوك الأزرار، وزنّار وشارة وقبّعة بيريه جانبيّة. محاطةً بحدائق ذات أسوار. لا يزيد ارتفاع الڤيلات عن طبقتين بشرفات متدرّجة، وأبراج صغيرة، وبلكونات وأفاريز محميّة بستائر معدنيّة، أو بخيمٍ أو بحصرٍ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

من قصبٍ أو بطرزٍ حديثة متنوّعة من المشربيات.

لا يلتقي العابر إلّا قلّة من ساكني هذه المباني. أحيانًا، من بعيدٍ تلوح أخيلةٌ مرتديةً بيجامات فاتحة وهي تجتاز الشارعَ مسرعةً من إحدى البوّابات باتّجاه بوّابة أخرى. لعلّه الميل الغالب إلى ألفِ الحياة المنزليّة. تحت ظلّةٍ في صحن الدار، خلف السياجات المضفرة بالأغصان، عجوزٌ بمفرده، أصلع، حسير النظر وذو شاربين يتأرجح جالسًا على أرجوحةٍ وطيئة. ولكن كما تنظر إليه ينظر إليك فتغضي وقد شارفت الحرارة على ٣٥ درجة. كلّ شيء ساكن، يكاد المرء ألّا يسمع صوتًا. نورٌ أبيض ساطع يغشى أشكال الأشياء وألوانها حتّى يُفقدها أحد أبعادها الثلاثة. بكلمة واحدة، إنّه يوم أحد.

كانت الامباسادور، في ذلك الحين، هي الشيء اللمّاع الوحيد في ذلك العالم الباهت. كانت تسير ببطء ولا يصادفُ عبورُها إلّا القليل من المارّة. راكب درّاجة ينقل وعاءً أضخم من ركوبته، ولا تنقضي خمس دقائق حتّى تصادف راكب درّاجة آخر ينقل وعائين من الحجم نفسه. ثلاث نساءٍ قادماتٍ من أحياء أقلّ يسرًا يحزمن أحمالاً من أغصان الكَزْوَرينا اليابسة. من أديم الأرض حتّى أزرق الفضاء كانت فراشات تطير، وببغاوات تحوّم وأسرابٌ من طيور الزاغ تنطلق. زوجان مِثْليّان من سناجب النخيل يغامران، قبل عبور الطريق، بجسّ الجهتين، يسارًا، يمينًا، ثمّ يسارًا...، بضرباتٍ خفيفة من خَطْمِيهما النَتِنَين.

نسران يحوّمان في تحليق دائري فتنعكس صورتاهما على



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

سطحِ الأمباسادور التي بداخلها ثلاثة أشخاص يفكّرون، كلّ على هواه، في مواضيع مختلفة كالجنس، مثلاً، أو المال. كان الرّجل الغربي الجالس على المقعد الخلفي يفكّر فيها على نحوٍ غامضٍ، مرتديًا بذلته التبنيّة المدعوكة. كما كانت المرأة الجالسة بجانبه ــ مرتديةً ثوبًا قطنيًّا فاتحًا ابتاعته قبل يومين من محلّ باريسي للأزياء الاستوائيّة ــ تفكّر فيها على نحوٍ رومانسي حالم. وحده السائق المحلّي في سرواله الكتّان وصداره المتّسخ، كان مستغرقًا على نحوٍ مباشر، في تقدير مقاسات تلك المرأة ودَخْل ذلك الرجل.

نطق الرّجل بعبارتين مقتضبتين جدًّا ما إن شارف شارع سينوتاف على التقاطع مع دربٍ ضيّق لملكيّة خاصّة كان يمتدّ، بعدَ عطفةٍ، وسط أشجار المانغا. سلكت السيّارةُ الدرب. كانت الرؤية منقشعة، فبدا من بعيد، بمحاذاة بوّابة، أنّ هذا الدرب تعترضه حواجز من الإسمنت لتخفيف السرعة وقد انتصبت بقربها، وبموازاة الحاجز المنصوب، لوحة حملت كتابة بلغتين تفيد جميع الناس بأنّ الدخول إلى النادي الكوسموبوليتي محظور، تحت طائلة الملاحقة القانونيّة. وفي أعقاب عبارتين مقتضبتين أخريين، توقّفت سيّارة على بعد خمسة أمتار من العتبة. حسنًا، قال برسونيتاز، أعتقد أنّ هذا هو المكان، سأدخل. انتظراني هنا.

ــ أرجو المغفرة، قالت دوناتيان، ولكنْ سأذهب برفقتك.

ــ كلّا، كلّا، كلّا، صاح برسونيتاز بكلّ النبرات المعروفة مستنكرًا، لطالما كانت هذه المهام من اختصاصي، أنا، وحدي.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ ولكن يجب أن أكون هناك، ألحّت دوناتيان قائلةً، لقد جئتُ لهذا الغرض. وإلّا ما النفع من مجيئي إذًا؟

ـ لا تلحّي، قال برسونيتاز بنبرة حازمة. بأيّة حال، أنتِ لا تملكين لا الخبرة ولا المراس.

مغفّل بائس، غمغمت دوناتيان قائلةً ما إن أغلق الباب. بما أنّ الأمور ستجري على هذا النحو، فلِمَ لا أضاجع السائق. غير أنّها في آخر الأمر لا تفعل شيئًا من هذا وتستغرق في تقليب صفحات دليل سياحي للمنطقة، فيما انهمك السائق، الغافل لحسن الحظّ عمّا فاته للتوّ، في قراءة صفحة العروض الفنّيّة في السانداي ستاندارد.

وفقًا للمخطّط الذي وضعه مخبروه للمكان، سار برسونيتاز باتّجاه المبنى الملحق بالنادي حيث ينزل الضيوف العابرون. كانت العدّة ثقيلة في جيبه من دون أن تشوّه مظهرها ـ مصباح يد صغير وجعبة مفاتيح في الجيب الأيسر؛ وفي الأيمن، مسدّس، على سبيل الحيطة. لم يلتقِ أحدًا في سيره حتّى عتبة المبنى الملحق، واجتاز المدخل باتّجاه المصعد المفتوح ودخله. في غضون الدقيقة التي استغرقها صعوده نظر، هذه المرّة، إلى نفسه مليًّا في المرآة.

الصور التي نبدو فيها أشدّ تعبًا إنّما هي تلك التي تعكسها لنا مرايا المصاعد. ولا فرق في أيّ اتّجاه كنّا سالكين: هبوطًا أم صعودًا، الصورة التي نكوّنها عن أنفسنا دائمًا هي التي تهبط. نقلق، نسأل في قرارة أنفسنا لماذا، ما الذي اقترفناه أمس لكي نستحقّ هذا. غير أنّنا نخطئ إذا ساورنا القلق لأنّ الأمر كلّه



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ليس سوى انعكاس مصباح في السقف. نورُه العمودي الخافت هو الذي يجعل الوجه متربًا، ويحفر الغضون والقسمات وينفخ الجيوب الداكنة تحت العينين. تحت الإضاءة السّافة، تُكثّر المرآة سَقَم السحنة بوتائر سرعة المصعد. المسألة إذًا هي، جوهريًا، مسألة وهم. غير أنّ برسونيتاز لا يعلم ذلك. لقد شِختُ، وحقّ الربّ، يقول في سرّه. ما كنت لأصدّق أنّ مثل هذا قد يحدث لي. الأمر الذي قد يحثّنا على التساؤل عمّا إذا كان وجود دوناتيان هو الذي دفَعَ هذا الرّجل، غير المكترث بمظهره عادةً، إلى التساؤل أمام المرآة حول هذه المسألة. والذي قد يحثّنا على التساؤل عمّا إذا كان مدركًا لما يفعل، كما قد لا يؤثّر فينا على الإطلاق، فلا نكترث له أو لسؤاله.

دفع باب المصعد: أيضًا لا أحد في الممشى الذي سلكه على رؤوس أصابعه حتّى بلغ الشقة ٣٢.

برفق طرق الباب، من دون جواب، مرارًا. بعد أن تلفّت من حوله كما قد يفعل سنجاب النخيل، أمسك بمقبض الباب برفق وأداره برويّة. كان متوقّعًا أن يجد صعوبة في فتحه، لذلك اختار، سلفًا، من بين أدوات جعبته تلك التي ينبغي استخدامها. غير أنّه لم يكد أن يدير المقبض ربع دورة حتّى فُتِحَ الباب كأنّما من تلقائه. فدسّ برسونيتاز يده في جيبه، وأمسك بالمسدس تحسّبًا، فمن يدري؟

مجتازًا في البداية رَدهة انتظار معتمة، لا تحوي من الأثاث سوى مشجبين خاليين، دخلَ برسونيتاز صالة استقبالٍ فارغة. ستائر مُسدَلة، أثاث مُرَتّب، ولا أثر يدلّ على وجود كائن حيّ.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لجهة اليمين بابٌ لا بدّ أنّه يفضي إلى حجرة: بالفعل، الباب يفضي إلى حجرة، فارغة هي أيضًا. دار الرّجل حول نفسه متفكّرًا: لا شيء، على الأقلّ لا أثرَ لأي غَرَضٍ شخصيّ. فتّش الأرفف والأدراج، سلال المهملات فلم يعثر فيها على شيء لا علبة ثقاب ولا مشبك شعر؛ لا فاتورة ولا نشرة إعلانيّة ولا تذكرة نقل مدعوكة كتلك التي تُترَك عادةً في الفنادق. لا عقب سيجارة في المنافض النظيفة. فتح الخزائن العديدة في المكان بلا جدوى ــ باستثناء الخزانة الأخيرة حيث على رفّها الأعلى كُدّست، فوق بعضها بعضًا، قطع القماش التي ابتاعتها غلوار، خلال فترة بعض الظهر، عندما لم تجد أمامها ما تفعله. نبشها برسونيتاز وفردها أمامه واحدة تلو الأخرى، من دون أن يعثر في ثنيّاتها على أيّ دليل. لا شيء إطلاقًا. راودته الرغبة، بتأثير من الإحباط الذي ألمّ به، أن يُخَرِّقَ إحداها، ثمّ خطرت بباله، بتأثيرٍ غير محدّد، أن يأخذ واحدة أخرى ويعطيها لدوناتيان، غير أنّه أحجمَ عن الأمرين في النهاية.

موقنًا أنّه لن يعثر فيها حتّى على شعرة واحدة، لم يكن تفتيشه حجرة الحمّام إلّا من باب الشكليّات، عاد بعدها إلى الصالون. كان السكون فيه مطبقًا برغم ضوضاء نائية تضاعف سكونه. بدا مؤكّدًا أنّ الشقّة قد أفرغَت بعناية منذ وقتٍ غير بعيد، لأنّ أجواءها ما زالت تتردّد فيها أصداء قريبة لروائح وكلمات وتنهدات وطقطقات كعبين عاليين.

علت نحنحةٌ من وراء ظهر برسونيتاز الذي أدار رأسه ملتفتًا: غلام مزوّد بممسحة ذات عصا وبدلو كان يرمقه بفضول، وقد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

طرح عليه سؤالاً طلب منه برسونيتاز أن يردّده على مسامعه مرّة ثانية. كان الغلام يودّ أن يعرف إذا كان يستطيع أن يمسح أرضيّة الحجرة. رأى برسونيتاز أنّ الأرضيّة نظيفة جدًّا كما هي. مع ذلك قال طبعًا. كنت أهمّ بالمغادرة.

على مقعد الأمباسادور الخلفي، كانت دوناتيان قد غفت، وكذلك فعل السائق المحلّيّ فوق مقوده ــ نومٌ مزدوج على قدرٍ من الحميميّة يشي بأنّ المرأة الشابة قد تمالكت نفسها في النهاية. غير أنّ هذه الفرضيّة لم تخطر ببال برسونيتاز الذي لامس برفق كتف دوناتيان. ولمّا فتحت عينيها:

ــ حسنًا، قال، أحسَبُ أنّنا وصلنا متأخّرين.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٠

من دكّانٍ آخر لتصوير المستندات على مقربةٍ من النادي الكوسموبوليتي، اتّصلت دوناتيان بسالڤادور في صبيحة اليوم التالي نحو الساعة التاسعة. كانت درجات الحرارة الثلاثون التي خيّمت على البلدة سابقًا قد قفزت إلى الخمسين في قفص الزجاج ذي السقف التوتياء، ولم تلبث دوناتيان أن غرقت في عرقها المتصبّب، بينما هناك، كانت باريس تطفو على عتمة مجمّدة، في ساعةٍ يكتسي فيها آخرُ اللّيلِ بغلالة أوّل الصباح. لا بدّ أنّ سالڤادور لا يزال نائمًا، لكنّ المرأة الشابّة لن تتوانى عن إيقاظه. خابَ ظنُّها، إذ لم يكن نائمًا. ولم يكن حتّى قد استلقى بعدُ على فراشه.

ثمْلاً كثملٍ بولنديّ، كان سالڤادور يجد مشقّة في البقاء جالسًا إلى طاولته، مستندًا بيديه الاثنتين إلى قطعة الأثاث هذه المكسوّة بالوثائق. تحت أنظاره ورقة بريستول موسومة بأثرِ كؤوس عديدة ــ تشبيكٌ من الدوائر كأنّه نسخة متعتعةٌ من الشعار الأولمبي ــ، وبضع كلمات دوّنت بيدٍ غير ثابتة: الصفتان «سمراوات» و«شقراوات» إحداهما فوق الأخرى، ثمّ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الموصوفان «سجائر» و«بيرة» هما أيضًا، جُعِلَ أحدهما فوق الآخر في الجهة المقابلة، ثمّ شبكة معقّدة من السهام والأقواس المزدوجة للوصْلِ بين هذين العمودين. على الزاوية العليا لجهة اليمين من الورقة دوّنت، على حدة، كلمة «صهباوات»، بين هلالين متبوعة بعلامة استفهام. الظاهر أنّ أبحاث سالڤادور وقفت عند حدّ لم تبرحه منذ بعض الوقت. راديو ترانزستر عند طرف الطاولة كان يبثّ برنامجًا متواصلاً للموسيقى الاستوائيّة، بصوتٍ خفيض، تكاد أن لا تسمعه الأذن.

ــ آه، غمغم سالڤادور قائلاً، هذا أنت. في أفضل الأوقات، كنت أشعر بشيءٍ من الوحدة هنا. أين أنت؟ ألا تريدين أن تأتي؟

رفعت دوناتيان عينيها نحو السماء.

ــ اسمعني، قالت، لقد أخفقنا مرّة أخرى. يبدو أنّه عالم لا نستطيع أن نفوز فيه بهذه الفتاة.

ــ أجل، قال سالڤادور بتكاسل، هذا لديّ سواء. هذا لدينا سواء. تعالي.

ــ لا تكن غبيًّا، صاحت دوناتيان، كفّ عن ذلك. إنّي أحدّثكَ من بُعدِ ستة آلاف كيلومتر، ويكاد الحرّ أن يقضي عليّ، كما أنّي ضقتُ ذرعًا بكلّ شيء، هل تسمع ما أقول؟

ــ أجل، أجل، قال سالڤادور كأنّه لم يُدركَ حقًّا ما تقول، مُبعدًا السمّاعة قليلاً عن أذنه لكي يتسنّى له أن يُعالج كأسه. أنا أيضًا، أردف قائلاً، ضقتُ ذرعًا، كما تعلمين، لا بل أكثر من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ذلك. وقليلٌ جدًّا أن أقول أكثر من ذلك.

ـ حسنًا، قالت دوناتيان محاولةً أن تهدأ. ولكن هل تتابع مع ذلك عملك؟ هل تتقدّم في عملك؟

ـ أحسب أنّني لا أتوصّل إلى شيء، قال سالفادور، أراوح مكاني، غير أنّني لا أبالي. هذا لديّ سواء، هل تفهمين ما أقول؟ ردّد بانفعال. ألا تريدين حقًّا أن تأتي؟

ـ لا، تنهّدت المرأة الشابّة قائلة، ليس الآن. سوف أتّصل بك فيما بعد.

مهلاً، مهلاً، ألحّ سالفادور مردّدًا في ليله ـ حتّى بعد أن أقفلت دوناتيان الخطّ، وغادرت كشك الهاتف وانضمّت مجدّدًا إلى برسونيتاز في سيّارة الأمباسادور. إذًا، سأل برسونيتاز، ماذا قال؟ لا شيء، قالت المرأة الشابّة، يبدو أنّه ليس على ما يرام. ولكن أين عساها تكون الآن هذه المغفّلة؟ سألت في سرّها كاظمةً غيظها.

كانت المغفّلة المذكورة أعلاه تأمل، ببراءة ما بعدها براءة، أن يَدَعوها وشأنها بعد إنجاز مهمّتها. لدى وصولها إلى بومباي ونزولها في فندق «سوبريم»، في غرفةٍ متواضعة: لا مكيّف هواء ولا تلفزيون، حجرة حمّام من الإسمنت، كنبة من السكاي المبتذل، كرسي واحد، طاولة واحدة دسّت غلوار في درجها الرزمة التي عهد بها غوبال إليها ـ رزمة مختومة جيّدًا بشريط لاصق، في حجم آجرةٍ ولكن رخوة كأنّها تحوي ماءً، أو مرهمًا طبّيًا أو هواء ـ، قبل أن تطلب الرقم الذي دوّنه لها الطبيب على



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

طرف وصفة طبّيّة (ف ر موبانار ٢٠٢١٩٤٧). كأنّه هاتفٌ لم يُستبدل بآخر منذ عهد الإنكليز إذ تدور عدّاداته ببطء حشرةٍ مجنّحة، غير أنّ رنينًا تناهى من الطرفِ الآخر: ثمّ رُفِعَت السمّاعة.

لا بدّ أنّها مؤسّسة كبيرة لأنّ الصوت الرخيم لعاملة المقسّم نصحها أوّلاً أن تبقى على الخطّ. صوت فصّال. صوتٌ أنثويّ آخر لكنّه خفيضٌ، يكرّر السؤال نفسه والنصيحة نفسها: صوت فصّال مزدوج تبعه صوتُ رجلٍ على قدرٍ أكبر من النضوج والرويّة، ولا بدّ أنّ صاحبه جالسٌ على كنبة، مستفسرًا عن مزيدٍ من التفاصيل: الاسم والكنية ومِنْ قِبَلِ مَنْ؟ وعندما ذكرت غلوار اسم غوبال طلب منها أن تبقى على الخطّ. صوت فصّال ثلاثي متبوعٌ بوجيبٍ مكتوم. ومجدّدًا صوتٌ أنثويّ حازمٌ، واضحٌ ودقيق، ميزة أصوات السكرتيرات الإداريّات: وجيبٌ مكتومٌ مضاعف. أكثر ترحابًا وودًّا كان الصوتُ الأخيرُ الذي بدا أنّه صوت ف. ر. موبانار نفسه.

ــ أجل، غوبال، صاح موبانار، أعرف من يكون. ولكن مهلاً، هل تقصدين غوبال حيدر أباد أم غوبال شارع ت ت ك؟

ــ الحقيقة لا أدري، قالت غلوار. إنّها عيادة في شارع دولاباغود ــ كارانيسوارار.

ــ عظيم، قال الآخر مقاطعًا، لقد عرفته جيّدًا. أين تقيمين؟ في «سوبريم»، وهل أنتِ مرتاحة هناك حقًّا؟ أقصد حسنًا، موعدنا في البار، أليس كذلك؟ سأصل بعد قليل. سنصل.

ظهر بعد ثلاثين دقيقة. مطيّبًا بالطّلْقِ، مُخَتَّمًا، مشمّع



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الشاربين، بدينًا في بذلته المزيّحة بلون توت العلّيق، كان موبانار يبتسم، ويبتسم ويبتسم؛ وماسَةٌ ترصّع أحد أنيابه تبرقُ كلّما ابتسم مثل غمّاز آلة بيليار كهربائيّة. وراءه، كان يقفُ شخصٌ هو نقيضه من حيث المظهر، شابٌ حليق ضامرٌ ومصابٌ بحَوَلٍ فريدٍ من نوعه: عينٌ يسرى جامدة كعين قاتل، وعين يسرى دوّارة الحدقة كعين حارسٍ شخصي. برغم ما أبداه من لامبالاةٍ حيال ما أرسله له غوبال، مُلقيًا عليه نظرَة خاطفة قبل أن يعهد به إلى مساعده، كان موبانار ودودًا جدًّا مع غلوار، متمنّيًا أن تكون قامت برحلة ممتعة، وألّا تكون متعَبة جدًّا، مرحّبًا بها في بومباي. هل تعرف أحدًا في المدينة، ألن تشعر بالوحدة، ألن تشعر بالضجر. مُحالٌ أن تضجر: فهل يسمح لنفسه بدعوتها إلى أمسيةٍ يقيمها في اللّيلة نفسها في دارته. جلسة أصدقاء. فرصة للتواصل ونسج العلاقات الوثيقة. برقت ماسَتُه أربع مرّات ـ متبوعةً بطقطقةٍ مكتومة من الجهةِ غير المرصّعة ـ عندما ألحّ على كلّ المزايا التي توفّرها العلاقات في بومباي. لا أدري، قالت غلوار، المسألة هي أنّني منهوكة. هذا أمر طبيعي، قال موبانار، سأدعكِ لكي تأخذي قسطًا من الراحة. سأتّصل بك عند العصر. أستطيع أن أرسل سيّارة لاصطحابك. لدى صعودها إلى الغرفة آثرت غلوار أن تستشير بيليار: ماذا أفعل؟ اذهبي إليه على كلّ حال، اقترح الكائن الضئيل قائلاً، مَن يدري. فما هي المخاطر التي تنتظرك؟ وسوف نرى لاحقًا.

كان موبانار يقيم في شقّة فوق سطح عمارة فاخرة عند مرتفعات مالابار. من جانبي الشرفة يطَلّ البصرُ على بحر



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

عُمان، على الخليج، على حيّ الغسّالين أو الحدائق المعلّقة. أقيمت موائد حافلة بما يسكرُ ويطعمُ مئتي شخص وإن كان الحضور لا يتجاوز المئة: أوّلاً، الأوساط المقرّبة من ف. ر. موبانار، كلّ عشيقاته وكل أشقّائه، وكلّ أشقّاء عشيقاته وكلّ عشيقات أشقّائه. ثمّ زملاء موبانار، مصحوبون، هم أيضًا، بحاشيتهم، وبعض الصناعيين، ووكيل وزارة ونائب عن حزب المؤتمر، ثلاثة رجال أعمال مجريّون غير مصحوبين بزوجاتهم، بالإضافة إلى خمس أو ستّ مومسات. ومع هؤلاء جميعًا بعض خبراء الخيول: من مالكين ومروّضين وفرسان سِباق. خليطٌ من أزياء غربيّة ومحلّيَّة، وسموكنغ وشالات وتايورات وساري وبيجامات وتنانير قصيرة، وعمائم وتوينسيتس، وما من خنصر خالٍ من حليته.

بعد أنّ قدّمها موبانار بأحرّ عبارات الترحيب والمديح، اختلطت غلوار ببعض المجموعات، مبتسمةً، مُقتصدةً في الكلام، متظاهرةً بأنّها تجهل الإنكليزيّة، كأنّها ساهية عن الأحاديث التي تدور من حولها. وعلى الرّغم من أنّ الجميع كانوا يتحدّثون عن أعمالهم بطلاقة، شقّ عليها قليلاً أن تكوّن فكرة واضحة عن أعمال ونشاطات كلّ منهم. فلم تلبث أن ضاقت ذرعًا بهذا الجوّ: فإذا بها تغادر الشرفة حاملةً بيدها كأس «أنتيكيتي» مع مكعّبات ثلج، لتلقي نظرة على أرجاء الشقّة.

ممشى عريض تتوزّع على جانبيه أعدادٌ من الغرف ذات جدران مطليّة بألوان زاهية. ومن خلال أبوابها المشرّعة كانت غلوار تتفحّص ما بداخلها واحدةً تلو الأخرى كما تتصفّح قائمة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

المثلّجات. كلّ غرفة من الغرف كانت مبلّطةً بلون من الرخام المتناسق الملمّع مثل أرضيّةٍ خَشَبٍ، والمطلي بالورنيش حتّى بدا أشبه بالمشمّع. لم تكن هذه الغرف بمعظمها مؤثّثةً إلّا بسريرٍ كبير، وثريّا ضخمة وسجّادة عريضة من كودالور أو مازوليباتام، وأحيانًا جلد نمر برأسه وأسنانه كلّها. غرفة وحيدة كان بابها مفتوحًا على نحو مواربٍ: فتحته غلوار على مصراعيه قبل أن تعاود غلقه بقوّة لأنّها لمحت شخصين منصرفين إلى العناق فوق السرير. ابتعدت مضطربةً، ثم لم يلبث أن تضاعف اضطرابها عندما انتبهت إلى أنّ أحد وجهي هذا الثنائي الذي بالكاد لمحته ربّما لم يكن غريبًا عنها. توقّفت وعادت أدراجها وعاودت فتح الباب قليلاً ولم تتعرّف إلى راشيل إلّا عندما سمعتها وهي تصيح هيّا أدخله في دبري الآن يا بيبلاب، أنتَ تعشق ذلك، أرجوك. ما الذي أسمعه، قالت غلوار في سرّها، ما زالت إذًا بصحبة بيبلاب.

' كان الأمر مفاجئًا بحيث أنّها، وخلافًا لكلّ مبادئها، لَبِثَت جامدةً وراء صدع الباب عاجزة عن الكفّ عن النظر إليهما ــ إلى أن تقلّبت راشيل على الفراش مقرنة القول بالفعل، فالتقت نظراتهما وأطلقت صيحةً مختلفة النبرة. لشدّة اضطرابها، ابتعدت غلوار راكضة. غير أنّها لم تكد أن تبتعد بضعة أمتار في الممشى حتّى تناهى إلى سمعها خَفْقُ قدمين حافيتين على الرخام، وكانت راشيل تلحق بها ملتحفةً كيفما اتفق بمئزرٍ قطني. ماذا تفعلين هنا؟

ــ إنّه أمر يطول شرحُه، أجابت غلوار. وأنتِ؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

إذا كانت راشيل لم تتغيّر خلال فترة قصيرة من الزمن، فإنّ حياتها، في المقابل، قد شهدت تحوّلاتٍ حاسمة. نظرًا لسأمها من حياة الترحال بلا هدفٍ أو غاية، ارتبطت برجل الأعمال الشاب بيبلاب الذي كانت قد التقته بقرب ميناء أليفانتا. والحال أنّ بيبلاب الموظّف حديثًا في شركة موبانار والمترقّي بسرعة في سلّم الوظيفة، كان يوفّر لها حياة رغدٍ في بومباي، وبطالة لا شوبَ فيها بالإضافة إلى طمأنينةٍ مَلَكية. إنّه شاب لطيف، قالت، ثمّ كما تعلمين، لو لم أرتبط به هو لارتبطت بشخص آخر.

ـ أعلم، قالت غلوار. ولكن ما عمل هذه الشركة بالضبط؟

ـ ماذا؟ سألت راشيل، ألم تفهمي بعد؟

من طرف الممشى أطلّ رجل الأعمال الشاب، مهندمًا وباشًا، مُقبلاً نحو راشيل، وقد بدا متيّمًا بها. اذهبي إلى الشرفة وتناولي شرابًا، قالت لها، وسوف ألحق بك عمّا قليل.

نظرًا لما لمسته من أعمال غوبال، كانت غلوار تفترض أنّها ستلتقي في بومباي رفاقًا من أمثاله متورّطين في تجارة المخدّرات والدم. والحال أنّ هاتين السوقين، كما شرحت لها راشيل، ترتبطان بشبكةٍ أكثر اتّساعًا وتطوّرًا وتعتَبرُ شركة موبانار أحد مراكزها المهمّة. من شبكة أعمال التهريبِ المتنوّعة هذه، بما هي اقتصاد عالمي بديل إن لم تكن الاقتصاد الفعلي الوحيد، رسمت لها راشيل لوحةً من ثلاثة جوانب: سِلَع. خدمات. أساليب.

•



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

السِلَع: أوّلاً البضائع التقليديّة من قبيل المتفجّرات العسكريّة، والأسلحة الحربيّة، والعُملات، والكحول والأطفال والسجائر والمواد البورنوغرافيّة، والسلع المزوّرة، والرقيق من الجنسين، والأجناس المهدّدة بالانقراض. ثمّ تأتي القطاعات الجديدة التي تبدو، في هذه الآونة، في عزّ ازدهارها. مثلاً، كانت تجارة الأعضاء البشريّة ــ الكلى والقرنيّات التي يؤتى بها من ساحات المعركة في أوروبا الشرقيّة، ومن العيادات غير المرخّصة في أميركا الوسطى أو شبه القارة، والدم المشبوه والمسحوب في مختلف أنحاء العالم ــ تشكّل سوقًا ليست أقلّ نشاطًا من سوق المواد المشعّة المنتشرة والوافدة من المفاعلات النوويّة التي جرى تفكيكها في الكتلة الشرقيّة: يورانيوم، وكمّيّات كبيرة من السيزيوم والسترانتوم، والكثير الكثير من البلوتونيوم.

نباتات خشخاش عملاقة، ذات محاصيل مذهلة، كانت تنمو كيفما اتّفق حول هذه المفاعلات المفكّكة، مُساهمةً في تغذية السوق التقليديّة للموادّ المخدّرة، التي هي اختصاص آخر من اختصاصات شركة موبانار. إلى ذلك، يضاف نحو عشرين ألف ماركة من العقاقير المزوّرة، التي تنتج، في آخر الأمر، كمّيات هائلة من دولارات المخدّرات، ومن ماركات المخدّرات الضروريّة لرعاية جيش جرّار من علماء الكيمياء واختصاصيي الرسكلة والقتلة المأجورين.

أمّا بشأن الخدمات، فيمكن القول أيضًا إنّ القتَلَة المأجورين يحتفظون بحصّتهم من كلّ أنواع الإتاوات وعمليّات الخطف طلبًا لفدية، وابتزاز الأموال، وخوّات



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الحماية والقمار والبغاء، واختلاس أموال التنمية، والاستيلاء على المساعدات الدوليّة أو الأموال العامّة، العمالة غير الشرعيّة، التعويضات غير الشرعيّة، الاحتيال في قطاعات الاستثمار، التعامل بالنفايات السامّة، فرض العقود غير المنظورة، الإفلاس الاحتيالي والتهرّب من خطط السياسة الزراعيّة العامّة، أي.. عالم بأكمله.

أجل، العالم والحياة زاخران بما يمكن أن يُنجَز، ولمن يقدر على الإنجاز بأسلوبٍ مدروس. هذه كلّها مصادر لجني المال الذي يجمعه متأنّقون بأربطة عنقٍ ـ والذي يُبيَّض من خلال شبكة من الكازينوات وقصور القمار ومطاعم البيتزا وصالونات الحلاقة ومراكز التدليك والمغاسل الآليّة ومحطّات الوقود ـ والذي، من ثمَّ، يجري تحويله إلى حساباتٍ سرّيّة في باديشل، في شيكيسفيهيرفار أو في الجزر الإنكليزيّة النورمانديّة. غير أنّ غلوار كانت تعرف هذا كلّه وقرأت عنه من قبل في الصحف، وبات يضجرها إصغاؤها لهذا الشرح الطويل. وكانت لتؤثر، في الوقت الحاضر، أن تضمّ راشيل بين ذراعيها.

ـ حسنًا، همست برفقٍ في أذنها، ولكن أخبريني، ماذا أفعل، أنا، هنا؟

ـ سيشرحون لك كلّ شيء، أجابت راشيل من خلال شعرِ غلوار، وفي أقرب وقت. تعالي.

عادتا أدراجهما إلى الغرفة، وحرصت راشيل، هذه المرّة، على أن يبقى بابها مقفلاً بإحكام، ثمّ ارتمتا على السرير. وبمضيّ بضع ساعات، كانت غلوار، وقد عادت إلى



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

«سوبريم»، تسرد على مسامع بيليار وقائع أمسيتها غافلةً عن ذكر بعض التفاصيل.

ـ أدركُ جيّدًا حقيقة شعورك، قال الكائن الضئيل، وأدرك أنّ الأمر يسلّيكِ. ومع ذلك، كوني حذرة. ولعلّه من الأجدى ألّا نمكث طويلاً في هذه النواحي.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢١

غداةَ الأمسية التي أقيمت في دارة موبانار، اتّصل هذا الأخير بفندق «سوبريم» ليُخطر غلوار أنّه وجد لها فندقًا آخر قد يكون أكثر انسجامًا مع شخصها. وأنّ سيّارة ستمرّ بها قبل الظهر لتقلّها مع حقائبها. هذي الأمورُ تنجلي، قال بيليار معلّقًا.

كانت عتمة المطعم الجليديّة، والصيّادون المرتدون زيّ المروّضين، وغلمان المصاعد المتنكّرون بأزياء ضبّاطٍ سلطانيين، تبرزُ فخامةَ هذه المنشأة الجديدة. حجرة غلوار الجديدة، الكائنة في الطبقة الأخيرة من عمارة بيضاء مطلّة على المارين درايف، والفسيحة بمقدار ستّة أمثال حجرتها في «السوبريم»، كانت مطليّة الجدران بلون أميل إلى السمرة ومجهّزة بكلّ وسائل الرفاهيّة الحديثة ــ ثلّاجة، تلفزيون، مكيّف هواء ومغطس يتّسع لشخصين. شرفةٌ على علوّ شاهق وضِعَ عليها كرسي طويل، والواجهة مطلّة على الخليج.

سرعان ما استأنفت غلوار عاداتها القديمة. نؤومُ ضحًى، تقضي ساعات الصباح الأخيرة على الشرفة، عينها نصف



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

مغمضة ولكنّها أيضًا نصف مفتوحة على الشاطئ العريض الشاسع الذي لا ترتاده سوى قلّة من الناس، والموزّعة في أرجائه منشآت للهوّ متهالكة، حلبات زالقة ودوّارات صدئة. كان البحرُ القذِرُ بعيدًا، ولم يكن الرّمل سوى غبار. عابرون يطأونه وِحْدانًا، لا لغَرَض الاستحمام، وأحيانًا وراء عربة يجرّها ثور. في أحيان أخرى يلمح الناظرُ، في البعيد، فرسًا عَادِيَةً فوق شريط الزبد. مستلقيًا كعادته على مرقاة الكرسي الطويل مرتديًا سرواله البرمودا، كان بيليار يأخذ حمّام شمس بجانب غلوار. مع ذلك كوني حذرة، قال مسديًا إليها النُصحَ، يجب ألّا تسمحي لهم بأن ينفقوا عليك الكثير. لا يجب أن تكون لهم دالّة عليك. أصرّي على تحمّل نفقات الفندق بنفسك.

غير أنّ موبانار كان يبدي قدرًا من الكياسة والتحفّظ. يتّصل باقتضاب بين الفينة والفينة للاطمئنان إلى أحوال غلوار والتثبّت من أنّها لا تحتاج إلى شيء، من دون أن يفرض ولا حتّى أن يقترح عليها شيئًا ــ اللهمّ إلّا أن تشرّف بحضورها أمسياته التي كان يواصل إقامتها على شرفته مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع. أمسيات متشابهة، وكانت غلوار، آخر الأمر، لا تلبّي من دعواته إلّا دعوةً من كلّ اثنتين. وذات يوم وافقت على اللّحاق بموبانار، بصحبة راشيل، إلى ميدان سباق الخيل حيث بلغت المراهنة على أحد جياده، ويُدعى «تيليباتي»، أربعة مقابل واحد؛ وبعد يومين شاهدوا مباراة في البولو شارك فيها عددٌ من خيول إسطبله.

لكن في الحالة الحاضرة، لا شيء، إذًا، سوى الشمس. ثمّ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

عند الثانية من بعد الظهر، كانت راشيل تطرقُ بابها برفق. هيّا، اغرب، كانت تقول غلوار عندئذٍ لبيليار الذي سرعان ما يتوارى عن الأنظار متبرّمًا وفي عينه كَمَدٌ حرونٌ كالمصاب بعقدة الصدّ العاطفي الّلاشعوري. كان أحيانًا يبادر إلى التواري من تلقاء نفسه وقبل أن تأمره غلوار بذلك، غير أنّه، في كلتا الحالين، كان يفعل ما يفعلُ متبرّمًا. كانت المرأتان تقيلان قليلاً في الحجرة قبل الذهاب لتناول الغداء، لساعاتٍ، في مطعم الفندق ــ مكّعبات من لحم الطيور والسمك المنقوع، واللّبن الرائب بالبْهَنغ. ثمّ بعد ساعات القيظ الشديد، كانتا تتسكّعان في أنحاء المدينة، ناحيةَ «شور بازار» أو «بانغانغا تانك»، متريّثتين بقربِ خزّانات المياه في ظلّ المباني. كان قرود ورجال وأولاد يلهون على سطوح الشرفات. الرّجال يلوّحون بخرقٍ من القماش لتوجيه أسرابٍ من الحمائم في تحليقها، والأولاد يعالجون اتّجاه طائراتهم الورقيّة، فيما القرود يطارد بعضها بعضًا على حوافّ الواجهات، وما من أثرٍ لأيّ امرأة تلهو.

عند هبوط اللّيل، كانتا تتناولان العشاء في «نادي اليخوت» حيث ينضمّ بيبلاب إليهما أحيانًا قبل أن يباشر دوامِ عمله في شركة موبانار. وبعد ذلك كانتا تعرّجان، ببهجةٍ شبيهةٍ ببهجتهما في الأمسية الأولى، لاحتساء بضع كؤوس في بار «التاج» المزدحم دائمًا بالأجانب، حيث تلتقيان هناك نساءً أخريات ــ أكّدت إحداهنّ ذات ليلة أنّها تُدعى بورش دوفال ــ ولكن أيضًا بعض الرّجال والفتيان. الرّجال كانوا أشدّ صراحة وأكثر نفورًا من الفتيان الذين يسهل الأخذ والردّ معهم وإن كانت نِسَب محبّي النساء وأعدائهنّ، لدى هؤلاء وأولئك، متساوية فيما بينها.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بالاختصار، لا هواجسَ أخرى، عيشةٌ سهلة، وطمأنينة ملكيّة. لم يكن على غلوار حتّى أن تخشى تحرّيّات برسونيتاز وسواه، بعد أن موّه غوبال كلّ أثرٍ لها، وبات مستحيلاً العثور عليها.

مع ذلك كان يحدث لها أن تفقدَ إحساسها بذاتها، فلا تُصغي إليها في جوقة منبّهات السيّارات وطيور الزاغ في بومباي ـ كما كان يحدث، ولكن على نحوٍ معكوس، عندما تنفصل عنها أفكارها بعنف، في السكون الطاغي للنادي الكوسموبوليتي. كما كان يحدث لها أن تسأل في قرارة نفسها عمّا إذا كانت ستمكث هناك إلى أجلٍ غير مسمّى، وإذا حان الوقت أخيرًا لكي تعود إلى ديارها. لم يكن لدى راشيل إجابة عن هذا السؤال، ولبثَ بيليار ممتنعًا عن إبداء رأيه لأنّه لا يمتلك رأيًا محدّدًا بهذا الشأن، وأنا نفسي لا أملك إجابة. المهمّ أنّه بمضي عشرين يومًا على هذا المنوال، جاء موبانار ذات صباح، على نحو مباغت، إلى حجرة غلوار: ولم يتسنّ لبيليار إلّا أن يقفز إلى داخل خزانة.

زعم موبانار في البداية أنّه كان مارًّا بالقربِ من المكان فراودته فكرة هذه الزيارة الخاطفة للتثبّت من أنّها لا تحتاج إلى أيّ شيء. اجتاز الحجرة، واستغرق هنيهاتٍ في تأملّ الخليج عبر الواجهة، ثمّ استدار نحو غلوار:

ـ هلّا أسديتِ لي خدمة؟

ـ هذا ما كانَ في الحسبان، قال بيليار في سرّه وقد ألصق أذنه، في العتمة، بدرفة الخزانة.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ أيّ نوع من الخدمات؟ سألت.

ـ الأمر بسيطٌ جدًّا، قال موبانار، يتعيّن عليّ أن أرسلَ شيئًا إلى بلدكم. وستقتصر مهمّتك على مرافقة هذا الشيء. والحرص على أن تجري الأمور على ما يُرام. أقصد، أن تكوني موجودة هناك، تحسّبًا.

ـ بدأت الأمور تنجلي، ردّد بيليار هامسًا.

لم تردّ غلوار على الفور. فربّما كانت هذه المهمّة فرصةً متاحة لأن تعود إلى ديارها، تلك العودة التي لم تفارق تفكيرها في الآونة الأخيرة ـ ولكن نظرًا لما باتت تعرفه بشأن أعمال موبانار، قد يكون الثمن باهظًا جدًّا، كأن يُطلب منها مثلاً أن تخفي قالب متفجّرات بلاستيكيّة أو كمّيّة من الأورانيوم أو الأفيون في مواضع حميمة من جسدها.

ـ لا تدعي ظنونكِ تحملك إلى البعيد، قال لها كأنّه يقرأ أفكارها. لا تعقيدات ولا مخاطر. لن يتوجّب عليك سوى ركوب طائرة. وسأتكفّل بكلّ المصاريف، ولن يُطلَب منك أن تفعلي شيئًا، هناك شخص سينتظرك وسيتكفّل بكلّ العمل المطلوب.

ـ حسنًا، قالت غلوار، لنفترض أنّني وافقت. فما هو هذا الشيء الذي ينبغي أن أرافقه؟

ـ جياد، قال موبانار.

ـ جياد؟ ردّدت غلوار في صيغة تعجّب لا تخلو من الاستفهام.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ أجل، قال موبانار، جياد.

ـ لا مانعَ إذا كان الأمر يقتصر على جياد، قالت غلوار.

ـ جياد، ردّد موبانار قائلاً، لا أكثر ولا أقلّ. مجرّد جياد.

من قارّة إلى قارّة، تُنقل الجياد في طائرات شحن. وفي العادة يرافقها طبيب بيطري مسلّحٌ بحقنةٍ عملاقة تحسّبًا لأيّ طارئ، ولكن، قال موبانار مؤكّدًا، لن يكون هناك أيّ طارئ لذا لا حاجة إلى الطبيب البيطري، وبإمكان غلوار أن تسافر بمفردها مع الجياد. بعد غد. هل اتّفقنا؟ اتّفقنا، قالت.

مطار بومباي ـ ساها، إذًا، بعد غد. شمس ساطعة، ورياح شماليّة شرقيّة معتدلة. علاوةً على جياد موبانار الستّة ـ المتحدّرة من أصولٍ عريقة من آسيا الوسطى ـ، كان من المفترض بطائرة الشحن أن تنقل أيضًا محور تُربينة لسدّ هيدروليكي، تجري إعادته إلى فرنسا لاستبداله بقطعة مماثلة. كان باطن الطائرة مجوّفًا أزيلت منه المقاعد واللّوازم الأخرى، وجعلَ أشبه بعنبرٍ رحبِ المساحة، وقد جهّز بكابينة واحدة من دون كوى للركاب مرافقي الحمولة وراء قُمْرة الطيّارين. ستّة مقاعد صُفّت في الصدارة، وفرن مايكروويف وخزانة مواد مجلّدة. باب صغير يفضي إلى قمرة القيادة، وباب آخر يفضي إلى سلّم حديدٍ هابطٍ باتّجاه العنبر. ويتولّى حدًّا أدنى من الخدمة مضيفٌ من دون زيّ نظامي. عانقت غلوار راشيل، ثمّ أقلعت الطائرة.

ثلاثة رجال في ملابس مدنيّة كانوا يرافقون محور التُربينة؛



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

إنّهم تقنيّون شبّان متخصّصون في صيانة الأدوات الضخمة. ثلاثة شبّان في أتمّ عافية، يُكثرون من الكلام فيما بينهم، غير أنّهم يتهيّبون التحدّث إلى غلوار التي أصغت، ساهيةً، إلى ما لا يُحصى من الموضوعات التي تطرّقوا إليها. ولكن يبدو أنّ حديث كلّ منهم ينطلق في البداية حماسيًّا متّصلاً ثمّ لا يلبث أن ينال منه الوهن ويخفتُ كأنّه عَلِق في شباكٍ متينة. فيهبطون جميعًا عندئذٍ لتخليصه من الشباك مستعينين بمعازق أميركيّة وبأغصان، حتّى إذا انتعش الحديث مجدّدًا، انطلقَ قطار الكلام وقفز الجميع إلى متنهِ لكي لا يخلّفهم وراءه.

تتبّعت غلوار أحاديثهم لبعض الوقت قبل أن تغفو قليلاً. عندما فتحت عينيها مجدّدًا كان التقنيّون الثلاثة غارقين في نومهم. كالعادة لا سبيل للعثور على بيليار أو حتّى رؤيته على متنِ طائرة: لا أحد للتحدّث إليه ولا شيء للمشاهدة عبر النوافذ غير الموجودة، لا شيء للقراءة، لذلك بدأت غلوار تشعر بوطأة الوقت. لحسن الحظّ، لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى أقبل معاون الطيّار في طريقه للحصولِ على شرابٍ من الخزانة المبرّدة. وإذ رأى أنّها لا تدري ماذا تفعل، دعاها معاون الطيّار لاحتساء شرابٍ بصحبة الآخرين في قُمرة القيادة: ثمّ تنحّى جانبًا، حاملاً قنّينة شراب، لكي يفسح في المجال أمامها.

أجواء هادئة أيضًا كانت تسود قمرة القيادة. كان القبطان نائمًا على كرسيه فيما التقني المساعد يتصفّح بعض المجلّات المتخصّصة. مساء الخير أيّها السادة، قالت غلوار. تبسّم القبطان فاتحًا عينًا زرقاء: كان فكّاه بارزين وشعره أبيض. أنا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أحمل فتّاحة القناني، قال التقني. وبعد أن أجلس المرأة الشابّة على كرسيّ خلفَ طاقم القيادة، عاود معاون الطيّار الجلوس أمام عدّادات الطيران الآلي. عدّل القائد جلسته على كرسيه ـ الذي كان مَسند الظهرِ فيه مغطّى بستارٍ من الخرز الملوّن على غرار تلك التي يلجأ إليها سائقو سيّارات الأجرة المصابون بأوجاع الظّهر ـ ثمّ استدارَ ملتفتًا نحو غلوار. كانت الطائرة تحلّق في الأثناء فوق المملكة العربيّة السعوديّة.

مطار باريس ـ شارل ـ دو ـ غول، إذًا، بمضيّ ثلاث ساعات. طراوة، رذاذ مطر. نزلت غلوار من البوينغ في الوقت الذي نزل فيه أفراد الطاقم الذين قصدوا الأماكن المخصّصة لهم للاستحمام وتغيير ملابسهم قبل عودتهم إلى منازلهم، فيما تجتاز هي وحيدة نقطة الجمارك حاملةً الوثائق الخاصّة بالخيول. أنجزت كلّ المعاملات الرسميّة من دون عقباتٍ، إذ بدت الوثائق قانونيّة، وخُتِمَت الأوراق حيث ينبغي أن تُختَم. ودلّوها على المكان الذي تستطيع أن تحصل منه على حمولتها. ولكي تفعل سيتوجّب عليها أن تخرج من مبنى المطار لتذهبَ إلى مبنى إداري آخر. لقد كان موبانار واضحًا في كلامه حين قال لها إنّ هناك من سيكون في انتظارها في مطار باريس لكي يتولّى إنجاز كلّ الأمور، ولكن ماذا لو لم يظهر هذا الشخص، فماذا ستفعل بستّة جياد؟ سوف نرى.

ورأينا. ما إن اجتازت الباب الصفيق برفقة مسافرين قادمين على متن رحلاتٍ أخرى، ومن بين الأهل والأصدقاء الذين جاؤوا لاستقبالهم، لمحنا وجهًا كان دون الوجوه الأخرى،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لافتًا للنظر لشدّة ما تغضّنه الحركات العصبيّة. وجه تجتاحه التشنّجات، ولكنْ أسوأ من المعتاد: لاغرانج. هذا أنتَ، قالت غلوار، ماذا تفعل هنا؟ سأشرح لكِ، قال لاغرانج. بدا في مزاجٍ سيّئ جدًّا. تبدو في مزاجٍ سيّئ، لاحظت غلوار قائلةً. بالفعل، أقرّ لاغرانج قائلاً، مزاجي سيّئ جدًّا.

كان يرافقُه شخصٌ لم تكن غلوار قد التقته من قبل. مقاس جوكي، وملابس داكنة، سنّان أماميّتان مفروقتان بحيث يتّسع ما بينهما لضرس، ويُدعى زبغنيو، وهو المشرف على سيّارات الڤان الثلاث التي ستنقل الجياد الستّة. لبثوا في انتظار الجياد التي سرعان ما ظهرت مقبلةً من بعد. كانت هادئةً، عادِيَةً باسترخاء، لا تظهر أيّ علامة من علامات التوتّر فيما يبدي وجه لاغرانج سماتٍ متّصلة للعصبيّة المتفاقمة خلال عمليّة النقل. لم تثِر أيُّ شبهةٍ شكوكَ رجال الضابطة الجمركيّة. وسرعان ما خُتِمَت الوثائق التي بدت قانونيّة كسواها.

بعد ذلك تمرّ، في العادة، الكلاب والقطط والقرود على آلة الأشعّة السينيّة، ومن دون أيّ مراعاة يُقذَفُ بصناديقها على نقّالِ الأمتعة، وسط حقائب لا حياة فيها. غير أنّ الجمارك لا تمتلك جهازًا يكون من الضخامة بحيث تمرّ من خلاله الخيول التي جُرّت عَدْوًا من الطائرة إلى الشاحنات. لم تكن غلوار قد رأتها عندما حُمّلت في بومباي، ولم تنزل إلى العنبر خلال الرحلة لتفقّدها. كانت الجياد أشبه بالمذهولة، مطوّقة ومحزّمة، تفعل ما تؤمر بأن تفعله، وما كانت لتذكّر، إلّا من بعيد، بالسباقات ومباريات البولو. بعد أن أقفل أبواب المقطورات على



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الخيول، عاد المرافق مصفّقًا بيديه وقال للاغرانج: قُضيَ الأمر. خيول عاقلة. هيّا، قال لاغرانج، انطلق. نلتقي يوم الخميس. أمّا نحن فسنستقلّ سيّارة أجرة.

وقفا يراقبان عربات الڤان وهي تبتعد، ثمّ اتّجها نحو موقف سيّارات الأجرة.

ـ إذًا، قال لاغرانج، كيف سارت الأمور مع موبانار؟

وإذ توقّفت غلوار في مكانها، سار لاغرانج خطوتين ثمّ استدار.

ـ ما الأمر، قال، هيّا.. تعالي.

ـ مهلاً، مهلاً، قالت، هل تعرف هذا الرجل؟ هل تعمل مع هؤلاء الناس؟

ـ تعالي، قال لاغرانج، سأشرح لك.

انضمّا إلى صفّ المنتظرين لركوب سيارة أجرة. لم تكن السيّارة متوافرة في تلك الأثناء. وما إن عثرا على السيّارة الشاغرة الوحيدة وهمّا بركوبها حتّى بدا القبطان مقبلاً عليهما راكضًا، وقد ارتدى ملابس مدنيّة مهفهفةً كأنّها كُويَت للتوّ. ضاربًا براحته زجاج النافذة، سألهما القبطان إذا كانا يقبلان باصطحابه معهما. طبعًا، قالت غلوار بينما أدار لاغرانج وجهه ممتنعًا عن الإجابة. ركب القبطان بجانب السائق معبّرًا عن امتنانه. إنّه لطفٌ بالغ من قِبَلِكم، قال. أنزلوني عند «بلاس ديتالي».



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كان السائق سائق سيّارة أجرة فرنسيًّا تقليديًّا بزيّه الأبيض والأسود، وعقب سيجارة المايس بين شفتيه، بلكنة أهل الغونيس والكاسكيت ذات المربّعات. آه، قال القبطان، أنتَ أيضًا تستخدمه، المسند ذا الكرات. دعني أقول لك شيئًا، قال السائق، هذا المسند أنقذ حياتي. مذهل، قال القبطان، مذهلٌ كم هو مريح. أعتقد أنّ مصدره الصين، قال السائق، أليس كذلك؟ لا أدري على وجه الدقّة، قال القبطان، ربّما كان مصدره البلدان الاسكندنافيّة. ولكن كم يساعد على استرخاء العضلات. قبل أن أهتدي إليه، قال السائق كنت أعاني من أوجاع الظهر. وأنا أيضًا، قال القبطان. ولكن ها قد وصلنا إلى «بلاس ديتالي».

إذًا، قالت غلوار فور ترجّله من السيّارة، ما دورك في هذه القصّة؟ سأشرح لك فيما بعد، قال لاغرانج، ولكن أخبريني أوّلاً إلى أين تريدين أن تذهبي. إلى أيّ مكان لا فرق، أجابت غلوار، شريطة أن أنعم بالسكينة. ما رأيك لو نذهب إلى الأرياف؟ اقترح لاغرانج. حسنًا، قالت غلوار. مُمتاز، قال لاغرانج.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٢

وصلا إلى الريف، ولم يشرح لاغرانج شيئًا ممّا جرى.

بعد أن أقلّتهما سيّارة الأجرة إلى شارع تيلسيت، لم يطل بهما الوقت حتّى انطلقا باتّجاه النورماندي، بـ«الأوبل»، سيّارة لاغرانج الذي لبث صامتًا إذًا خلال رحلتهما على الطريق السريعة ثمّ على الطرقات الفرعيّة التي سلكاها. سلكت السيّارة، لثلاثة أرباع الساعة، دربًا متعرّجا وسط حرجٍ، وعند منعطف شبيه بساحة، بدت بوّابة من الحديد المطرّق هي مدخلُ ممرّ محاط الجانبين بأشجار الزيزفون، وعند طرفه ينتصب مبنى قُصَيرٍ ريفيّ من الآجر الزهريّ. لم يكن الموقع بعيدًا عن البحر، وراء هونفلور، في موضعٍ ما ناحيةَ مانفيل ـ لا ـ راوو.

وصلا بُعَيدَ الظهر. كان القُصَير الذي يعود بناؤه إلى أواخر القرن السابع عشر، ينتصب بخشونة وسط بقاعٍ من المروج الذاوية: بناءٌ متوازيَ السطوحِ مُغْتَصبًا هزيلاً شبه شفّاف. نوافذ كبيرة حَسَنة التناسقِ جُعِلَت في واجهاته لكي يتخلّله الضوء كلُّه ويخترقه من جهةٍ إلى جهة. ردهات استقبال ومطبخ في الطبقة



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الأرضيّة، ثمّ طبقتان من الحجرات.

كانت الحجرة التي أفرِدَت لغلوار تحتلّ الطبقة الأخيرة بأكملها. كان هيكلها الداخليّ الظاهر أشبه بمركبٍ مقلوب؛ والواجهات من زجاجٍ خَشِنٍ غير مستوٍ مشوبٍ بشبهةٍ لون ويحتوي على حبيباتٍ تشوّش المنظر. أثاث عتيق، لوحاتٌ وتماثيل صغيرة حديثة، من بينها، على بُعدِ ستّة كيلومترات، جسر النورماندي الجديد داخلَ إطار إحدى النوافذ الستّ، كأنّه منحوتة معاصرة مثاليّة وقد سُلِّطَ على هيكلها الضوء.

سرّحت المرأة الشابّة أبصارها عبرَ النوافذ الأخرى. لجهة الطريق الضيّقة عند طرف الحديقة، مبنى منخفض مُكلّس الجدران على الطَّرزِ التقليدي، كأنّه سَبَلٌ من سوسن على غُرّةٍ من الحصائد، لا بدّ أنّه يُستَخدَمُ لسكنى العاملين. ولجهةٍ أخرى، خلف حديقة وملعب كرة مضرب ذي شباكٍ رخوة وحوض سباحة مغطّى، كانت خيولٌ واقفةً وسط مَرج. متّكئين بمرفقيهما إلى السياج، كان لاغرانج وزبغنيو مستغرقين في تأمّلها. ثمّ نزلت غلوار لتنضمّ إليهما.

كانت نحو عشرة خيول ولا تتنقّل في المرج إلّا قليلاً. ثلاثة منها كانت تهزّ رؤوسها معًا في ناحية، ومهران يجولان بلا هدفٍ حول أمّهما، أمّا ما تبقّى منها فلبِثَ ساكنًا كتمثال. لم تتعرّف غلوار من بين هذه المجموعة على جياد موبانار التي كانت قد شاهدتها، صباح اليوم نفسه، في المطار. لا بدّ أنّها تُركت لتستعيد عافيتها بعد مشقّة السفر في مجمّع الزرائب والمرابطِ الفرديّة التي تحيط بمضمارٍ عند الطرف الآخر من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

المرج. كانت بادية السقم لدى إنزالها من الطائرة لكي يتمّ نقلها، مرّة أخرى، بالشاحنات الصغيرة، كما لم تُبدِ لا حَرَنًا ولا استعجالاً، فلم يكن لأحدٍ أن يرتاب بأنّ الخيول الثلاثة الأولى كان يحتوي جوف كلّ منها على ستّين غرامًا من السيزيوم، والثلاثة الأخرى على خمسة كيلو غرامات من الهيروويين، وقد وضّبَ المخدّر داخلَ جراب بلاستيكي، بينما وضّبت المادّة الفلزيّة ضمن مظروفٍ من الرصّاص. بلى، تُرِكَت لتنعم بفترة نقاهة بعد استخراج الحمولة من أحشائها، وقبل أن تُساقَ إلى سكّين المشطّي لكي ينهي المهمّة. ذلك أنّ جوف الحصان فسيح، لاحظ زبغنيو قائلاً، وقد يتّسع لأشياء كثيرة. ماذا لو أطبقتَ فمكَ، قال لاغرانج.

هو، من جهته، سيلزم الصمت طول النهار، ثمّ طول النهار التالي، بدا أنّه لم يعد هو الشخص ذاته. خلال فترة غياب غلوار التي دامت ستّة أسابيع، كان لاغرانج قد تغيّر ولكنّ الأيّام كانت قد تغيّرت أيضًا، صارت أطول، والسماءُ صارت أرحب، والألوان صارت أزهى. وكان الفصلُ الذي تلطّفت أجواؤه، كفيلاً، بلا ريب، بتوليد ما يشبه الخفّةَ في الأفكار وإلّا لما عمدَ لاغرانج، في مساء اليوم الثالث، بعد سماعه نشرة الأخبار التلفزيونيّة الأخيرة، وبعد أن شربَ بمفرده في الصالون عددًا لا بأس به من الكؤوس، إلى اللّحاق بغلوار إلى غرفتها. لا، قالت غلوار من وراء الباب: بحركة خرقاء حاول لاغرانج أن يفتحه عنوةً، غير أنّه سرعان ما تخلّى عن المحاولة. ابتعدت خطواته المترنّحة هابطًا درجات السلّم. لا، إنّي أحلم، غمغم بيليار قائلاً وهو يتقلّب تحت غطاء السرير،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لم يكن ينقصنا إلّا هذا. في صبيحة اليوم التالي كانت السماء ملبّدة مظلمة كأنّ النهار لا يريد أن يطلع، اللهمّ إلّا إذا كان اللّيل هو الذي عَنَدَ رافضًا أن ينقشع: أنا هنا، وسأبقى. ولن يتخلّص منّي أحدٌ بلا عناء.

كان اللّيل أكثر تسامحًا فوق باريس، إذ أتاح للنهار أن يحلّ محلّه نحو الساعة السادسة في ساحة الجمهوريّة، وانصرف هو للتمتّع أخيرًا بحياته. في الطبقة الثالثة من مبنى قائم في شارع إيف ـ توديك، خلف ساحة الجمهوريّة، كان برسونيتاز يعاني من الأرق منذ فترة طويلة. فنهضَ أخيرًا من فراشه وذهبَ إلى المطبخ وهناك سكب ملعقتين كبيرتين من القهوة في كوب. فتح صنبور المياه الساخنة وترك الماء يتدفّق منها لبعض الوقت ريثما تشتدّ سخونته، ومدّ سبّابته بحركة خاطفة لتحسّس مقدار السخونة التي بلغها الماء، ثمّ ملأ منه الكوبَ الذي حمله معه، من دون سكّر، إلى غرفته. جلس إلى طاولته وراحَ يرشف هذا المزيج المرّ بجرعاتٍ صغيرة، مستأنفًا قراءة «ذكريات ومغامرات من بلاد الذهب» لجاك لندن. وبمضيّ أربعين دقيقة انطلق جرس المنبّه في منتصف جملةٍ بشأن Dow Jones، وقطع برسونيتاز الجملة التالية، وهي مكرّسة لمؤشّر Nikkei، قبل أن يغلق كتابه. تردّد صوت إغلاق الكتاب لهنيهةٍ في أنحاء الغرفة، وتوجّه الرّجل، وحيدًا، إلى الحمّام. يجب ألّا تعيش وحيدًا على هذا النحو، كان بوّاب العمارة قد قال له مرارًا من قبيل إسداء النصح. سوف تغدو ذات يوم عجوزًا ومريضًا، ولن يكون هناك من يُعنى بك.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

آنذاك، كان البوّاب، وهو من أصلٍ يوغسلافي، رجلاً متقدّمًا في السنّ، حسن الهندام، يرتدي بذلته اللؤلؤيّة وربطة عنقه القرمزيّة لتوزيع البريد الوارد على السكّان. ولكنَّ سنوات انقضت منذ ذلك الحين. . ومنذ ذلك الحين أمور كثيرة تغيّرت. غادر مستأجرون وجاء غيرهم، وهبط برسونيتاز طبقةً واحدة مستبدلاً شقّته بشقّة أخرى في المبنى نفسه، كما استردّت النقابة المبنى وحوّلته إلى شققٍ مستقلّة صغيرة، فلم يعد للبوّاب وجودٌ كما، بأيّة حال، لم يعد ليوغسلافيا وجود، غير أنّ برسونيتاز، على الرّغم من النصيحة، أصرّ على البقاء وحيدًا كما كان. طبعًا سنحت له فرص كثيرة لكي لا يبقى وحيدًا، غير أنّه لم ينتهزها، ثمّ صارت الفرص السانحة أقلّ فأقلّ. وهكذا من المؤكّد أنّ برسونيتاز لن يُضطرّ، إلى مشاطرة أحدٍ طرفَ ميراثٍ مشفوعٍ ببعض الأسهم في قطاع المنغنيز أو الزنك أو الكاديوم، في بلادٍ بعيدة، يكاد، هو، لا يدري كيف انتقلت إليه بالضبط.

مداخيل أخرى، متفرّقة وعشوائيّة، كان يحظى بها جرّاء مهمّاتٍ يكلّفه بها جوف، غير أنّه، على هذا الصعيد، يمرّ في فترة بطالة تقنيّة منذ بضعة أسابيع. كان كلّ أثر لغلوار قد تبدّد منذ الحملة الهنديّة، كما عادت دوناتيان إلى مبنى ستوكاستيك. وعلى الرّغم من شعوره بالارتياح لزوال عبئها عن كاهله، كان برسونيتاز يتّصل هاتفيًّا بدوناتيان، بين الفترة والفترة، وعلى نحوٍ متباعدٍ، رفعًا للحَرَج ووقوفًا على المستجدّات.

ارتدى بعض الملابس غافلاً عن تناسقها، عازمًا، ذات يوم من دون إصرار، على شراء حذاء ــ فهذا الذي يرتديه قطعَ ستّين



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ألفًا بحسب العدّاد. ولكن ما عدا هذا العزم المستقبليّ، لم يجد ما يفعله اليوم؛ شأن يوم أمس. ولا شيء قد يُفسِد الحياةَ كما تُفسده البطالة خلف ساحة الجمهوريّة، في شقّةٍ من غرفتين معتمتين قائمةٍ في شارع إيف ـ توديك.

تريّث حتّى التاسعة قبل أن يُجري بضعَ مخابرات هاتفيّة. أوّلاً بوكارا، ولكن من دون جدوى. منذ عودته وبرسونيتاز يحاول، يوميًّا، الاتصال به من دون جدوى. حتّى أنّه عرّج على منزله، من دون موعد سابق، ووقفَ أمام بوّابة المبنى الآليّة محاولاً عبثًا أن يتذكّر رمز الدخول الجديد، وحده الرمز القديم كان يتردّد في ذهنه كأنّه ثابتٌ فيها. وإذ بدا له أنّ بوكارا لم يَعُد بعدُ من رحلته البحريّة، حاول الاتّصال بجوف. ولكن مرّة أخرى ردّت السيّدة جوف، وهي على حافّة البكاء منغمسةً في قراءة رواية عاطفيّة، بأنّ جوف متغيّب كما هي الحال غالبًا، وكما غدت الحال في الغالب الأغلب من الأوقات. ربّما يعود غدًا. فأخطرها برسونيتاز بأنّه سيزوره بعد ظهر الغد. أمّا المخابرة الأخيرة فقد أجراها مع سالفادور.

لا جديدَ أيضًا من ناحية ستوكاستيك، وكان أقلّ ما قد يوصف به صوت سالفادور، هو أنّه لم يكن مرحّبًا. أخطره برسونيتاز بعزمه على زيارة جوف، الأمر الذي لم يحدث أيّ تغيير في نبرة المُجيب إلّا إذا كان التظاهر بالاهتمام هو التغيّر المطلوب. جيّد جدًّا، قال سالفادور بنبرة خالية من الحماسة، أرجو أن تطلعني على ما يستجدّ. مهلاً، أعتقد أنّ دوناتيان ترغب في التحدّث إليك، هيّا كلّمها. لا، قال برسونيتاز بعد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

فوات الأوان، لا. ما الذي سمعته، قالت دوناتيان، هل ستلتقي جوف غدًا؟ سأذهب معك. لا داعي لذلك، قال برسونيتاز، إنّي أعتقد حقًّا أن لا داعيَ لوجودك، سأتولّى الأمر بنفسي. لا، قالت دوناتيان بجفاء، أنت في حاجة إليّ، وأنتَ تعلم ذلك جيّدًا. إلى الغد.

ثمّ عاودت الجلوسَ أمام الكومبيوتر ضاحكةً ريثما يستأنف الآخر إملاءَ نصّه عليها. غير أنّ الآخر يقيم، في الأثناء، على صمته. يلبث جالسًا. مُطرقًا. متفكّرًا. يبدو فاقدَ العزيمة. لقد جاء إلى المكتب سيرًا على قدميه من ساحة «ناسيون». مارًّا بمحاذاة أحد الأعمدة التي تزيّن تلك الساحة، ولمجرّد أن راودته فكرة وجوده محلّ فيليب أوغوست، على علوّ خمسة وثلاثين مترًا من الأرض، انتابه دوارٌ حادّ حتّى شارفَ على الغثيان.

ثمّ كفّ سالفادور عن التفكير. يُراقب ذبابة لا أحد يدري من أين جاءت، وهي تدبّ أيضًا على سطحِ مكتبه، تدور بدَعةٍ حول جهاز الكومبيوتر وعلبة الأقلام، وتتهادى في دبيبها المتعرّج بين الأسطوانات وقنّينة المياه المعدنيّة وعبوة الأسبيرين. مُقبلةً مُدبرةً بين هذه الأدوات، كانت الذبابة تتريّث، في بعض الأحيان، لمدّة أطول أمام إحداها، كأنّها تتفحّصها، ثمّ تعود أدراجها لكي تنطلق مجدّدًا، كسائح وسط معالم أثريّة. إنّ التأمّل في أحوال هذه الحشرة ألهمَ سالفادور بعضَ الصبر والسلوان؛ فما جرى إلى الآن أهون الشقاء؛ كان من الممكن أن ينتهي بي المطافُ بائعَ سجائر بالمفرّق، في مانيلا. واستغرق مجدّدًا في التفكير. لنستأنف عملنا، قال،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

اكتبي. شقراوات فارعات ملتهبات وشقراوات فارعات باردات، الجزء الثاني.

إذًا هنالك أيضًا شقراوات فارعات باردات، كلامهنّ محسوب بدقّة، وعيونهنّ صالحة للتصوير الإشعاعي، ويرتدين تايوراتٍ متقشّفة صارمة. ربّما كنّ أكثر تميّزًا وأكثر تحضّرًا من الشقراوات الفارعات الملتهبات. غير أنّ العالم، ولأسبابٍ معاكسة، يخشاهنّ؛ قمريّات المزاج في أحسن الأحوال، يتخشّبنَ بين ذراعيه، وفي أسوأ الأحوال، يتبخّرن. يعرّضن أنفسهنّ لخطر الشفافية، للهلاك اليرقاني. يبدين قليلاً من البهجة. إيڤا ماري ـ سانت تمثّل هذه الفئة منهنّ خير تمثيل. وبعض هذا قد نجده أيضًا لدى إنغريد برغمان، على سبيل المثال.

ـ ولدى غرايس كيلي؟ اقترحت دوناتيان.

ـ بالتأكيد، قال سالڤادور، بالتأكيد. قد تكون هناك شبهةٌ من هذا في شخصيّة غرايس كيلي. إنّنا نحرز تقدمًا.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٣

الرواية العاطفيّة مفتوحة على ركبتي السيّدة جوف وهي جالسة مستقيمة الظهر على طَرفِ كنبتها، وحيدةً أمام التلفزيون الذي لا يبثّ، في ساعةٍ مماثلة، من بعد الظهر، سوى مسلسلات مستوردة من الجانب الآخر من الأطلسي، أو الجانب الآخر من نهر الرين. ممثّلاتها محقوناتٍ بالسيليكون وقد سُكِبَت شعورهنّ في تسريحاتٍ كأنّها نُحِتَت في الجمادِ، بعد أن صُبِغَت وصَلُبت بمعدنٍ حار، غير أنّها مسلسلات مؤثّرة هي أيضًا. وعلى هذا النحو، سواء كانت تتابع القصّة في الكتاب أو على الشاشة، تنزع السيّدة جوف أو تضع نظّارتها التي خلفها أو من دونها، تنهمر دموعها بأيّة حال. إنّها تنتظر عودة زوجها، ولم تنجز أعمالها المنزليّة كما ينبغي، ففضلات غدائها ما زالت متناثرة على الطاولة؛ وعلى السرير، في الحجرة المجاورة، ما زالت الأغطية غير مرتّبة ومدعوكة.

طقطقة مفاتيح عند المدخل، وإذا بجوف يظهر متأبّطًا حافظة أوراقه. لدى دخوله إلى حجرة الاستقبال، لفته احمرار عيني زوجته فرفع عينيه نحو السماء. لا تتخيّلي كم كان نهاري شاقًّا،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

زعم قائلاً، قبل أن يعدّد سلسلة العقبات واللّقاءات التي يُفترض أنّها استهلكت وقته. لم أسألك عن شيء، أجابته زوجته بصوتٍ متهدّج. ولكنّي أريد أن أخبرك يا جنفياف، قال جوف برفق، هذا كلّ شيء. إنّي حريصٌ أن أطلعكِ على كلّ شيء.

يفتح حافظة أوراقه ويفتّش بداخلها، من دون أن يكون ساعيًا للبحثِ فعلاً عن شيء محدّد. يحسب أنّه ليس عرضةً للشكوك. فلا عطر يفوح من شخصِه ولا حمرة تلطّخ ياقته ولا يبدو أنّ المشطَ سرّح شعره مؤخّرًا، ذلك أنّ جوف رجل منظّم جدًّا. ولو جازَ أنّ الغياب المطلق للأدلّة قد يشير إلى قدرٍ أكبر من الذَنْب. والبرهان:

ــ أنتَ لا تصلح إلّا لمضاجعة النساء الأخريات، لاحظت السيّدة جوف بحسرة.

ــ هه، مهلاً، قال جوف مستنكرًا، أوّلاً أنا لا أضاجع فقط النساء الأخريات، وأنتِ تعلمين جيّدًا.

ثمّ ملتفتًا إلى باب الحجرة المفتوح قليلاً: ألم يكن الأجدر بك أن تنظّفي المكان قليلاً، ألا تعتقدين أنّ الأمر أجدر وأجدى؟ قليلاً من الترتيب والعناية. أليس كذلك؟

ــ أنا أعلم جيّدًا أنّني كما أنا، أقرّت السيّدة جوف قائلة، أدركُ جيّدًا أنّهنّ أفضل منّي.

ــ كفى يا جنفياف، قال جوف معترضًا، ما الذي يدور في خَلَدك؟

تستدير، مشيحةً بوجهها، حين يهمّ بضمّها إليه، فلا يقدر



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أحدٌ أن يعانق متمنّعًا. وعندما تهمّ جنفياف جوف، كاظمةً غيظها ساعيةً إلى إنهاء النقاش حول المسألة، بإخطاره بعزمِ برسونيتاز على زيارته، يُقْرعُ جرس الباب وإذا به يدخلَ مصحوبًا بدوناتيان التي ارتدت أقصرَ وأضيق ما توفّر لها من ملابس. وإذا كان هذا الأسلوب في انتقاء الملابس يسبّب حَرَجًا شخصيًّا لبرسونيتاز، فإنّ جوف لا يمانع البتّة في أن يلقي بضعَ نظراتٍ متلصّصة.

انتحى برسونيتاز وجوف جانبًا بينما انصرفت جنفياف ودوناتيان إلى تبادل أطراف الحديث. ذلك أنّه من غير المحتمل أن تكون مسألة بسيطة كمسألة غلوار غير قابلةٍ للحلّ برغم كلّ هذه المشقّة. ولا يُعقَلَ أن يختفي كلّ أثرٍ لها. فليُعثَر على دليلٍ مهما كان ضئيلاً فيستأنف برسونيتاز متابعته للقضيّة ويجد لها حلّاً في أقرب وقت. برسونيتاز لا يستحسن كثيرًا لا مراوحته في هذه العمليّة من دون جدوى، ولا الشعور الذي استبدّ به على الأثر بأنّه غير أهلٍ للمهمّة، ولا البطالة القسريّة التي نجمت عنها. يبدو أنّه يجعل من المسألة مسألة شخصيّة.

يصغي جوف إليه متجهّمًا كأنّه مستغرق في التفكير، لكنّ عينيه تواصلان تلصّصهما على دوناتيان. برفقٍ يجرّد المرأة الشابّة من سَترِها النسيجي. حسنًا، سأرى، قال أخيرًا، سأرى ما أستطيع أن أفعل بهذا الشأن.

في الأثناء تتبادل السيّدة جوف ودوناتيان وجهات نظرٍ أنثويّة حول موضوعات أنثويّة، ولكنّ الأمر لا يقتصر على ذلك، لا يقتصر البتّة على ذلك. مُلتفتًا إليهما، لاحظ برسونيتاز أنّ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

دوناتيان على وفاقٍ تامّ مع جنفياف جوف. برسونيتاز يعرف زوجة مخدومه منذ زمنٍ بعيد، ويشعر بأنّه على وفاقٍ معها أكثر ممّا هو على وفاق معه. وأن تستمتع بحديث المرأة الشابّة يبدو فجأة في عينيه بمثابة اتفاق، أو ضمانة، أو كفالة. فعلى الصعيد العاطفي، يحتاج برسونيتاز، وعلى نحوٍ مرضي، إلى كفالة طرفٍ ثالث. ينظر إلى دوناتيان، للمرّة الأولى، نظرةً مختلفة، ولكن لهنيهاتٍ فقط. ثمّ يلقي نظرةً خاطفة إلى ساعة يده، فينظر جوف، بفعل العدوى، إلى ساعته، وفي حركةٍ جماعيّة تنظر كلّ من جنفياف ودوناتيان إلى ساعتيهما. في الحقيقة، جميعهم يحملون ساعات يد؛ وجميعهم، في أقرب وقت، لمناسبة امتحان أو حفلة عيد ميلاد أو عيد وطني أو ديني، قد قيّد معاصمهم الوقتُ؛ جميعهم يترقّبون، بالثانية، حلول ظاهرة الرابعة وعشرين دقيقة، الوشيكة. يقول برسونيتاز إنّهما سيغادران. ويغادران.

ـ هل رأيتَ ملابسها؟ تسأل جنفياف بعد مغادرتهما.

ـ آه، لا، يقول جوف، لم أنتبه.

ـ ومن ذا يصدّق كلامك، تقول جنفياف، ولكن دعنا الآن. أنا أعلم جيّدًا ماذا يعني أن ترتدي المرأة ملابسَ مثل هذه.

ـ آه، حسنًا، يقول جوف منتبهًا. وماذا يعني؟

ـ أحد أمرين، تقول جنفياف متفلسفة. فإمّا أن تكون راغبة في إغواء رجلٍ ما، وإمّا أن تكون بلغت من اليأسِ حدّه. ولكن ماذا تفعل؟ هل ستخرج مجدّدًا؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ سأعودُ للقاء شقيقك، يقول جوف. وصدّقيني ليس هذا من دواعي سروري.

غير أنّ جوف هذه المرّة يستقلّ سيّارة أجرة ويجتاز بولڤار سيباستوبول صعودًا، ثمّ ينعطف أمام محطّة الشرق ويعبر قناة سان مارتان قبل أن يدور دورةً حول البوت ـ شومون باتّجاه مخفر حيّ أميركا. في ردهة الاستقبال في مركز الشرطة، يجد أنّ الزبون الوحيد هو رجل إفريقي يرتدي طقمًا ويحمل حافظة أوراق مفصّلين، حرفيًّا، من النسيج الصناعيّ نفسه. هذا الرّجل الإفريقي الذي يرغب في الحصول على الطلبات الخاصّة بإجراءات لمّ الشمل العائلي ـ هذا المطلوب إذًا، يقول الموظّف المناوب، لكي يتسنّى لك أن تأتي بالقبيلة ـ، لا يلقى ترحابًا وسرعان ما يغادر. يصعد جوف مباشرةً إلى مكتب صهره.

يبدي هذا الأخير امتعاضه لدى رؤيته جوف مقبلاً نحوه. ماذا بعد، يقول له، ماذا تريد منّي. لا شيء، يقول جوف، ما أردته في المرّة السابقة. ما عدتُ أبالي، يقول كلوز، لم يعد هناك ما يدعوني إلى مساعدتك. حسنًا، يقول جوف، فاتحًا حافظة أوراقه، أصغِ جيّدًا. لقد ضقتُ ذرعًا بهذا الخصام. لذا أقترح عليك أمرًا هو في مصلحة الأسرة. فلنتصالح، ألا تريد أن نتصالح؟ أنظر أحمل معي الإيصال. هذا هو الإيصال. وسأردّه إليك. خذه.

الإيصال هو عبارة عن ثلاث أوراق ضاربة إلى الأخضر الفاتح، مشبوكة من إحدى زواياها ومطبوعة على الآلة الكاتبة. يتلقّفه كلوز على الفور ويدقّق في مضمونه. أمرٌ غريبٌ أن أرى



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

هذا الإيصال مجدّدًا، يقول مرجّحًا رأسه بابتسامةٍ لئيمة. أفهمُ كلامك جيّدًا، يقول جوف متبسّمًا، أفهم جيّدًا. يتصفّح كلوز الوثيقة بدقّة متناهية.

ــ ولكن مهلاً، يقول، أليست ناقصة؟

ــ لا، يقول جوف بسذاجة، هل تعتقد حقًّا أنّها ناقصة؟ مع أنّ هذا كلّ ما وجدته بين أوراقي.

ــ أنتَ تخدعني، يقول كلوز بمرارة. أنتَ تستغفلني.

ــ أبدًا، يصيح جوف قائلاً، على الإطلاق.

ــ كلّ القسم المتعلّق باللّحم مفقود، يوضح كلوز قائلاً وهو يلوّح بالوثيقة أمام أنفه.

ــ لا أدري عمّا تتكلّم، يقول جوف. ولكن لا بأس، إذا كان هذا ما تظنّه فعلاً، فدعني أستردّه إذًا.

ويخطفه من يده خطفًا.

ــ مهلاً، يقول كلوز، لا، دعه لي. ففي آخر الأمر هذا هو الإيصال.

ــ لا، يقول جوف، وألف لا. ما دمتَ لا تثق بي أصبحت المسألة مسألة تبادل. أعطيك الإيصال إذا عثرت لي على معلومة جديدة بشأن الفتاة.

لهنيهاتٍ يلبث كلوز رامقًا جوف بنظرةٍ خالية من أيّ مودّةٍ ثمّ: انتظرني قليلاً، يقول. بانتظار عودة صهره، يستغرق جوف، في تأمّل غصن شجرة الدلب إيّاه، مهتزًّا برفق، عبرَ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

النافذة. الغصن نفسه، لكنّ اليوم مختلف: الشجرة تبرعم في هذه الآونة. إنّها الخامسة مساء.

يعود كلوز أسرعَ ممّا اعتاد في المرّات السابقة، وبيده وثيقة. ثلاثة سطور مدوّنة بخطّ اليد على صفحة مفكّرة، تتضمّن عنوان مؤسّسة لأمراض الشيخوخة في السان ـ ماريتيم. لقد وجدت هذه، يقول. والآن أعطني الإيصال. بالتأكيد، يقول جوف، خُذ. أحسب أنّني سأقبّل جنفياف بالنيابة عنك. أحسنتَ، يقول كلوز مغادرًا كرسيّه ليفتح له الباب، قبّلها. قبّلها بقوّة ثمّ اذهب إلى حيث ألقت. روبير، صاح جوف شاكيًا، يا روبير، لماذا دائمًا تردّد على مسمعي مثل هذا الكلام؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٤

كانت الأيّام تنقضي لا يتخلّلها سوى نزهات قليلة في الأرياف ـ زُعرور، دروب ضيّقة متعرّجة، سياجات، أبقار ـ أو بقرب البحر ـ يودّ، مكاسرُ موجٍ، أُشْنات، نوارس ـ، وفُرجاتٍ على الخيول سرعان ما يغلِبُ عليها السأم، وقراءاتٍ ساهية، وجلسات شرود أمام التلفزيون. ربّما كان على غلوار أن تستفيد من الهواء النقيّ والطعام الصحّي المتنوّع، من النوم الهنيء والنوافذ مشرعة، كان بوسعها أن تزاول بعض التمارين الرياضيّة، غير أنّها غَفِلَت عن الأمر تمامًا.

كانت تجد الأيّام طويلة جدًّا، وكانت، هي أيضًا، غالبًا ما تنظر إلى الساعة، إذ لم يسبق لها أن شهدت أوقاتًا بمثل هذا البطء. بطء مُخْبِطٌ، مضاعفٌ أضعافًا، ثقيلٌ على شفا الجمود. بطء العشب الذي ينمو، بطء الكَسولِ أو الصمغ. ذلك أنّه لو وُجِدت مفردات يرتبط تطوّرُها بمعناها، لاحتلّ البطء الصدارة منها: فالبطءُ هو من البطءِ بحيث أنّه لم يجد بعدُ أيّ مُرادِف له، بينما السرعة، التي لا تضيّع دقيقة، صار لها ما لا يُحصى من المرادفات.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كان بيليار أيضًا لا يكفّ عن النظر إلى ساعته، ويعبّئها باستمرار. كانت ساعة اليد الآليّة هذه، من زمن ما قبل الكوارتز، والمشبوكة حول معصمه، إحدى الأدوات الملائمة لمقاسِه التي يمتلكها الكائن الضئيل: مشط، مرآة، منديل، ونظّارة سوداء. كان في الأيّام الأولى مصرًّا على ارتداء نظّارته، تيمّنًا بالزمن الجميل في البلدان الحارّة، غير أنّه تخلّى عن هذا الإصرار لأنّ النظّارة الداكنة كانت تحجب عنه الرؤية فيصطدم بكلّ ما يصادفه. ثمّ سرعان ما ساء مزاجه، فبات لا يكفّ عن الحرد والشكوى. كان يفتقد عطلاته الجميلة في المناطق الاستوائيّة، وغالبًا ما يشكو من السأم، ويهدّد بالرحيل. حسنًا إذًا، قالت له غلوار ذات مرّة وقد ضاقت ذرعًا بشكواه، هيّا اهرب، ارحل. إنّك حقًّا لمُتعِب. فإذا ببيليار يقفز على نعليه مُشيرًا بإصبعه:

ـ لا أسمح لك بأن تخاطبيني بهذه اللّهجة، قال منطنطًا. لا تحسبي أنّك أوّل من رعيت، لقد أسديت النصحَ من قبل لمن هم أعلى شأنًا منك. أناس مرموقون. في عالم الاستعراض والفنّ وسواه.

ـ ثمّ ماذا؟ قالت غلوار. هل ماتوا؟

ـ لِمَ تودّين أن يكونوا أمواتًا؟ قال بيليار مستنكرًا. إنّي بارع في أداء عملي.

لمّا عبّرت عن دهشتها لكون هؤلاء الناس المرموقين كفّوا عن الاستعانة بخدماته إذا كانوا فعلاً لا يزالون على قيد الحياة، حَرِدَ بيليار وراح يعاين أسنانه بمرآته الصغيرة. وبصوتٍ خفيض



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ذكر لها بعض المشكلات التي واجهته، موضحًا أنّه لا يرغب في الاستفاضة حول ظروفِ الاستغناء عن خدماته. عفوًا، قالت غلوار، ماذا قلت؟ هلّا ردّدتَ كلامك؟ وإذا بالكائن الضئيل، يردّد، مرغمًا، عبارة الاستغناء عن خدماته.

ــ ولكن مهلاً، قالت غلوار، هل تعني أنّه يمكن الاستغناء عن خدماتك؟

ــ طبعًا ممكن، قال بيليار، يكفي أن ترغبي في ذلك.

ــ ولكنّي هذا ما أرغب فيه، أنا، قالت غلوار، وما أريده.

ــ لا، لا، قال بيليار ساخرًا مادًّا لسانه الأسود أمام المرآة المستديرة. أنتِ لا تتمنّين ذلك كِفاية.

ــ هيّا اغرب أيّها البائس الضئيل، خلصت غلوار إلى القول. أيّها البائس المغفّل الضئيل.

بالاختصار، كانت مشاحنات طفيفة كما يحدث عادةً عندما يتباطأ الوقت، حتّى إذا تمادى في بطئه ثارت الأعصاب لأبسط الأمور. بيليار قد يكون مصدر إزعاج، وكذلك لاغرانج وحتّى زبغنيو. حتّى الخيول. نبلغ حدًّا يزعجنا فيه كلب، يزعج بدوره كلبًا آخر، ينبح عند طرف الحديقة طول فترة الصباح. كما أنّ السأم غالبٌ أيضًا. على غرار جنفياف جوف، وفي ظلّ غياب أيّ خيار آخر، تطاولت أوقات مشاهدة التلفزيون أكثر فأكثر. أفلام («سوف تفقدها، يا ألكس. تعتقد أنّها تحبّك») وبرامج الألعاب («أرجو أن تعيرني كلّ انتباهك يا روجيه. ما هي الأزهار التي غالبًا ما نراها على الشرفات؟ ــ أزهار نيلوفر، لا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

أقصد أزهار البيتونيا، أوه، لا، لا، كنت أقصد أزهار الجيرانيوم. ـ للأسف يا روجيه لا أستطيع أن أحتسب إلّا الإجابة الأولى. إذًا، أزهار نيلوفر») النشرات الإخباريّة. أبدًا لا يؤتى على ذكر غلوار في النشرات الإخباريّة. ليس هناك، بأيّة حال، ما يدعوهم إلى ذلك. ومع ذلك تخشى أن يفعلوا ذات يوم. ما تخشينه ليس أن يأتوا على ذكرك، قال لها بيليار ذات مرّة بألمعيّة ظاهرة، بل تخشين ألّا يفعلوا. كفى! صاحَ قائلاً بُعيدَ إدلائه بدلوِه، أنت تعلمين جيّدًا أنّني لا أطيق العنف الجسدي.

على هذا النحو، بلا أفقٍ ولكن أيضًا بلا مخاطر، انقضى اثنا عشر يومًا طويلاً، ليس كما اشتهت غلوار أن تكون على الإطلاق؛ كانت في مأمن بالتأكيد، غير أنّه المأمن الضيّق. ذات مساء حاولت أن تستدرج زبغنيو، غير أنّ زبغنيو هذا لم يكن بارعًا في خوض الأحاديث. أمّا الكتب القليلة التي احتوتها أرفف المكتبة في الصالون، فلم تلبث غلوار أن قرأتها جميعًا. كان بيليار يواصل حَردَه، ولاغرانج يعاقر الشرابَ يوميًّا وفي ساعات مبكرة. لذا كان من المستحسن أن تلتفت إليه؛ أن ترعاه قليلاً.

ذات صباح مشرق جاءته غلوار قبل انصرافه إلى الشربِ ورجته أن يقلّها بسيّارته إلى روين. فقط مسافة الطريق، ذهابًا وإيابًا، على أن يعودا في وقتِ العشاء. والله، قال لاغرانج، لِمَ لا. تغيير جوّ. هيا بنا. وانطلقا على طريق روين. عند بون ـ اودومير، توقّف لاغرانج لملء خزان الأوپل بالوقود، فابتعدت غلوار عن المحطّة باتّجاه أحد فروع المخازن الكبرى «شوبي».



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ماذا تفعلين، سأل لاغرانج، إلى أين تذهبين؟ أريد أن أشتري قنّينة كونياك. فكرة ممتازة، قال لاغرانج.

كان ثمن أفخر أنواع الكونياك في «شوبي» مئة واثني عشر فرنكًا وعشرين سنتيمًا، في علبة من الكرتون المقوّى، ثمّ انتقلت غلوار إلى قسم القرطاسيّة حيث اشترت لفّةَ ورقٍ لاصق ولفّة ورق هدايا. لدى عودتها إلى السيّارة انطلقا مجدّدًا، وتمكّنت في الطريق، وإن ببعض المشقّة، من تغليف العلبة بورقة هديّة، الأمر الذي استغرقها بعض الوقت لكنّها في النهاية حصَلَت على رزمة ـ هدية لائقة. كان لاغرانج قد ضبطَ راديو السيّارة على محطّة تبثّ موسيقى ج.ج. كايل، طبعًا، لكنّها تبثّ أيضًا موسيقى «بوز سكاغز»، وراح يربّت بأطراف أصابعه على المقود، كما أنّه لم يقترف حماقة الإفصاح عن رغبته في أن يذوق الكونياك.

روين، ومن بعدها ضاحية روين. عمارات المساكن الشعبيّة، مستشفى، مقبرة، دار نقاهة؛ رُكِنَت السيّارة أمام دار النقاهة. انتظرني هنا، قالت غلوار وهي تفتح الباب، لن أتغيّب طويلاً. هنا أيضًا أبدى لاغرانج قدرًا من الكياسة ولم يقترح أن يرافقها.

عند مكتب الدخول، طلبت غلوار مقابلة السيّد آبغرال. صلة القرابة: ابنته الوحيدة. انتظري قليلاً، قيل لها. في ختام هذا الانتظار القليل أقْبَلَ ممرّض نحوها. شخصٌ وسيم الطلعة، طويل القامة، مهفهف، ودود ويبدو أنّه يعرف والدها جيّدًا، إذ راح يتحدّث عنه بعطفٍ، ثمّ اصطحب غلوار لتقابله أثناء جلسة العلاج بالتشغيل. في غمرةِ حديثه مع سيّدةٍ في مثل سنّه، نهضَ



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

آبغرال، الأب، عن كرسيه لدى اقترابهما. ليس طويل القامة، وليس بدينًا؛ شاربان رفيعان أشيبان؛ بدا مشوّشًا قليلاً غير أنّه محافظ على أناقته في بذلته الباهتة ـ شبيه السلافي، بوّاب عمارة برسونيتاز السابق، غير أنّ أحدًا سوانا لن يعلم بذلك ـ، قبّل يد غلوار ما إن أصبحت قريبةً منه. هذه هي ابنتك يا سيّد آبغرال، أكّد الممرّض بحبور، أنت مسرورٌ لرؤيتها. حدّق العجوز طويلاً بغلوار، لا بل أطول ممّا ينبغي. حسنًا، قال، هل جئت من أجل التوزيع، حسنًا. لقد جئتِ من أجل المساهمة. اجلسي. التفتَ نحو مجايلته: لقد جاءت من أجل الأجرة، أسرّ إليها قائلاً بصوت خفيض.

على الرّغم من الأنشطة الهادئة التي تقوم بها نساء عجائز في الجوار ـ أشغال صنّارة، والنسج المسرود، وصنع الأزهار الاصطناعيّة وسلال القصب ـ، كانت حجرة العلاج بالتشغيل تضجّ بصخبٍ مسموع. على كراسيهم المتّسخة ذات القُعُدات المجدولة من حبال البلاستيك، والهياكل المعدنيّة الصدئة، كان عجائزُ بلا أسنانٍ منفتحون يتأرجحون على نحوٍ خطر، فيما آخرون ينشدون معًا («آه، يا لذّة العناق الأوّل المحيّرة»)؛ كانت الرّائحة فريدة من نوعها، والتلفزيون بأعلى صوته. هلّا تدبّرت لنا مكانًا أكثر هدوءًا، قالت غلوار قَلِقةً. هذا غير مسموح مبدئيًا، قال، ولكنّي سأحاول أن أتدبّر الأمر. سنجد ركنًا هادئًا. كان الركن عبارة عن صالون يسوده السكون، معتم للوهلة الأولى، غير أنّ الممرّض سارع، ببادرة لُطفٍ ثمينة من قبله، إلى رفع الستائر كاشفًا بذلك عن مرجةٍ فسيحة. كان الأثاث ملمّعًا، وورق الجدران مزركشًا بالورود، والمقاعد



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

مكسوّة بأغطيةٍ. غادر الممرّض ثمّ عادَ حاملاً الشاي، ثمّ غابَ مجدّدًا. فلبثا وحدهما.

إذًا، قالت غلوار، هل أنتَ بخير؟ أنا شخصيًا بخير، أجاب الأب، ولكنّ طيور القيق ليست بخير، كما ترين. أيّ قيق هذا؟ سألته غلوار. طيور القيق ليست على أحسن ما يرام، أوضح قائلاً، لا بل بوسعنا القول إنّها ليست على ما يرام إطلاقًا. أقصد، قالَ مميّزًا كلامه إثر تفكير عميق، أنّ حالها ليست على هذا القدر من السوء. هل تأكل جيّدًا، قالت ابنته متمنّيةً أن يردّ عليها بالإيجاب. آكل أفضل منهم، قال غامزًا بعينه. أفضل منهم بعشرة أمثال، قال مغالبًا ضحكه، أكثر بعشرة أمثال. لا، قالت غلوار، أقصد هل الطعام جيّد؟ هل هو لذيذ؟ المهمّ أنّه ساخن، أجاب والدها. حسنًا، قالت غلوار، من الأفضل أن يكون الطعام ساخنًا. هذا صحيح، قال. هل ترى كم الطقس جميل؟ قالت غير واثقةً من كلامها، غير أنّ والدها بدا غافلاً عن الملاحظة التي أبدتها. خذ، لقد أحضرت لك هذه، أردفت قائلة. هذا لطفٌ منكِ، قال متعجّبًا، ما هذا؟ قنّينة كونياك، إنّها لك، قالت غلوار، كالعادة. آه، كونياك، قالَ مبتهجًا، لم أذق الكونياك من قبل. أحقًّا لم تفعل، قالت غلوار، غير أنّ الرّجل لم يفطن، هذه المرة أيضًا، إلى تعليقها. حسنًا إذًا، أنا مضطرة إلى الذهاب الآن. هذا صحيح، قال ساهيًا، أنت مضطرة إلى الذهاب. سأعود لزيارتك في أقرب وقت، قالت. طبعًا، قال، رجاءً لا تتأخري.

بعد أن أعاد آبغرال إلى جلسة العلاج بالتشغيل، رافق



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الممرّض اللطيف غلوار حتّى المدخل. راقها هذا الممرّض بقدرٍ ما. قبل أن تغادر طلبت منه ألّا يسمح لهم بمصادرة الكونياك من والدها لارتيابها بأنّهم فعلوا في المرّة السابقة. ذلك أنّ المشروبات الكحوليّة ممنوعة هي أيضًا، قال الممرّض بابتسامةٍ عريضة، ولكن هناك دائمًا طريقة لتدبير الأمور. وسأحرص على ذلك. ولكن ماذا لو طرأ طارئ بشأن العجوز، قال مبديًا قلقه، فهلّا زوّدته غلوار برقم هاتف حيث يستطيع الاتصال بها، أو بعنوان؟ تردّدت لهنيهاتٍ، إنّه يروقها بالفعل، ولكن لا، قالت أخيرًا، أنا سأتّصل.

غادرت غلوار دار النقاهة وتوجّهت نحو الأوپل المركونة على أرضيّة من الحصى أمام مبنى إداري صغير. سيّارة إسعاف ذات غطاءٍ أبيض كانت مركونة، رأسًا لمؤخّرة، بجانب سيّارتهما. صعدت غلوار إلى الأوپل التي سرعان ما انطلقت، مُناورةً، ثمّ اجتازت البوّابة وتوارت. بعد خمس ثوان انطلقت سيّارة الإسعاف بدورها. على العتبة وقف الممرّض مراقبًا حركة السَّير. لبثَ ساكنًا بلا حراك لخمس ثوان أخرى، ثمّ هبط درجات السلّم واجتاز البوّابة بدوره. على بعد خمسين مترًا إلى اليسار، دخلَ إلى كشكِ هاتف عمومي، وأدخل في الجهاز بطاقةً زُيّن وجهها بمنظرٍ مثلِجٍ بعد أن قرأ ساهيًا، على مقلبها، نصًّا دعائيًا هو التالي: «على مَرّ الفصول، تتغيّر الآفاقُ كما تتغيّر الأحاسيس. بوسعك الآن توصيل هذا الشعور بأهون السُبُل». عبارة أعادت البشاشة إلى وجهه، ثمّ طلبَ رقم جوف.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٥

المرأة التي تبحث عنها مرّت بنا للتوّ، قال الممرّض. أجل، ثمّ غادَرَت. لا، لم تترك عنوانًا، غير أنّ شخصًا من قبلنا يتبعها. من المفترض أن أحصل عليه هذا المساء؛ وسأتّصل بك مجدّدًا في الغد. وما هو التدبير بخصوص المال؟ سنرى غدًا، أجاب جوف قبل أن يضع السمّاعة مستديرًا نحو زوجته. برغم كلّ شيء، أحيانًا يظهر أخوك بعض الصدق في تعاملاته. فقد تُثمِرُ المعلومة التي زوّدني بها. ألا تعتقدين أنّه ينبغي أن ندعوه إلى العشاء؟ طبعًا لا، أجابت جنفياف. حسنًا، قال جوف، سأحاول في الأثناء أن أبلغ برسونيتاز بالمستجدّات.

انقضى نهار اليوم التالي بسرعة غريبة. في البداية جاء برسونيتاز إلى منزل الزوجين جوف عند التاسعة صباحًا، وكانا قد فرغا للتوّ من تناول طعام الفطور. بدت السيّدة جوف أقلّ سهوًا، وأقلّ عصبيّة، وأكثر استرخاءً ممّا تكون عادةً. لِمَ لم تأتِ بصحبة المرأة الشابّة التي اصطحبتها في المرّة السابقة؟ سألت وهي تسكبُ له القليل من القهوة. زمّ برسونيتاز شفتيه ولم يجب عن سؤالها. إنّها حقًّا جميلة، أليس كذلك، قالت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

جنفياف متبسّمةً، أنتَ محظوظ فعلاً. أراد برسونيتاز أن يبدي عدم اكتراثه بالأمر، غير أنّ ذلك لم يحل دون احمرار وجنتيه ارتباكًا دالقًا ربعَ قهوته في الطبق الذي وُضِعَ عليه الفنجان. حيال هذا المشهد جعلت السيّدة جوف ترفّ أجفانها. ولحسن طالع برسونيتاز حدثَ ما يستقطب انتباه الجميع، إذ اتّصل الممرّض اللّطيف في تلك اللّحظة بالذّات: أملى عنوانَ غلوار على جوف الذي سارع إلى تدوينه. ثمّ كرّر سؤاله بشأن المال، فوعد جوف بأن يعطيه المال.

ـ وماذا أفعل الآن؟ سأل برسونيتاز.

ـ عليك أوّلاً أن تنقل هذه المعلومات إلى الزبون، قال جوف. واحرص على تذكيره بالمبلغ الإضافي لقاء خدمات الممرّض.

ـ هذا ليس من اختصاصي، قال برسونيتاز مستنكرًا. سأعرّج عليه بطيبة خاطر لأطلعه على ما استجدّ، أمّا مسألة المال، فحلّها منوط بكَ أنتَ.

ـ حسنًا، قال جوف راضخًا. على كلّ حال يجب أن تنطلق في أقرب وقت ممكن. فهل ستذهب بمفردك؟

ـ لا أدري حتّى الآن، قال جوف مجتنبًا نظرات التعاطف التي ترمقه بها السيّدة جوف. أحسب أنّني سأذهب بمفردي. لا أدري.

عند العاشرة وخمس دقائق، استأذنَ برسونيتاز مغادرًا الزوجين جوف وانطلق قاصدًا مقرّ ستوكاستيك، حيث، منذ التاسعة والنصف، قرّر سالڤادور أن يغيّر منهجه في تناول مسألة الشقراوات الفارعات. وأن يبدأ مجدّدًا من الصفر. وأن يقارب



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الموضوع بالترتيب. وبدايةً ماذا نعني بالشُقْرة؟ المعاجم الفرنسيّة التي تعرّفها بأنّها لون وسطٌ بين الكستنائيّ الفاتح والذهبيّ، لا تذكر بعد ذلك سوى مشتقّين أو ثلاثة، البُندُقيّ والأغبر ولا أدري ماذا أيضًا. أمّا المعاجم الأميركيّة فتقيمُ صِنافةً أدقّ إذ تميّز بين الأشقر الرّملي والأشقر النحاسي والأشقر البلاتيني والأشقر العسلي، من دون أن تغفل عن ذكر الأشقر الداكن (dirty blond) وسواها. حسنًا. فلنتابع.

لكن عند العاشرة وخمس وثلاثين دقيقة جاء برسونيتاز ليقطع على سالڤادور تأمّله. كان سالڤادور بمفرده، ودوناتيان لم تأت بعد. قضي الأمر، طمأنه برسونيتاز على الفور، لقد عثرنا عليها. إذًا اذهب إليها يا برسونيتاز، قال سالڤادور شارد الذهن، اذهب إليها. أخشى أنّ الأمر ليس بمثل هذه السهولة، قال برسونيتاز معترضًا، لقد رأيت بنفسك أنّها ليست سهلة المنال. إنّه لأمرٌ غريب حقًّا، لاحظ سالڤادور قائلاً، لِمَ تبدي هذا القدر من التوحّش؟ ليس في نيّتنا أن نؤذي هذه الفتاة، فلِمَ تقابلنا بردّ فعلٍ مثل هذا؟ الحقيقة، لا أدري، قال برسونيتاز.

غير أنّه يدري، أو، في الأقلّ، لديه فكرة، ولو غير دقيقة، عمّا يجري. سالڤادور ومساعدته لا يُخفيان دهشتهما حيال تصرّفات غلوار، ويجدان أنّ فظاظة ردود فعلها لا تناسب الغرض الفعلي من مشروعهما. أمّا برسونيتاز فيجد، ولو محتارًا، أنّ الأمر طبيعيّ. إذ ليسَ مؤكّدًا أنّ جرجرة شخص ما لكي يظهر على التلڤزيون هو بادرة بريئة كلّ البراءة. مع ذلك لا يُظهر شيئًا ممّا يدور في خَلَدِه. حسنًا إذًا، اقترح سالڤادور



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

قائلاً، اصطحب دوناتيان معك، إذا كنتَ قلقًا، اطلب منها أن ترافقك. شخصان للمهمّة أفضل من شخص واحد. أجل، قال برسونيتاز، قد أفعل. إنّه متردّد وهو يضيق بأيّ تردّد. فإذا كانت أموره مع دوناتيان ما زالت عالقةً فهو يشعر أيضًا أنّ مكانتها تكبر في نفسِه.

وإذا بها مقبلةً نحو الثانية عشرة إلّا ربعًا، فيطلعانها على المستجدّات. إذًا، قالت، هل ننطلق؟ أحسبُ واللهِ، يسمع برسونيتاز نفسَه قائلاً، أحسبُ بلى، فلننطلق. يلبثان بضع دقائق أخرى وهما يتداولان بهذا الشأن، ثمّ ينطلقان نحو الثانية عشرة وعشر دقائق ظهرًا في سيّارة دوناتيان.

لكن بين ازدحام السّير على الطريق السريعة، وبين وقتٍ مقتطَع لتناول بعض الطعام على الطريق، وبين السعي للاهتداء إلى الطريق بحسب تعليماتِ الممرّض، كانت الساعة قد شارفت الثالثة بعد الظهر لمّا اهتديا إلى القُصير. ركنا السيّارة عند زاوية جدارين خفيضين، حيث يتاح لهما أن يراقبا خلسةً مدخل العقار. وعندما أخرجت دوناتيان من حقيبتها علبة سجائر، سارع برسونيتاز إلى إنزالِ زجاج النافذة حتّى ثلثيه.

حالفهما الحظّ فلم يضطرا إلى الانتظار طويلاً. بمضيّ أقلّ من ساعة ظهرت غلوار وهي تقود سيّارة لاغرانج بمفردها. فتمّ التعرّف إليها على الفور ثمّ تتبّعها من بُعد فيما كانت تسلك طريق هونفلور. كان برسونيتاز يقود السيّارة بأناة بالغة محرّكًا مقبض تبديل السرعة والمقود بأطرافِ أصابعه، مجتنبًا أيّ طقطقة ميكانيكيّة، كأنّ كلّ حركة مباغتة أو فظّة من شأنها أن



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تفسِدَ العمليّة بأسرها؛ وبعبارة واحدة كان كأنّه يمشي على بَيْضٍ. لقد سعينا وراءها حتّى أقاصي الأرض، قال في سرّه، ولم نوفّق، وإذا بها قابَ قوسين أو أقرب.

كان الطقس جميلاً جدًّا كطقسِ البارحة تقريبًا: عند الرابعة وخمس دقائق جلست غلوار على شرفة بار، عند المرفأ، حيث طلبت كوبًا من البيرة. قد يدلّ مظهرها على أنّها تنتظر شيئًا ما أو أحدًا ما. على شرفةٍ محاذية لم تغفلْ عنها لحظة واحدة عيونُ دوناتيان التي كانت تشرب عصير برتقال وبرسونيتاز الذي اكتفى برُبعِيّةَ «فيشي». تظاهرا بأنّهما يتبادلان أطراف الحديث كما يفعل الكومبارس في السينما، إذ يقتصر دورهم على تبادل الأحاديث في الخلفيّة وبأصواتٍ غير مسموعة: شفاههم تتحرّك عبثًا وحواراتهم ليست سوى قبض ريح. على أيّة حال لطالما وجد برسونيتاز صعوبةً بالغة في التحدّث بهدوءٍ إلى دوناتيان ــ وهذا هو مصدر ألمه ومأخذه على نفسِه.

إذا كان لا يدري جيّدًا كيف ينبغي التصرّف مع دوناتيان، فإنّه لم يدرِ أيضًا كيف التصرّف مع غلوار. كان لا يزال حائرًا متردّدًا. ما العمل بالضبط. هل يكلّمها. يقنعها بأنّهم لا يضمرون لها شرًّا. خطفها بالقوّة. بالحُسنى. لقد علّمته التجارب أنّ كلّ مراقبة وكلّ محاولة للاقتراب منها أو لإقامة صلة بها، أدّت، في النهاية، إلى ردود فعلٍ عنيفة. وهما الآن موشكان على التحقّق ممّا ستسفر عنه محاولتهما المقبلة، وسيسعيان لأن يتقنا صنيعهما بقدرِ المستطاع.

غادرت غلوار شرفة البار عند الخامسة إلّا خمسًا وعشرين



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

دقيقة. وكان عليهما أن يتبعاها سيرًا على الأقدام إذ سلكت باتّجاه المنارة الكلسيّة التي تنتصب على مسافةٍ غير بعيدة من المرفأ، باتّجاه تروفيل، على نتوءٍ صغير محاذٍ لجرفٍ متوسّط العلوّ. الجدير ذكره أنّ غلوار ــ التي لاحظت أمسِ أنّ سيّارة إسعاف متباطئة ومن دون مصباح دوّار قد تبعتها من روين ــ تنبّهت بالطبع إلى السيّارة المجهولة التي لحقت بها مجدّدًا حتّى هونفلور. وتابعت طريقها كأنّ شيئًا لم يكن.

الباب الخفيض عند قاعدة المنارة ــ والحقيقة أنّه ليس منخفضًا أكثر من سواه، لكنّه يبدو مسحوقًا بفعلِ الوهم البصري ــ، ستفتحه غلوار بدفعةٍ من يدها عند الخامسة إلّا خمس دقائق قبل أن ينغلقَ مجدّدًا وراءها. ذلك أنّ المنارة، في نظر مطارديها، هي الشَرَك المثالي للإيقاع بها أخيرًا: سيدخل برسونيتاز بدوره من هذا الباب، تتبعه دوناتيان. سيتسلّق السلّمَ الحلزوني ذا المئة وعشرين دَرَجة. وسيفضي به السلّم إلى منصّةٍ مستديرة ضيّقة، في الفضاء الرحب، مطلّة على المرفأ. سيتسع وقته لمشاهدة الأمواج، المتوازية بهذا القدر أو ذاك، مقبلةً لتتكسّر برفقٍ على الخطّ الساحلي كما تحاذي السطور المكتوبة خطّ الهامش. هبّاتُ رياحٍ قويّة، عبورُ نوارس في الأجواء أكثر حيويّة في الأعالي منه على صفحة الماء، وشمسٌ منكمشة، أكثر برودة من أن تغشى الأبصار. بدورها ستظهر دوناتيان في غضون ثوانٍ. إذًا عند الخامسة تمامًا، مندفعةً من وراء حاجزٍ خفيض، ستباغتُ غلوار برسونيتاز من الخلفِ، فتقذفُ به بقوّة، كما تتقنُ غلوار أن تقذفَ الناسَ، من فوق درابزون المنصّة إلى الأسفل. سبق لنا القول إنّها ليست منارة عملاقة، بل هي أشبه



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بلعبة أولاد، أشبه بديكور فيلمٍ سينمائي زهيد التمويل. لذا فإنّ السقوط من أعلاها لا يؤدّي حتمًا إلى الموت، غير أنّ الناجي إذا قيضَ له أن ينجو من سقطته، فلسوف يؤذي نفسَه بشدّة ويخرج من التجربةِ معوّقًا.

حدث كلّ شيء كما توقّعنا للتوّ، باستثناء تفصيل وحيد، وهو أنّه في اللّحظة الأخيرة ـ عند الساعة ١٧ والدقيقة ٠٠ والثانية ٠٣ ـ، وبينما كان برسونيتاز يهوي من ذلك العلوّ، قرّر بيليار التدخّل. هو الذي لا يظهر مطلقًا في المضمار الاجتماعي المرئي كان قد عقد العزم على الاستعانة، علنًا، بقدراته الخارقة. طالعًا من حيث لا ندري، اندفع بيليار نحوَ دوناتيان، ممسكًا بها من خاصرتها وقذفها، بدوره، باتّجاه برسونيتاز. لم يتّسع وقت المرأة الشابّة لأن تشعر بالخوف. راحت تحلّق كالمظليين متهادية في الفضاء، ولحقت ببرسونيتاز أثناء سقوطه وأمسكت به من كتفيه قبل أن تعيده، منقادةً لقدرات الكائن الضئيل، إلى منصّة المنارة. كلّ هذا حدث بسرعة خاطفة، في بضع ثوان، ولم يفهم أحدٌ شيئًا ممّا جرى ـ كحال المصابِ إثر نوبة صَرَع إذ لا يرغب أحد أن يفهم فعلاً ما جرى. بعد أن سوّى هندامه، مشوّشَ الفكر شاردَ النظرات، تمالك برسونيتاز صدمته وعرّف عن نفسِه: جان ـ شارل برسونيتاز، تشرّفنا. غلوار آبغرال، قالت غلوار. وتبادلا نظراتٍ خالية من المودّة لكنّها خالية أيضًا من العداوة، إذ بدا الجميع متعبين. لم ينتبه أحد إلى بيليار متسلّلاً، خلسةً، ضاربًا كفًّا بكفّ، نافخًا قفَصَ صدره، مملّسًا تسريحته براحتيه، هكذا تُنجز الأعمال.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٦

ــ نحن لا نضمر لكِ شرًّا، قال برسونيتاز. ليس أنا، على أيّ حال. ماذا تشربين؟

كانوا قد غادروا المنارة وسلكوا طريق المرفأ، سيرًا على الأقدام، فيما النهار يأفل. رويدًا كان يأفل مكتنَفًا بلون القواقع الورديّ أو الفراولة بالقشدة وأزهار سيف الغراب. كان الجوّ قد برد قليلاً وما عاد ممكنًا الجلوسُ على شرفة مقهى، لذلكَ غاصوا في مقاعد فندق «الأبسانت» الوثيرة. في ساعة مماثلة يكون الزبائن قلّةً، فيما السّاقي، شبيه جورج ساندرز، يمسح البار مستعدًّا لتلقي الطلبات:

ــ كأس مارتيني ــ جين، قالت غلوار.

ــ اختيار رائع، قالت دوناتيان، بحقّ. وأنا أيضًا سآخذ كأس مارتيني ــ جين.

ــ حسنًا إذًا، ثلاث كؤوس مارتيني ــ جين، قال برسونيتاز مخاطبًا جورج، رافعًا ثلاث أصابع.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

في العادة يتجنّب برسونيتاز تناول المشروبات الكحوليّة، ولكن بعد حادثة المنارة، كان يحتاج إلى شرابٍ مقوٍّ. كانوا يشعرون بفتورٍ يسري في أبدانهم كأنّهم خارجون من مباراة رياضيّة أو من عرضٍ مسرحي افتتاحي، عندما يلجأ اللّاعبون أو الممثّلون إلى حجرة تبديل الملابس أو إلى المقصورة الخاصّة، لاسترداد أنفاسهم. يتركون فيها الدور ولباس السباحة والبذلة لكي يرتدوا الملابس المدنيّة ويعودوا لاستئناف حياتهم العاديّة. يزفرون ملء الرئتين، يتنفّسون الصعداء. قد تدور فيما بينهم أحاديث هادئة، متسامحة، مغلّفة بالتهذيب، ولكن في البداية، ولبضع دقائق طويلة، يلزمون الصمت.

في العادة يتجنّب تعاطي التبغ أيضًا، ولكن بما أنّه، استثناءً، يشعر برغبة في التدخين، استأذنَ وغابَ هنيهاتٍ. ولمّا عاد حاملاً علبة سجائر سوبرلايت ذات فلتر مثلّث الطبقات، شرعت دوناتيان في شرح الظروف التي قادتهم جميعًا إلى هذا اللقاء. شرعت دوناتيان في استعراض جوانب نشاطها لحساب التلفزيون، وأسلوب عملها، ومشاريع البرامج ـ ومن بينها البرنامج الذي تودّ أن تنجزه عن حياة غلوار، وهو سبب مطاردتها خلال الشهرين المنصرمين. الجميع مصرّون على إنجاز هذا البرنامج، ودوناتيان مصرّة جدًّا بهذا الخصوص وكذلك ربّ عملها المدعو سالفادور. فهل تقبل، في الوقت الحاضر، أن تشارك فيه؟ لبثت غلوار صامتة، محملقةً بعينين مذهولتين.

أكّدت لها دوناتيان أنّ الناس ما زالوا يتذكّرونها، وأنّهم توّاقون لمعرفة مصيرها، غير أنّ غلوار لم تكن واثقة جدًّا من



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

كونها راغبةً في أن يعرف الناس مصيرها. لا أدري، قالت، لا. سأفكّر في الأمر. على أيّ حال لن يُنجَز شيء من دون موافقتك، قالت دوناتيان، فلا تقلقي بهذا الشأن. جلّ ما أطلبه منك هو أن تقابلي سالڤادور، وبعد ذلك يعود إليك أن تتّخذي القرار النهائي.

ثمّ، اعلمي أنّ العملَ لن يكون زهيد الأجر، أردت أن تعلمي ذلك. المال ليس عقبة. لقد سبق وأنفقَ الكثير لقاء البحث عن غلوار في أقاصي العالم ـ لدى سماعه هذه العبارة، يشعل برسونيتاز سيجارة. ولمّا كانت دوناتيان تستعرض مراحل هذا البحث بإيجازٍ شديد، لم يؤتَ على ذكر ما تخللّه من حوادث عنيفة. إذ لم يؤتَ مثلاً على ذكر جان ـ كلود كاستنه، أو حادثة المنارة التي شهدوا وقائعها قبل ساعة واحدة.

يبدو أنّ برسونيتاز ودوناتيان قد نسيا نزهة المنارة تلك. إلّا إذا كانا يؤثران إغفالها غير واثقين تمامًا من أنّها حدثت فعلاً ـ إذ لا يأتي المرء على ذكر هلوسته لأنّ الهلوسة جزء من الحياة الخاصّة. أمّا غلوار فلم تكن راغبةً، فيما يعنيها، في لفتِ أنظار أناس غرباء إلى بيليار وتدخّله في مجريات الواقع. يشعل برسونيتاز سيجارة أخرى، غير أنّه، على غرار ما فعل بالأولى، لم يدخّنَ منها شيئًا نظرًا لكثافة فلترها.

سعت دوناتيان، ما استطاعت، إلى إقناعِ غلوار بصوابيّة اقتراحاتها. المال، الناس، الشهرة المستعادة، ولِمَ لا تكون بدايةً مهنيّة جديدة، واستعادة لمشاعر الحبّ، وهل نأخذ كأسًا أخرى؟ ثلاث كؤوس أخرى احتسوها على عجل ثمّ نهضت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

غلوار مستأذنةً. إذا كنت تريدين أن نتكلّم مجدّدًا بهذا الشأن، قالت دوناتيان، فموعدنا هنا قبل ظهر الغد. لكِ أن تفكّري مليًّا طول اللّيل، ولكن فكّري.

أنغامُ كمنجاتٍ تصدح لدى مغادرة غلوار المكان. في البداية استهلالٌ بتوزيعٍ ثانوي فور نهوضها المفاجئ، ثمّ تدويمٌ متسارعٌ جهيرٌ لدى إلقائها نظرةً أخيرة على دوناتيان وبرسونيتاز، وأخيرًا متلاحقات خاطفة من الاستهلالات في سلسلةٍ من النغمات المتقطّعة لدى ابتعادها نحو دفّافِ المدخل. وجد برسونيتاز نفسه وحيدًا مع دوناتيان. سأحتسي كأسًا أخيرة، قالت دوناتيان. أعلم أنّ مثل هذا التصرّف ليس حكيمًا جدًّا، ولكن لا بأس، الآن وقد حُلّت القضية. ألا ترغب في كأس أخرى؟

ـ لا، قال برسونيتاز، أنا أكتفي بهذا القدر.

بحركةٍ عصبيّة ينتزع الفلتر من عقبِ سيجارة أخرى قبل أن يدخّنها كلّها بمجّة واحدة متطاولة. ثمّ لبثَ حائرًا، ليس واثقًا ممّا سيقول:

ـ ألم تلاحظي شيئًا في تلك الساعة، على منصّة المنارة؟

ـ لا، قالت دوناتيان، لِمَ تسأل؟

ـ لا، قال برسونيتاز، لا شيء على الإطلاق.

يعتقد برسونيتاز، وإن كان غير متيقنٍ من ذلك، بأنّه، على ما يذكر، رأى دوناتيان، في تلك الساعة، وهي تشقّ الفضاء لتنقذه من ميتةٍ محتملة. غير أنه يؤثر ألّا يلحّ كثيرًا على هذه الرؤية. ماذا إذًا، ألن نعودَ إلى ديارنا هذا المساء؟ أردفَ قائلاً.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ لقد تأخّر الوقت، قالت دوناتيان. ألستَ متعبًا؟ ثمّ ينبغي لنا أن نلتقي الفتاة مجدّدًا صباح غد. لا بدّ من وجود غرف شاغرة هنا، الظاهر أنّه فندقٌ جيّد.

بالفعل كانت هناك غرف شاغرة، وكانت حقًّا جيّدة. غرف مصنّفة ممتازة على غرار تصنيف الفنادق في بومباي لكنّها أكثر رفاهيةً وكنكنةً، كما أنّها مطلّة على بحر المانش وليس على بحر عُمان. نوافذها تطلّ عليه من طبقتين مختلفتين. نقيل لساعتين ثمّ نلتقي لتناول العشاء: تتبع برسونيتاز بعينيه مشيةَ دوناتيان المبتعدة باتّجاه المصعد.

عندما استقلّه بدوره لاحظَ أنّ حجرة المصعد كانت مزوّدة بإضاءة أفضل من مصاعد النادي الكوسموبوليتي، غير أنّه، تحت ضوء المصباح العمودي بقربِ المرآة، أدركَ برسونيتاز، كما أدركَ هناكَ، أنّه يتقدّم في السنّ. في قرارة نفسه لم يحسب يومًا أنّه سيواجه مثلَ هذه الحقيقة، مطلقًا. حتّى أنّه لم يرَ أنّها حقيقة محتملة. كان يعيش يومَه كأنّ الأمرَ ليس واردًا، كأنّ الأمر لا يعنيه، كأنّه ليس هنا، ولا بدّ أنّه حَسِبَ في الأثناء أن الزمنَ سيغفلَ عنه. والحال أنّ الزمن لحقَ به من الوراء، متضخّمًا في المرآة العاكسة موشكًا على تجاوزه. يطرد برسونيتاز هذه الخاطرة من ذهنه. ذلك أنّه ينبغي له أن يكون مستعدًّا، وينبغي له أن يُحسِنَ التصرّف، مع دوناتيان، خلال تناولهما العشاء.

دخلَ برسونيتاز إلى غرفته واستلقى قليلاً ريثما يحين الوقت. حَسِبَ أنّه سيسهو قليلاً، متفكّرًا، فوق سريره، غير أنّه غفا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وأبصر أحلامًا مقتضبةً، ثمّ استفاق بغتةً في الوقت المناسب. وإذ راودته بعض مشاعر القلق، تأمّل نفسه طويلاً في مرآة حجرة الاستحمام، قبل أن ينزل. كانت المرآة أقل عدوانيّةً من مرآة المصعد، غير أنّ موضعها ما كان ليطمئنَ الناظر فيها: والبرهان على ذلك أنّ برسونيتاز اكتشفَ بثرةً على الطرف الأيسر من أنفه.

في المبدأ، لم يكن التخلّص من بثرة كهذه أمرًا شاقًا، إذ لا يتطلّب ذلك سوى قليل من سائل مطهّر على قليل من القطن الطبّي. ولمّا لم يعثر برسونيتاز في حقيبة يده على مطهرٍ صِرفٍ، فتّش في الميني ـ بار عن سائلٍ يقوم مقامَ المطهّر. استبعد المشروبات الروحيّة الضاربة إلى الصفرة، كالكونياك والويسكي، محاولاً أن يجد شرابًا كحوليًّا بلا لون، شبيهًا بالسبيرتو: كالجين والفودكا والأكوافيت. واختار الفودكا الذي سكب قليلاً منه على ورقة كلينكس وراح يمسح بها موضع البثرة ـ ثمّ تجرّع ما تبقّى من الشراب لشحذ عزيمته. على غير عادته. حتّى السجائر، قبل ذلك لم تكن من عاداته. وكلّ ما يفعل الآن. إذ لم يعد برسونيتاز يتعرّف إلى نفسِه في كلّ ما يفعل.

في الأثناء كانت غلوار قد انطلقت مجدّدًا في سيّارة لاغرانج، وفي الطريق لم تكفّ عن مناجاة نفسها. كانت مصابيح الأوبل تُحدثُ ثقوبًا مخروطيّة في كتلة اللّيل الهابط، عاكسةً شريط أحداث النهار على شاشة أشجار الحور المزدوجة. من دون أن ترفض أو تقبل اقتراحات دوناتيان، لم يبدر من غلوار أيّ ردّ فعلٍ، ولم تُجِر جوابًا. كانت ترى أنّها فتاة محبّبة، على قدرٍ من الجاذبيّة من الصنفِ الأسمر ذي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الاستدارات الباذخة. كانت حائرة في أمرها. لدى عودتها إلى القُصير عند التاسعة تقريبًا، صادفت لاغرانج أمام المدخل. زعم لاغرانج، وهو شبه سكران، أنّه كان قلقًا وأنّه انتظرها في موعد العشاء. ألا تلاحظين كم الساعة الآن مشيرًا بإصبعه إلى ساعة يده، قبل أن يشير بإبهام اليد نفسها إلى المطبخ. لقد برد الطعام الآن. أمهلني دقيقتين إضافيّتين، قالت غلوار، سأعود حالاً. لا بدّ من أن يكون بيليار قد عاد إلى الغرفة بعد تواريه المفاجئ عند منصّة المنارة. عليها أوّلاً أن تستشيره.

ـ إذًا، صاح الكائن الضئيل ما أن فتحت غلوار الباب، هل كان أدائي جيّدًا؟

بدا مسرورًا لما فعله بعد الظهر. هل علّق أحد على ما جرى؟ هذا ما يودّ أن يعرفه. لا، أجابت غلوار، لم يأتِ أحدٌ على ذكر ما جرى. طبيعي، قال بيليار خائبًا، ومع ذلك أودّ أحيانًا أن يُلاحظ الناسُ صنيعي. فنحن نحتاج إلى دعمِ الجمهور بين الفينة والفينة.

ـ أجل، قالت، لا أدري. ألا تعتقد أنهّ كان من الأفضل لو تخلّصنا منهما؟

واضعًا سبّابته على صدغه، أشار بيليار إلى أنّه فكّر في الأمر غير أنّه لا يعتقد ذلك. لما كان أنقذ برسونيتاز منذ البداية لو اعتقد للحظة أنّه يشكّل خطرًا ما. كما أنّه يعتقد، إجمالاً، أنه قد حان الوقت أخيرًا لكي تعود غلوار إلى الوسائل القانونيّة وأن تندمج مجدّدًا في مجتمع الرجال. حتّى لو صرفنا النظر عن جان ـ كلود كاستنه، وعن الرّجل الآخر في سيدني، ولكن من غير



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

الممكن أن نسعى، إلى الأبد، إلى محو آثار المتطفّلين من دون عقاب. فبالرّغم من قدراته كلّها، وبالرّغم من قدرته على التواري عن أعين الناس، سيأتي يوم يُفتضح فَيه أمره. أليس من الأجدى أن تسعى اليوم إلى التفاهم، وأن ترضخ للنظام العامّ؟ بعد سنواتٍ من العيش على الهامش، قد يبدو الأمر شَاقًا في البداية غير أنّه، هو بيليار، سيكون دائمًا مستعدًّا لمساعدتها. ما الذي تريده تلك الفتاة بالضبط؟ على مضض أطلعته غلوار على اقتراحات دوناتيان الهوائية. ممتاز، قال بيليار، جاءت في وقتها. هذه فرصة قد لا تتكرّر. هل تؤمن حقًّا بما تقول؟ قالت غلوار ممتعضة. طبعًا، قال بيليار، فلنقبل العرض. فهو لن يتكرّر. اذهبي الآن لتناول بعض الطعام. يجب أن تكوني غدًا في أحسن حال.

نزلت غلوار لملاقاة لاغرانج الجالسِ وحيدًا أمام كؤوسٍ في ردهة الطعام. أثناء تناولهما عشاءً باردًا، كانت عيناه تغمضان من تلقائهما، فلم يفهم جيّدًا ما قالته غلوار بشأن رحيلها، ولم يجد في كلامها سوى ذريعة لاحتساء كأس أخرى، وغادرت غلوار المائدة قبله.

في صباح اليوم التالي كان لاغرانج لا يزال نائمًا عندما اتّصلت غلوار هاتفيًا بفندق «الأبسانت». بمضيّ ساعة واحدة جاء برسونيتاز ودوناتيان وسرعان ما وُضِعَت حقائب غلوار في صندوق السيّارة التي انطلقت بعيد ذلك على الطريق السريعة الغربيّة. كان برسونيتاز ودوناتيان يحتلّان المقعدين الأماميين، بينما جلست غلوار وراءهما لجهةِ اليمين، متأمّلةً الطريق التي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تمتدّ أمامهم من الفُرجةِ بين كتفي الراكبين الأماميين غير المتوازيتين: كانت حركة السيرُ سَلِسةً تحت سماءٍ بيضاء. وإذ جرى الاتّفاق بينهم على اصطحابها فور وصولهم إلى باريس، للقاء سالڤادور، سكتوا جميعًا ولم يتبادلوا بعدها أيّ حديث. كان برسونيتاز يقلّب صفحات مجلّة، أمّا غلوار فلم تلتقِ عيناها عيني دوناتيان في المرآة العاكسة إلّا مرّة واحدة. لم نتكلّم في الأمور الماليّة، قالت دوناتيان أخيرًا، لدى وصولهم إلى نواحي نانت ــ لا ــ جولي، هل يُرضيكِ مبلغ مئتي ألف؟ (ولمّا تردّدت غلوار في الإجابة، ظهر بيليار فجأةً على المقعدِ بجانبها: غمزة خاطفة وبسمة مقتضبة: يبسط أمام عينيها أربعًا من أصابعه ملوّحًا بها). أربع مئة، قالت غلوار. أربع مئة، قالت دوناتيان، اتفقنا. (يهزّ بيليار رأسه مبتسمًا ملء شدقيه رافعًا سبّابته قبل أن يتوارى). كانوا قد أوشكوا على الوصول.

الطريق السريعة الجنوبيّة: ثماني أو تسع بوّابات تفصل باب دوتاي عن باب دوريه الذي عنده ترجّلت غلوار. وقالت لها دوناتيان، التي ستعود عمّا قليل لاصطحابها مجدّدًا، أنّ هناك غرفة محجوزة باسمها في فندقٍ قريبٍ من المسجد. ثم انطلقت السيّارة.

ــ إلى أين الآن؟ سأل برسونيتاز.

ــ بإمكاننا أن نحتسي كأسًا، اقترحت دوناتيان قائلةً، أو أقلّك إلى منزلك.

تراءى لبرسونيتاز أنّه انتظر طويلاً قبل أن يسمع نفسَه وهو يقترح على المرأة الشابّة أن يحتسيا كأسًا، إذا كان لا بدّ ولا غنى عن ذلك، ولكن في شقّته.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

ـ فكرة لا بأس بها، قالت بعكسِ ما كان متوقّعًا، إذا شئت. هل تدلّني على الطريق؟

ـ اسلكي باتّجاه ساحة الجمهوريّة، قال برسونيتاز بنبرة محايدة. فأنا أقيم على مقربةٍ منها.

عندما سلكت بهما السيّارة الجادّات المظلّلة بالأشجار، شعر برسونيتاز ببعض الحَرَج، خاصّة أنّ العثور على مكان شاغر لركنِ السيّارة في حيّه من الأمور الشاقّة التي غالبًا ما تربكه. لحسن الحظّ أخلت سيّارة مكانها في شارعه، قبالة المبنى الذي يسكنه. حاول أن يبتكر عبارة عن الحظّ، عن الشارع، عن الحياة، عبارة راقية، روحانيّة، ومحكمة المعنى من قبيل العبارات التي تجمّل الوجود، ولكن عبثًا، لم يجد عندئذٍ ما يقوله. ولكن، بلى، ربّما ـ وما إن همّ بمخاطبة دوناتيان سمع طرقًا مزعجًا على زجاج النافذة من ناحيته. استدار برسونيتاز: كان بوكارا يبتسم له ابتسامةً عريضة مشيرًا بيديه من وراء الزجاج، طالبًا منه أن يُنزل الزجاج.

ـ ماذا تفعل هنا؟ سأله.

ـ إنّها حقًّا لمصادفة سعيدة، قال بوكارا بحماسة بالغة، لقد أردت أن أراكَ، فإذا بكَ أمام ناظريّ.

كان قد عاد للتوّ من رحلته البحريّة ولَفح الشمسِ البرونزي باديًا على سحنته؛ كان يرتدي بذلةً جديدة لا يتناسب لونها الأصفر وقماشها الخفيف مع مناخ الفصلِ السائد؛ ربّما زاد وزنه كيلوغرامًا واحدًا. وكانت دوناتيان ترمقه بنظراتها. أمّا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

برسونيتاز فبدا مرتبكًا.

ـ إذًا، قال، لقد عدت أخيرًا.

ـ لقد قضيت وقتًا ممتعًا، قال بوكارا، كم وكم شاهدتُ وخبرتُ! لن أغفر لنفسي أنّي رضيتُ للرحلة أن تنتهي. لقد التقيتُ ذلك الصنف من الفتيات اللّواتي يعجز المرء عن وصفهنّ. وقد جئتَ إليك لأزورك وأحكي لك.

ـ أصغِ، همّ برسونيتاز بالقول.

ـ حسنًا إذًا، قاطعته دوناتيان قائلةً وقد أمسكت بمقبض تبديل السرعة، سأتركك بصحبة صديقك.

ـ مهلاً، قال برسونيتاز ملتفتًا إليها، مهلاً. وماذا عن تلك الكأس، همسَ قائلاً، ظننتُ أنّنا...

ـ ربّما في يومٍ آخر، قالت دوناتيان مبتسمةً، بإمكانك أن تتّصل بي إذا شئتَ.

ـ ولكن، ردّد برسونيتاز قائلاً.

حافظت على ابتسامتها وهي تعبر أوّلاً مشيرةً برأسها قبل أن تبتعد. تريّثت الابتسامة على شفتيها، كما هي، حتّى آخر شارع إيف ـ توديك، ثمّ كان لا يزال طيفها مرتسمًا على ثغرها طوال المدّة التي استغرقها اجتياز جادة ماجنتا.

ـ ما الأمر؟ سأل بوكارا. لا تبدو على ما يرام.

ـ لا، لا شيء، قال برسونيتاز متتبّعًا بعينيه السيّارة المبتعدة. لا شيء.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

طبعًا كان برسونيتاز يشعر ببعض الحنقِ حيال بوكارا، غير أنّ شعورًا غامضًا بالارتياح كان يلطّف من وطأة حنقه على مساعده الشابّ. الذي بدوره راح يحدّق بسيّارة دوناتيان مبتعدةً. هكذا إذًا: مكثا وحيدين، يحدّقان بها مبتعدةً.

ـ يا لها من امرأة مكتنزة فاتنة، قال بوكارا.

ـ أحقًّا ما تقول، قال برسونيتاز متظاهرًا باللّامبالاة مفتّشًا في جيبيه، هل تجد أنّها مكتنزة وفاتنة؟

ـ هل تعرفها جيّدًا؟ قال بوكارا بشيء من القلق.

ـ بعض الشيء، قال برسونيتاز بتواضع وهو يسحب علبة السجائر من جيبه، أعرفها قليلاً.

ـ أحسنتَ، قال بوكارا.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٧

الشمس، قال سالڤادور في سرّه.

سعى، منذ ساعات الصباح الأولى، وراء أفكارٍ جديدة لمشروعه، دون أن يعثر، كعادته في معظم الأحيان، على واحدة. السماء ملبّدةً، وبين الفينة والفينة، تهطل أمطار على البورت دوريه. سالڤادور ليس مَرِحَ المزاج. هل يتأثّر مزاجه الشخصيّ بهذا العقم، بهذا الجوّ الكئيب أو بهذا الوقت الضائع؟ لا أعلم، ولا أريد أن أعلم حقًّا. ولكن، نحو الظهر، تنقشع السماء، وتتحلّل الغيوم، فتعكس أشعّة الشمس أشكالاً كبيرة، متوازية الأضلاع، على الأرضيّة، وترمي بمربّعاتٍ منحرفة عند الزوايا تنبو عنها أنوارٌ منعكسة. ذلك أنّه إذا كان الجمال الراسخ لا يُخاطِبُ روحَ سالڤادور، فهو، على الأقلّ، يقول في سرّه: الشمس.

لنُمعِن النظر، يقول في سرّه، في تأثير الشمس على الشقراوات الفارعات. ولنفكّر. لا أنصاف حلول معها: فالشمس تلفح أو تحرق، تسمّر البشرة أو تقتل. فإذا كانت



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

تُكسبُ الشقراوات الفارعات الملتهبات والآسِرات بشرةً نحاسيّة، فهي تُرَمّدُ بلا رحمة الشقراوات البيضاوات الجامدات. إذ سرعان ما تمتصّ بشرتهنّ الشفّافة الكثيرة المسام أشعّة الشمس فتحمرّ وتلتهب وتنقشر. تبقى الآسرات، وعلى النحو الذي حاولنا من خلاله أن نرسم صورةً لهنّ في الفصل الحادي عشر: فبشرتهنّ الكثيفة ولحمهنّ الشديد يقاومان الأشعّة ما فوق البنفسجيّة باستماتة. بلى، فلننكبّ، يقول سالڤادور، لنؤثِر الانكباب على حالة الشقراوات الفارعات المُسْمَرّات. عندئذٍ يُفتَح الباب: تظهر شقراء فارعة الطول، مسمرّة البشرة.

مؤنّث، مذكّر، بين بين: إذا كان جنس الشمس يختلف من لغةٍ إلى أخرى، فإنّ طابعها يتغيّر أيضًا بحسبِ السماوات. والواقع أنّ تعرّضها لشمس أستراليا الحادّة ثمّ لشمس الهند المكتنفة، قد أكسبَ غلوار قدرًا لا بأس به من السمرة منذ رحيلها. يقف سالڤادور حائرًا. لوهلةٍ يعجز عن الفهم ـ كما لو أنّ فكرته تجسّدت، بسحر ساحر، أمام عينيه ـ ثمّ يتعرّف إلى المرأة الشابة. مثل هذه اللّقاءات قد تسبّب مسًّا، هبوبَ رياح يعقبه حريق؛ قد تضرمَ ألعابًا ناريّة في صلبِ قوس قزح، مصحوبةً بانهيالٍ متجدّد لأوركسترا وتريّة. والحال أنّ هذا بالضبط ما يعتمل في نفسِ سالڤادور التي بُعِثَت حيّةً؛ سالڤادور الذي فجأةً لم يعد حائرًا. بلى، جسده هو الذي يرفض الانصياع:

ـ آه، بلى، قال وهو ينهض عن كرسيه على نحوٍ موارب، بلى. ادخلي.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

يصطدم بطاولة المكتب وهو يدور حولها لكي يلاقي غلوار، يقفُ بعيدًا جدًا عنها، ثمّ قريبًا جدًّا منها، يقف متردّدًا لا يدري إذا كان ينبغي له أن يمدّ يده ليصافحها ولا يلبث أن يشير بها، بارتباكٍ شديد، إلى كرسيّ مريح. في الوقت الذي استغرقه دورانه مجدّدًا حول طاولة المكتب عائدًا إلى مكانه، كانت غلوار قد تعرّفت إلى الكرسيّ، ثمّ لبثا لبعض الوقت مُنصتين إلى جلبة السيّارات العابرة في جادة الجنرال ــ دودس.

ــ كنتُ في انتظارك، يزعم سالڤادور قائلاً.

غير أنّه يتكلّم كمن يتكلّم على مضض، وبمضيّ عشرين دقيقة لم تسمع غلوار منه إلّا ما سبق أن سمعته من دوناتيان؛ سالڤادور، هو أيضًا، لم يكن أكثر استرخاءً. أطلع غلوار على كلّ التفاصيل الممكنة ــ بدء التصوير في أواخر أيّار، تنقّلات، شهادات، وثائق من الأرشيف، مقتطفات من أفلام، أربعة أيّام في الاستديو، توليف، تسجيل الصوت على الشريط، ثمّ بداية العروض في أيلول ــ، حاول التطرّق إلى بعض المشكلات، ذاكرًا بعض العموميّات ولكن من دون التجرّؤ حتّى على تقديم كأسٍ لها. حسنًا. كان يسعى وراء موافقتها، فوافقت، وماذا بعدُ؟ لا شيء سوى فترات صمتٍ، اضطراب ظاهر، إغضاء، هنيهات متطاولة، وسالڤادور يشعر بارتباكٍ شديد. لحسن الحظّ لم تتأخّر دوناتيان كثيرًا، وجاءت في الوقت المناسب لكسرِ هذا الحوار الصامت. لا تريد غلوار أن تُظهرَ مقدار ارتياحها لمجيئها. إذًا إلى اللقاء، يقول سالڤادور مرتبكًا، أرجو أن نلتقي عمّا قريب.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

بعد ذلك تعود الشمسُ ساطعةً فيما غلوار ودوناتيان تسلكان الطريق الرئيسيّة لاجتياز الدائرة الثانية عشرة، وتعبران السين عند جسر أوسترليتز ثمّ تتابعان طريقهما بمحاذاة حديقة النباتات باتّجاه المسجد. إذا كان الرّجال يتحدّثون فيما بينهم عن النساء، في السيارة أو في أيّ مكان آخر، فإنّ العكسَ ثبُتَ بالبرهان: فبينما المرأتان الشابّتان تجتازان باريس، راحتا تتبادلان وجهاتِ نظرٍ بشأن برسونيتاز ـ الذي تتّفقان على أنه شخصيّة فريدة ـ ثمّ بشأن سالڤادور ـ الذي تؤكّد دوناتيان أنّه، هو أيضًا، رجل على قدرٍ من التفرّد.

سواء أكان فريدًا أم لا، يحاول أن يستأنف عمله بعد مغادرتهما، غير أنّه شارد الذهن، ولن يتمكّن من ذلك. دار سالڤادور دورةً كاملةً بمحاذاة جدران حجرة مكتبه، يتطلّع عبر النافذة، يحاول أن يقرأ بعض صفحات «How to disappear completely and never be found» لكنّه يعجز عن التركيز. يغلق الكتاب ساهيًا ويدسّه داخل كيسٍ من البلاستيك، يثني أوراق ملاحظاته ثنيتين ويدسّها في جيبه ثمّ ينهض عن كرسيه. يريد أن يعود إلى بيته. يخرج. ينزل إلى محطّة المترو. غافلاً عن نفسه ينتظر من دون أن ينتظر قطار الأنفاق الذي يصل، ويصعد إليه. واقفًا، متّكئًا إلى جدار العربة، وبعد أن يلقي نظرةً جوفاء على مجاوريه ـ عجائز مستسلمين، قرّاء مجلّات خاصّة بالمعلوماتيّة مشعّثي الشعور، فتاة سنغاليّة تحمل حذاءً خاصًّا بالتزحلق على الجليد ـ، يُخرِجُ الكتاب من الكيس. بما أنّ الكيس يربكه في طريقة إمساكه بالكتاب يهمّ بوضعه في الكيس، ولكن لا، ما دام هو الكيس نفسه، وتبًّا، إنّه حقًّا لشارد الذهن.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

لدى عودته إلى منزله، في مطبخه الأميركي الطراز، بعد قليلٍ من اللّحوم المجفّفة ونشرة الأخبار التلفزيونية، يفرد سالفادور أوراقه مجدّدًا، ويعاود قراءتها، يستأنف تدوين الملاحظات، حالمًا، ساعيًا إلى طرد غلوار من ذهنه. فلنستَعِد قليلاً ما أوردناه. إذًا الشقراوات الفارعات الآسرات يتلقّين الشمس، تمتصّها بشرتهنّ، يتمثّلنها، ثمّ يُشهِرنها. عبر البشرة. وهكذا، إذ يشبكن سيقانهنّ الرشيقة جالساتٍ على الكراسي العالية، يُشرِقنَ، في أمسيات الصيف في الملاهي اللّيليّة، مثل شموسٍ محمولة. الشمس نفسها، يخلص سالفادور إلى القول، هي شقراء فارعة.

في اللّحظة نفسها، في شارع إيف ـ توديك، يكون برسونيتاز جالسًا، هو أيضًا، في مطبخه المكنكن، غير أنّه، ماجًّا السيجارة تلو الأخرى، يتوصّل إلى استنتاجاتٍ مغايرة. يبدو أنّ برسونيتاز عاد إلى التدخين منذ ليل أمس. كأسان فارغتان مهملتان أمامه على الطاولة. ذلك أنّ سرد المغامرات أشعر بوكارا بالظمأ، وفي الوقت نفسه حثّه الشراب على الكلام من دون توقّف: وفي حالٍ مماثلة لا يعود هناك سببٌ يدعوه إلى التوقّف عن الكلام، وخشيَ برسونيتاز من أنّ ضيفه قد لا يغادره بعد اليوم. كان بوكارا قد غادر للتوّ. على كلّ حال، لم يتمكّن برسونيتاز من الإصغاء إلى كلّ ما جاء في سرده من وقائع، مؤثرًا أن يستعيدَ في ذهنه ذلك المديح الذي أطلقه مساعده الشاب في معرض حديثه عن دوناتيان. ولكن ما أن فرغ بوكارا من سرد القصّة الكاملة لرحلته البحريّة وحاول الاستفسار عن حياة برسونيتاز العاطفيّة، قاطعه هذا الأخير على الفور. وفي



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

النهاية لِبثَ وحيدًا.

إنّه بمفرده لكنّه شديد التوتّر والانفعال. ذلك أنّ المشاعر لا تمثّل الجانب القوي من شخصيّته. لطالما كان الحبّ في نظره قضيّة من دون شهود. وكلّما صادفه سارع برسونيتاز، المرتاب بصوابيّة اختياره وبحقيقة مشاعره، إلى وضعِ حدّ نهائي له من دون استشارة أو طلب النصح. ولأنّه لا يَستعين برأي آخر، صار أميلَ إلى الرضوخ لواقع الحال والاستسلام. ولكن ما إن يلمس التشجيع من طرفٍ محايد ـ كالسيّدة جوف قبل أيّام، وبوكارا، اليوم ـ يبدو كلّ شيء ممكنًا في عينيه. ذلك أنّ الحبّ، كما نعلم، غالبًا ما يمرّ بطرفٍ ثالث، مهما كان ومهما قيل: إيعاز أو نصيحة، سماح، إرشاد، لا فرق، المهمّ أنّ الطرف الثالث يُشجّعك على ذلك. برغم ذلك، يعترف برسونيتاز بمرارة قائلاً، إنّها قصّة لن تُكتَب لها خاتمةٌ سعيدة. إذ يبقى أنّ دوناتيان أجمل (أقصد أجمل منّي أنا الجميل)، وأغنى (غير أنّ هذا ليس صعبَ المنال)، وأصغر سنًّا على نحو ملحوظ (أنظر أعلاه).

بالاختصار، جرت الأمور على نحوٍ وجدنا معه أنفسنا، عند هذا الحدّ من قضيّتنا، أمامَ رجلين متيّمين بامرأتين مختلفتين كلّ الاختلاف. فماذا سيفعلان؟ وإلى أين مآلنا؟



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

## ٢٨

بمضيّ ستة أشهر، وأثناء عرض البرنامج الخاصّ بغلوار، أغوى برسونيتاز دوناتيان، أو العكس. لم يكن، مساء ذلك الخميس، ليتوقّع أمرًا بعينه عندما دَلَفَت، على نحوٍ مباغت، إلى شقّته متذرّعة بأنّ جهاز التلفزيون لديها معطّل. لم يبدر منها أيّ تعليقٍ بخصوص شقّة برسونيتاز: شبه فارغة، أبدًا لا يتأقلم معها. وبشأن الزينة الوحيدة فيها، وهي عبارة عن نبتة ذاوية، اكتفت دوناتيان ببذلِ بعض النصائح لإحيائها. لم يكن لدى برسونيتاز ممّا يُحتسى سوى قليلٍ من الكيرش اقتسماه غير أنّهما لم يشربا منه. ولمّا حانَ موعد بثّ البرنامج، أشعل برسونيتاز جهازه وأشار على دوناتيان بالجلوس على الكرسيّ الوحيد الذي يمتلكه وجلسَ بقربها على ما يشبه المنضدة العتيقة. ثمّ إذا كنّا لا ندري ما هي العبارات التي نطقا بها والنظرات التي تبادلاها، وأيّ مقعدٍ من الاثنين هو الذي بادر إلى الاقتراب من الآخر قبل أن يستلقي برسونيتاز ودوناتيان على مقعدٍ ثالث، فالمؤكّد المعلوم: هو أنّهما لم يتابعا البرنامجَ حتّى نهايته.

يوم الأحد التالي، انتقل برسونيتاز للإقامة في بيت دوناتيان



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

متخلّيًا، ببادرة واحدة خالية من أيّ شعور بالندم، عن شقّته في شارع إيف ـ توديك وعن عمله المتقطّع لحساب جوف. وسرعان ما تحسّن نظامه الغذائي، وتجدّدت ملابسه، وعرفت قسمات وجهه الاسترخاء قليلاً، بالاختصار شهدت حياته تحوّلاً حاسمًا. حتّى أنّه شرع في التفكير جدّيًا بالزواج من هذه المرأة الجميلة ذات يوم، وإنْ كان اسم دوناتيان برسونيتاز اسمًا طويلاً يتعذّر لفظه إلّا بمشقّة.

لأنّ وتدًا يحلّ محلّ آخر، كان لا بدّ لجوف أن يرضخ، إزاء هذا التخلّي، لفكرة استبدال برسونيتاز ببوكارا كعميلٍ أساسي. وقد ارتأى هذا الأخير، تماشيًا مع هذه الترقية، تجنيد مساعدٍ له في أقرب فرصة. بمضيّ ثلاثة أيّام عثرَ له جوف على عنصرٍ جديدٍ يدعى پاتريك برتوميو. واتّضح أنّ پاتريك برتوميو هو شابٌ يميل إلى التأمّل، متحفّظ، هزيل ويرتدي، في الفصول كافّة، صدريّة من الصوف إضافيّة. أمّا النقيصة الكبرى لدى شخص يزاول هذا النوع من المهن فهو أنّ پاتريك برتوميو دائمًا يخشى أن يكون مزعجًا. كان تقريبًا في مثل سنّ بوكارا الذي، لشدّة اشتياقه لبرسونيتاز، لا يجد وسيلةً لاستحضار ذكراه أفضل من التصرّف مع برتوميو كما كان يتصرّف الآخر معه.

غداة ترقيته، ولمناسبة زيارة قام بها لمنزل جوف الغائب عن منزله في معظم الأحيان، لم يجد بوكارا خطّةً لمستقبله أفضل من عزمه على إغواء جنفياف جوف. وفي اليوم التالي اتّضح له أنّ هذا الاحتمال هو بمثابة طريق مسدودة، بمثابة فكرةٍ خاطئة. ومنذ عطلة الأسبوع التالي عمد بوكارا، الذي كان يعمل متخفّيًا



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

مع پاتريك برتوميو على مراقبة مهندسٍ مشتبهٍ به من قبل شركته، إلى الإسرار بكلّ هواجسه إلى مساعده الفتيّ. وكما اعتاد أن يفعل مع برسونيتاز، استرسلَ في التعبير عن أفكاره:

ـ الحبّ، لو تعلم، قال له شارحًا، هو حقًّا أشبه بالثلج عندما يتساقط على باريس. جميل عندما تتساقط ندفه عليك، غير أنّه لا يدوم. بعد ذلك يفسُد. فإمّا أن يستحيل وحلاً، وإمّا أن يستحيل جليدًا، وسرعان ما يتّضح أنّه غمٌّ لا بهجة.

ـ هكذا إذًا، أجابه برتوميو، أهذا حقًّا ما تعتقده؟

ـ أجل، قال بوكارا، أعتقد ذلك. غير أنّي أعتقد خصوصًا، وينبغي أن أذكّرك، أنّكَ ينبغي أن تخاطبني بصيغة الجمعِ احترامًا.

ـ آه، بلى، بلى، استدرك برتوميو قائلاً، أرجو المعذرة.

برنامج سالڤادور الذي بُثّ في مطلع السهرة لقي نجاحًا ملحوظًا إذ حظيَ بمعدّل ١٦،٢ نقطة من نِسَب إقبال المشاهدين وبنسبة ٣٥،٦ من إجمالي السوق الإعلانيّة. وكان الإقبال على مشاهدته مميّزًا في الأوساط العائليّة. جنفياف جوف، المسمّرة على كنبتها، لم تفوّت منه ثانية. وكذلك لاغرانج وزبغنيو في زنزانتهما في فرين. لذا دعّمت ستوكاستيك مواقعها مع المحطّات التلفزيونيّة الأرضيّة، وحظيَ سالڤادور بتجديد عقده. ولم يجد مشقّةً، في ظروف مماثلة، في التفاوض على بضعة أسابيع من النقاهة في الجبل للإعداد لمشاريع أخرى. ثمّ أعدّ حقائبه.

أمّا العاقبة الأخرى من عواقب هذا البثّ، فتمثّلت باضطرار



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

غلوار مجدّدًا إلى تحمّل ما يترتّب على استردادها لشعبيّتها. فقد بدأ الناس يتعرّفون إليها في الشارع، ويبعثون لها بأكياسٍ من الرسائل، كما عُرِضَ عليها أن تمثّل في الإعلانات التلفزيونية، وأن تُنشَر صورها، عاريةً، في بعض المجلّات، وحتّى أن يُعاد تسجيل بعض أعمالها التي لاقت النجاح في السابق. غير أنّنا نعلم كم هي هشّة. فبعد أن استهوتها الحال لبعض الوقت، عاودها ميلُها إلى الاحتجاب، وفقدت شهوتها للطعام، وما عادت تفتح بابها لأيّ كان أو تردّ على الهاتف. حتّى أقلق سلوك غلوار هذا كلّ العاملين في الفندق الذي لم تغادره، والقائم خلف المسجد. وما أن بلغ النبأ دوناتيان هرعت قلقةً إليها برغم استغراقها في حياتها الجديدة مع برسونيتاز، ساعيةً إلى تهدئة غلوار قبل أن تخبر سالڤادور بما يجري.

متذرّعةً بأنّه مسؤول عن الحالة النفسيّة للمرأة الشابّة، أقنعت دوناتيان سالڤادور بأن يُعنى بها وأن يرعاها ويحميها من الآخرين ومن نفسها. لم يستطع سالڤادور في البداية أن يخفي تحفّظه. فهو ليس معتادًا على القيام بأمورٍ مماثلة. على الرّغم من إعجابه بغلوار يبقى ملسوعًا من الحياة، ولذلك يؤثر أنَ يتوقّى العلّة قبل أن يُضطرّ إلى علاجها. مُسدلاً ستارًا حديديًّا لحجبِ مشاعره، حرص طوال فترة التصوير على الحفاظ على مسافةٍ ما في التعاطي مع المرأة الشابّة. لكنّه رضخَ لإرادة دوناتيان. وبذل جهده.

قبل أن يقفل حقيبته إذًا، تثبّت أوّلاً من أنّ غرفةً أخرى سيخليها نزلاؤها في الفندق الذي كان قد حجز غرفةً فيه،



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

والذي كان عبارة عن نُزلٍ للعائلات تديره شقيقتان في منتجع مناخي في جبال البيرينه؛ فقد اعتاد سالڤادور أن ينزل فيه خلالَ إجازاته. لن تكون هناك مشكلة، أجابت الشقيقة الكبرى، عدد الزبائن ما زال قليلاً في مطلع هذا الخريف. وانطلقا بسيّارة.

وصلا في آخر النهار. كان أثاث غرفة غلوار من الخشب الأبيض. الستائر حائلة بتأثير الشمس ومساحيق الغسيل، وكذلك غطاء السرير، والملاءات المنشّاةِ قليلاً. خلَلَ النافذة، في البعيد، ترى غلوار مُرتَسِمةً على غلالة الأصيل كتلتين صخريّتين حادّتين كأنّهما تخطّان إيقاع الأفقِ على آلة رسمِ الدماغ: قاعدة إحداهما موصولة، بوساطة تلفريك، بقمّة الأخرى. بعد العشاء، مُرهقَةً من الرحلة الطويلة، صعدت إلى غرفتها لتنامَ باكرًا، يحدوها رجاءٌ ملتبس، من دون أن يكون أمنيةً، في أن يأتي بيليار لزيارتها. ولكن لا. لم يأت أحد تلك اللّيلة.

ذلك أنّ بيليار بات قليلاً ما يظهر. فمنذ عرض «الشقراوات الفارعات» أضحت زياراته نادرة جدًّا. أشبه بالعاملين بدوامٍ متقطّع في العروض الفنيّة، لا يُعرَفُ أيّ ريح ستحمله معها. بعد وقتٍ لم تعد غلوار تلمحه إلّا على نحوٍ خاطفٍ، دائمًا على عجلةٍ من أمره كرجال الأعمال بين سَفْرَتين، مرتديًا بذلة جديدة، ملقيًا نظرةً على ساعته كلّ خمس دقائق وعلى مفكّرةٍ صغيرة لم ترها معه من قبل. وعلى نحوٍ غير متعمّد يشرع بيليار بالتلميح إلى الصلاتِ العديدة التي أقامها.

غداة وصولهما، اقترح سالڤادور أن يذهبا في نزهةٍ، راجيًا أن يعيد هواء الجبل إلى المرأة توازنها. فعلى مثل هذا الارتفاع



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

وفي مثل هذا الموسم قد يكون الهواء باردًا عند المساء، لكنّه في فترات ما بعد الظهر يكون أشبه بالنسيم الصيفي. غلوار وسالڤادور يسيران صامتين في معظم الأحيان ولا يتحدّثان إلّا قليلاً، ولا يبقيان، على الدوام، جنبًا إلى جنب، كأنّهما شخصان تعارفا للتوّ. أحاديثهما القليلة يغلب عليها طابع التهذيب المتحفّظ الذي يبديه عدوّان ناجيان من الغرق ومجبران على العيش معًا على جزيرة نائية. غير أنّ سالڤادور الذي يعرف المنطقة جيّدًا، يتكلّم أحيانًا ليوضح اسم زهرةٍ يصادفانها، أو اسم طير عابر، ولاشيء سوى ذلك. أمّا غلوار فستجد متّسعًا من الوقت، فيما بعد، للتفتيش عن هذه الأسماء في مصنّفاتها الإنكليزيّة الموجزة حول الطبيعة.

سارا لمسافاتٍ طويلة في يومهما الأوّل ذاك. وقادتهما خطواتهما إلى إحدى الكتلتين الصخريّتين الحادّتين اللّتين تشاهدهما غلوار من نافذتها. يصلان إلى قاعدة هذه الكتلة والتي منها يمكنهما بلوغ قمّة الأخرى بوساطة التلفريك. يرتديان ألوانًا فاتحة، فالطقس شبه حار، تتقدّم غلوار في الطليعة بينما سالڤادور يتبعها على بعد بضعة أمتار، وقد ألقى بسترته على كتفه. تحت برج الأسلاك، بقرب منزل صغير من الخشب، وهو عبارة عن كشك صغير ذي سقفٍ مقوّس من واجهته التي جُعل فيها شبّاكُ تذاكر، مقصورة تلفريك خالية أشبه بطرزٍ عتيق من القاطرات أو مراكب الفيري الراسية على الرصيف. بجانب لفّة ضخمة من التذاكر، يتبدّى، في صدعِ شبّاك التذاكر، جذعُ رجلٍ ذي وجهٍ برونزيّ وأصابع غليظة، مرتديًا سترةَ أنوراك. المنظر ساكن، لا أثر لكائنٍ حيّ على



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

مدى البصر ما عدا سالڤادور وغلوار وهذا الرّجل الذي يبيع أيضًا بطاقاتٍ بريديّة تحمل صورًا للمنظر نفسه.

بعد التثبّت من التَعرِفة الظاهرة للعيان على ملصقاتٍ صغيرة، كانت غلوار قد اشترت لتوّها تذكرتين من الرّجلِ عندما لحق بها سالڤادور. داخل كشكِ التذاكر، نهض الرّجل لكي يشغّل آليّة انطلاق المقصورة. مهلاً، صاح سالڤادور، انتبهي جيّدًا. ذلك أنّني لا أستطيع أن أصعد إلى المقصورة. ترمقه غلوار بنظراتٍ مستفهمة. أنا أخشى العلوّ، يقول سالڤادور موضحًا. لا أطيق الفراغَ تحتي. إنّه يسقمني إذا شئتِ. يخيفني. قد تبدو حماقة، غير أنّ العقلَ لا صلة له بهذا الأمر.

ترمقه غلوار وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة، شبه جامدة، واغرورقت عيناها. هيّا، تعال، قالت بصوتٍ غريب كابتسامتها. ولم يستطع سالڤادور إلّا أن يرضخ فلحق بها إلى المقصورة. أقفل الباب دونهما ما إن أنزل الرّجل الخارج من كشكه عتلة الرافعات، ثمّ ضغطَ على زرّ أخضر كبير: راح التلفريك يتحرّك ببطء. إنّهما يصعدان. يرتفعان. يبتعدان. بينما الرّجلُ يراقبُ واقفًا المقصورة وهي تتضاءل مبتعدةً في الفضاء حيث نسور، أو ربّما عقبان، تتابع تحليقها الدائريّ. رياح خفيفة تهبّ بين الفينة والفينة محدثةً جلجلةً متناغمة على طول أسلاك التلفريك. التلفريك الذي توقّفت مقصورته في منتصف المسافة. دائمًا لا أثر لبيليار.

أنتَ تتوقّع الأسوأ، ومن المتوقّع أن تفعل: مذعورًا حتّى الموت، عاجزًا عن إلقاء نظرة ولو خاطفة إلى الأسفل، يتشبّث



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

سالڤادور، ما استطاع، بكلّ ما يشبه مقبضًا، ويشدّ عليه بعنفٍ حتّى تبيضّ مفاصل أصابعه، وحتّى يشعر بالاختناق. ولكن ها هي غلوار تطالعه بابتسامة وتدنو منه واضعةً إصبعين على كتفه هامسةً في أذنه ألّا يقلق. وها هي يدها تنتقل من الكتف إلى العنق، ثمّ إلى قذال سالڤادور، وينفرق شعر سالڤادور تحت أصابعها. ثمّ، في اللّحظة التالية، كان قد أفلتَ قبضتيه ووقفَ حاضنًا المرأة الشابّة بين ذراعيه.

لمّا كانت ملتصقة به، وشفتاها تلامسان عنقه، يفتح سالڤادور عينًا واحدة، ومن فوق كتف غلوار، يرى الهاوية بوضوح. لكن، وهنا المعجزة الأولى، لا يشعر بأيّ دوار، لا يشعر بأيّ ذهول، كلّ الجهات لا تزال في مواضعها، وبتوافق تامّ مع الابعاد. وغلوار، وهنا المعجزة الثانية، لا تفكّر مطلقًا في أن تدع هذا الرّجل يسقط من علوّ شاهق، ولا حتّى أن تدعه يسقط، في المستقبل، من حياتها. من المحتمل أنّنا أبدًا ما عدنا نحتاج إلى بيليار ــ إلّا إذا كان هو المسؤول الوحيد عن كلّ هذه المجريات ــ ذلك أنّ غلوار وسالڤادور لا يزالان متعانقين بين أرضٍ وسماء، ويتبادلان القبل. مرارًا. وتكرارًا. ولا يبدو أنّهما يرغبان في الكفّ عمّا يفعلان: ومن يشاهد وجهيهما وجسديهما على هذا النحو، يدرك أنّ أيًّا منهما لا يشعر الآن بالألم، أو بالقلق. إذ لم تعد الأماكن المرتفعة تخيفه، كما لم يعد أيّ شيء يخيفها.



Twitter: @alqareah
www.kutub-pdf.net

*Twitter: @alqareah*
www.kutub-pdf.net

أنتَ تُدعى پول سالڤّادور، وتبحث عن شخص ما. يكاد الشتاء أن ينقضي. غير أنّك لا تهوى البحثَ بمفردك، ولا وقتَ لديك، لذا تتصل بجوف... قال جوف: مَن المعنيّ هذه المرّة؟ ثم هزّ رأسه مستنكرًا حين لفظ سالڤادور اسم امرأة. لا، أحسب أنّ الاسم لا يعني لي شيئًا. ومع ذلك هيّا ألقِ نظرة خاطفة، أجابه سالڤادور ممسكًا برزمةٍ من قصاصات الجرائد وصورٍ لامرأة بعينها، تبدو فيها على الدوام وهي تغادر مكانًا ما، ويقتصر شرحها على ذكرِ الاسم: غلوريا ستيلا.

جان اشينوز، من مواليد أورانج (فرنسا) عام ١٩٤٧. من أعماله: شيروكي والحملة الماليزية وبحيرة ونحن الثلاثة وشقراوات (الصادرة عن دار الآداب) وإنّي ذاهب التي حازت على جائزة «غونكور»، أبرز الجوائز الأدبيّة الفرنسيّة.

تصميم الغلاف رسم الجندي

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

www.kutub-pdf.net